The girl of Anasheet
by
Affie Karam

غادة عمشيت

رواية وطنية تاريخية ادبية اجتماعية

تأليف

السيدة عفيفه كرم

الكاتبة السورية المعروفة ومؤلفة بديعة وفؤاد
وفاطمة البدوية الخ

طبعت في مطبعة جريدة الهدى اليومية في نيويورك

Press of Al-Hada, 81 West St. New York.

اهداء الرواية

سبقت لي عادة باهداء رواياتي الى اصحاب الفضل الادبي الاكبر عليّ في الحياة اما الآن فاحب ان اجعل الهدية اعمّ بتقديم روايتي هذه الى ذوات الفضل الاعظم من العائلة البشرية التي يتألف منها ,, الوطن ''

انني بكل اخلاص واعتبار وحب اهديها للاكمام النضرة التي سوف يفتحها ندى المستقبل فتصبح ورودًا — وللزنابق الجميلة النابتة في سفح وعلى قمة الجبل وحفه وقد ابتدأ نسيم العلم والتهذيب يهب فوقها فيحمل شذاها العاطر الى أبعد من الدائرة الضيقة التي نبتت فيها — اهديها الى فتيات اليوم وزوجات وامهات الغد — الى عذارى لبنان الطاهرات

فيافتيات لبنان العزيزات ! اليكن غادة قد جعل لكن الدهر بمصائبها وفضيلتها وصبرها ومبدإها امثولة في التجارب التي هي للنفوس كالمحك للذهب فعسى ان تكون لكن فضائلها المتقدم ذكرها وان يبعد عنكن ظلمها وعسى ان تكون صورة هذا الظلم المصغرة واسطة لفتح اعين والديكن على الحقيقة

المقدسة التي تدوسها في اكثر الاحيان اقدام العادات الظالمة فوق ارض لبنان المفروشة بزهور الطبيعة

وعسى والف عسى ان يكون قد تقلص الآن ظل تلك العاداة الشريرة عادة تزويج الفتيات بسن „الطفولية“ تقريباً وقبل ان تفتح عيونهن على المعرفة بامور الحياة التي كثيراً ما تود بعد فتحها ان تكون ظلت الى الابد مغمضة

وعسى ومليون عسى ان يكون لكن يا اخواتي وعزيزاتي في اليوم والغد اصوات بانتخاب شركاء حياتكن . وان لا تمضين على صكوك بيعكن بيع الرقيق بايدٍ مرتجفة او خائفة او طائعة عن غير معرفة وروية لان الزواج على هذه الصورة „ يانصيب“ الرابحة به واحدة والخاسرات ألف

وألف تحية لكن من خادمتكن" الصادقة باخلاصها ونصيحتها اختكن"

عفيفه

كرم



ا

مقدّمة الرواية

لم احصل على لذّة في كل حياتي الادبية تفوق اللذة التي حصلت عليها بكتابتي رواية ,, غادة عمشيت '' هذه

ذلك لانني سردت في سياق وضعها حوادث تاريخية حقيقية رأيتها رأي العين وسمعت بها عن ثقة سماع الاذن فضلاً عن ان في كل حادثة منها فضلاً يرجع الفخر به الى بلدتي التي اوجدت رجالاً افاضل فاوجدوا هم لها نتيجة ذلك الفضل التي هي الاعمال الشريفة

وذكرت اسماء كل منها عزيز عليّ مكرم مني وبينه وبيني صلة نسب او صداقة او جوار فكان لذكرها عذوبة في قلبي لانها باعمالها فخر لبلدتي ولذة لقلبي لانه جرى بسرد هذه الاعمال صادقاً ومتجرداً عن كل غاية سوى غايـة الاقرار بالفضل وتخليد الذكر واذاعة الفخر

وسميت منها مرابع بل مراتع صبوتي وزهوي ولعبي — اماكن كنت اشطح وامرح فيها لاعبة لاهية وغير حالمة بان المستقبل قد خبأ لي حظاً يساعدني الآن على مشاركة جماهير القرآء

بوصفها لمعرفتها بعد ان كنت اعرفها وحدي ومع قليل من اترابي الصغار

وأهم من كل ذلك انني حاربت فيها آفة هي اساس التعاسة العائلية في لبناننا العزيز اعني بها ,, زواج الطفولة '' او بالحري بيع البنات بيع الرقيق وقتل نفوسهن وقلوبهن وشواعرهن قتلاً ظالمًا وشريرًا فظيعاً ومع ذلك فلا يعاقب عليه احد لانه جائز بزعمهم وشر الجرائم جريمة يأتيها الناس على جاري العادة و بدون وخز ضمير

ثم ابنت افكاري — ركيكة وضعيفة كما هي او لا حق لي بها لكونني امرأة كما يزعم البعض — في الهيئتين السائدتين العظيمتين في الجبل ,, الحكومة والكنيسة ''

فالآن امامكم ايها القراء الكرام روايتي الرابعة ,, غادة عمشيت '' وهي التي تجاوزت فيها حدود التحفظ بافكاري الاصلاحية ومحاربتي للمظالم النسائية فليكن لكل منكم رأيه فيها اما انا فاعتقادي ان لي كل الحق بكتابتها لانني مدفوعة بالاخلاص والغيرة للجنس و بالحب للوطن والبلدة

وترونني قد حدت فيها عن خطة رواياتي الماضية اذ جعلتها عمومية المعنى خصوصية الاسم والصبغة واظنكم تغتفرون لي هذه الانانية التي توخيت فيها القيام بواجب مقدس تفرضه عليّ الغيرة على مآثر بلدتي التي احببت اظهار بعضها فقط للملاء

وهنا لا بد من الاقرار بانني لم اذكر من اشخاص عمشيت

ووجوهها واعيانهـا سوى اولئك الذين يمثلون هيئة عمومية خيرية لانني لو اردت تعداد مناقب ذوي الفضل والوجاهة فيها منقبة منقبة لاقتضى لي عوض الرواية روايات ولحلّت الحقائق التاريخية الجافّة محل حديث الرواية الطلي وهذا ما لا يجيزه لي المقام

ثم انني سردت الحوادث كما اعرف بعضها وكما سمعت بعضها عن ألسنة اعدها صادقة و بكل تجرد يوجبه عليّ موقفي فانتقدت حيث اقتضى الانتقاد ومدحت حيث وجب المدح فاذا كانت الحوادث ذاتها صادقة فلي بها رأيي وانتقادي ولا حق لاحد بمعاتبتي اما اذا كان وقع خلل بسرد بعض الحوادث فانا بكل سرور اقبل الاعتراضات واضيفها الى الرواية بعد طبعها او اعادته

ومعلوم ان غايتي من الرواية هي اظهار المآثر والمآخذ وانا لم اتزلف لجرّ مغنم ولا تهيبت لدفع مغرم لانني لم اتعود مجاذبة الاول ولا مجانبة الثاني وقد كنت دائماً وساكون الى ماشاءالله قائلة الحق ومجاهرة به ولو ضد نفسي لانني الحق وحده لا سواه اطلب

هذا بشأن اشخاص الرواية ,, التاريخيين '' لا الوهميين لانه لا بد من التنبيه الى ان كل شخص يرد ذكره في سياق ,, القصة '' كفريد وفريدة ولوسيا وحبيب وظريفة والخوري متى وجرجس وحنا ووديعة والبرت بك والشيخ يوسف و بالاجمال كل شخص يرد اسمه في القصة الغرامية لا وجود له سوى في

مخيلتي كذلك ان بيوت ابطال الرواية لا وجود لها في البقع التي ذكرتها فيها (ولا اعلم اذا كانت وجدت اليوم اذ قد مضت على مهاجرتي ١٣ سنة) اما بقية اشخاص الرواية فاشخاص موجودون وهم من اركان عمشيت المتينة

هذا بشأن ,, خصوصية الرواية '' اما عموميتها فانيُ قد اكون آلمت بعض الذين ولا شك يعرفون ذواتهم وانا غير نادمة لانني قصدت ان اقول الحق وقد قلته كما اعرفه انا التي اعتقد بان الاكليروس وجد من كبيره لصغيره ليكون من ,, الشعب وللشعب ومع الشعب '' فمن حاد منه عن هذه الخطة اصبح عدواً للشعب ولهذا كل الحق باظهار مساوئه لينتبه هو اليها و يتعلم بها غيره امثولة جيدة

وعلى كل حال ,, فغادة عمشيت '' جمرة رابعة قد سقطت من اتون قلب يلتهب باخلاصه وغيرته للوطن والجنس واذا كانت أشد حرارة ممـا تقدمها من الجمرات فهي ليست على الحرارة التي يلتهب بها غيرها مما يتبعها ان شاءالله ووهب لهذه الحقيرة شرارة من نار القوّة وان شاء الشعب السوري الاقبال على كتاباتها وغض الطرف عن كل قصور يراه فيها لانه حتى الان قد تعوّد ان يراني اطرح امامه في كل وقت بضاعة اخلاصي لا بلاغتي لعلمي بان عظم الاول يشفع بحقارة الثانية وشفيعي هو اخلاصي الصادق الذي افتخر بما عندي منه لوطني وجنسي انا المخلصة

عفيفه كرم

(* الفصل الاول *)

ـــ* على طريق عمشيت *ـــ

في شهر الطهارة والازهار ـــ في ربيع الشهور ـــ في احد ايام شهر ايار البديعة شوهدت عربتان تدرجان على طريق بلدة عمشيت لبنان وداخل كل واحدة من العربتين رجل واحد

وبعد مرور خمس دقائق من دخولهما شعبة طريق عمشيت الممتدة من طريق جبيل والبترون وصلت العربة السابقة الى منعطف في الطريق ودارت براكبها فمدّ هذا رأسه ونظر وراءه فرأى العربة اللاحقة وللحال عرف الذي داخلها انه صديقه فأمر الحوذي بايقاف العربة الى ان تصل العربة الثانية ففعل

وكان نظرا الراكبين قد تلاقيا فعرف كل من الصديقين صديقه واذ اوقف الاول عربته أمر الثاني حوذيه بالاسراع فهزّ هذا سوطه على ظهور خيله وباقل من دقيقة تحاذت العربتان ووقفت اللاحقة بجانب السابقة وخرج منها شاب طويل القامة جداً ممتلئ الجسم حنطي اللون مشرب بالحمرة الطبيعية وله

عينان سوداوان حادتان اذا رمقتا احداً يظن انهما تريدان ثقب صدره والدخول الى ضميره و بعظمة لبنانية مختصة باصحاب الالقاب والوظائف دخل العربة التي كان فيها صديقه وجلس بجانبه وهو يبتسم قائلاً :

ــ انت ذاهب الى عمشيت بدون شك فلا لزوم لعربتي اذن

فاجاب رفيقه مبتسماً ايضاً :

ــ اهلاً وسهلاً

فتناول الشاب قطعة ذهبية من جيبه وناولها للحوذي فلما نظرها هذا اخذ يعرب عن الشكر والامتنان والخضوع وكلمح البصر ادار رأسي جواديه واعمل فيهما سوطه وساق عربته وهو يصرخ باعلى صوته ,, يا لال ‘‘

كان رفيق الشاب الذي في العربة الثانية كهلاً في نحو الخمسين من عمره عليه سيماء المهابة والجلال وهو اسمر اللون حاد النظر كثيف شعر الحاجبين والرأس يعد عند الناس قبيحاً لولا ابتسامة طبيعية كانت تنير ظلمة وجهه دائماً فلما استأنفت بهما العربة مسيرها وضع الكهل يده فوق كتف رفيقه الشاب وقال له مسروراً :

ــ ما اسعد لقاءك يا صديقي البرت بك فهل انت ماض الى عمشيت لشغل

اجاب البرت بك بضحكة معنوية

— انت تعرف يا حضرة الشيخ انني في هذه الايام ,,شمام هواء قطاف ورد '' ولا شغل لي سوى التنقل من بلد الى بلد

فاستلقى الشيخ على قفاه وضحك تلك الضحكة الخازنية الطويلة وقال :

— اشكر ربك انك مرحب بك من السيدات قبل الرجال نظرًا لشبابك وجمالك وغناك ولست مثل ,, هذه الذقن '' التي شابت واصبح يصح فيها قول الشاعر

متى شاب رأس المرء او قلَّ ماله

فليس له من ودهنَّ نصيبُ

فهزَّ البرت رأسه وقال له :

— انا اشارط على طربوشي بانك قادر على سلبي هذا المقام ولو كنت في الثمانين من عمرك لان روحك في فتوتها الابدية يا شيخ ولو قصر الجسد وادركه الهرم

وكأن كلام البرت بك ارجع الشيخ عن هزله فتنهد عابسا وقـال :

ان هذا كلام باطل يا صديقي اذ لكل مقام مقال ولكل زمان دولة ورجال

وفي تلك الدقيقة سمعا قرقعة دواليب عربة آتية من

جهة عمشيت فمرت بجانبهما مرور السهم وكان داخلها رجلٌ شيخ اومأ لهما بالسلام فرد الشيخ يوسف تحيته بوداد ولما كان البرت لا يعرف الرجل سأل رفيقه عنه فاخبره انه (فارس جبور كرم من عمشيت) (١)

ولما سمع البرت بك الاسم هزّ رأسه قائلاً :

ــ أليس هو الرجل (الذي وهب ثروة عظمى لبكركي ؟) فما باله مستعجل الان . هل لديه ثروة اخرى يقصد ان يشفعها بالاولى ؟

اجاب الشيخ : انه الرجل عينه

فقال رفيقه : اظنه مجنوناً

فابتسم الشيخ وقال : بل انا احسبه عاقلاً فما دعاك الى هذا القول ايها الصديق ؟

اجاب البرت بك عابساً : دعاني الى هذا القول عمل الرجل الجنوني ذاته فهل اعد الرجل الذي يهب مالاً وعقاراً قدرهما (اربعون الف ليرة) لمن لا حاجة لهم بها عاقلاً ؟ اوهل تعتقد ان رجلاً كهذا افاد الانسانية بشيء من ماله وقد وهبه

(١) كل جملة او كلمة او اسم علم بين هلالين هكذا ( ) يكون الكلام عنه صحيحاً والشخص المذكور اسمه موجوداً وليس من ابتكارات الخيال وما قصدي بهذا الا اظهار الحقيقة من الوهم في هذه الرواية التاريخية فلينتبه القارىء

على هذه الصورة ؟

فابتسم الشيخ ابتسام رزانة الكهولة امام حدة الشباب وقال بلطف :

— لا تتكلم يا عزيزي عن الافادة التي حصلت من عمله بل عن قصده بذلك العمل لان النظر باهلية الشخص يجب ان يكون قبل النظر بافكاره وبمقاصده قبل اعماله اذ ان الامور بمقاصدها وكل منا يقصد باموره شيئاً يخالف قصد الآخر مع ان كلا منهما يعد ذاته مصيباً فهل تظن انت (ان فارس جبور) رام ان يفعل شرًا او خيرًا بوقفه امواله للاكليروس ؟

اجاب البرت بك هازئاً انا احب ان اعدل بالحكم عليه اكراما لك ولكن هل نتائج اعماله تسوغ صدور مثل هذا الحكم ؟

قال الشيخ : ولكن العدل يقضي علينا بذم العمل لا العامل اذا كان هذا لم يقصد به شرًا بل خيرًا واذا كان مصدره الجهل فان الرجل لا يلام لانه اعتقد ان ماله ذهب في سبيل خيري وانا لا الومه هو بل الوم من وهبهم هذا المال ذاتهم لانهم قبلوه منه ولم يشيروا عليه بصرفه في سبيل خير بلدته و بلاده والانسانية

فهزّ البرت بك رأسه ضاحكاً وقال لرفيقه : وهل تظنهم فاعلين ؟

قال هذا مقطباً حاجبيه :

لا اعلم لان كلامي عما يجب ان يكون وليس عما هو كائن واعتقادي ان واجبهم نحو الشعب المقامين لاجل خدمته او بالحري القطيع البشري المتولين رعايته يقضي عليهم بالنظر لمصلحته فان هذا الشعب محتاج الى امور اهم بكثير من الكنائس الان والاهم قبل المهم فلو ساغ لهم ان يأخذوا من فضلات ماله لا يسوغ لهم مطلقاً ان يسلبوه ضرورياته واذا كان (فارس جبور) لم يدرك الغاية الحقيقية من عمل الخير فهم يدركونها — هم لا يجهلون ان الشعب لا يحتاج الى كنائس اصبحت في قراه بعدد بيوته وهو مع ذلك يدخل اليها ليحل طلاسم لا يفهم لها معنى لجهله بل الى مدارس تنوّر اذهانه وتفتح بصائره فيعرف ما هو الله الذي يدخل ليعبده في تلك الكنائس ولكن ما ادراك ان هذه النية ليست نية بكركي وانها بعد موت الرجل تفعل هي بثروته ما يجب فعله ؟

فقال البرت بك جاداً — انت يا شيخ خانُي واسرتك الكريمة مشهورة بانحيازها الى ,, الاكليروس ‘‘ اما انا ,,فمن الشعب‘‘ او كما يدعوني اصحابك الاكليروس ,, كافر ‘‘ لانني اعبد خالقي كما يريد مني هو ان اعبده لا كما تريد المطامع والخرافات والتقاليد ولذلك فالحق الحق اقول لك ان جواب بكركي لعمشيت سوف يكون بعد موت الرجل هذا . ألم يكن (فارس جبور) صاحب الحق المطلق بماله يهبه لمن يشاء ؟

فماذا تجيب عمشيت اذ ذاك !

فاطرق الشيخ قليلاً يفتكر ثم رفع رأسه وقال برزانة وغيرة:

اذا كان في عمشيت شعب يعرف ان يطالب بحقوقه يجيبها. نعم. ان الشريعة المدنية تجيز لك امتلاك هذه الثروة ولكن هل شريعتك — شريعة الوحي والضمير الحي تجيزها ؟ وهب ان لي ولداً جاهلاً وهبته انا مالاً لاجل احتياجاته الضرورية فحرمه هو لنفسه وذهب فوهبه لصديق لي فهل من مروءة هذا الصديق قبوله اذا كان ولدي عن جهل او لنكاية وهبه هذا المال ؟

فعمشيت او بلاد جبيل كلها هي امّ (فارس جبور) ولها كثيرون من البنات والصبيان الذين هم اخواته واخوته يتضورون جوعاً للطعام الادبي . ان عقولهم وقلوبهم تحتاج الى مدارس تهذب اخلاقهم. تحتاج الى مكاتب تغذي عقولهم والى جمعيات تضم شتاتهم والى مقبرة جميلة تضم رفاتهم والى حديقة عمومية تنزه ابصارهم والى الف أمر آخر كان هذا المال الذاهب سدى كافياً لان يجعل بلدتهم و بلادهم حديقة جميلة في لبنان تنبت فيها ازهار العلوم والآداب النضيرة فهل من العدل ان تأخذ بكركي منهم هذا المال الكثير لتضمه الى مالها الاكثر ؟ واذا كان يوجد (لفارس جبور) اعذار كثيرة على عمله اهمها تقواه وقصر ادراكه عن فهم معنى الخير الحقيقي فهل يوجد لها هي عذر ؟

ان الاكليروس لم يوجد في لبنان ليرث من لا ورثة لهم ويضم هو هذا المال في خزائنه فلا ينتفع به احد غيره وغير اقاربه ومن يلوذ به لان المسيح لما ارسلهم للتبشير لم يقل لهم ,, اينما وجدتم ثروة ضموها الى ثرواتكم وكل من يقدّم لكم مالاً اقبلوه باسم الله '' بل قال لهم ,, لا تحملوا مزوداً ولا عصا '' ,, ولا تعبدوا ربين الله والمال '' فمن هنا يتضح لك انهم يجرون بعكس الآية على خط مستقيم وان قيل ان روح العصر تجيز لهم ذلك فاقول نعم انها تجيزه على شرط ان يقبلوا المال ,, باسم الله '' ليصرفوه على الشعب باسم الله فقط

فجاء الآن دور البرت بك للضحك وللحال اتكأ على جانب العربة واخذ في الضحك فلما انتهى قال لرفيقه :

ـــ لقد نسيت نفسك يا شيخ فانت ابتدأت بمعارضتي واراك الآن تنطق بلساني وتعبّر عما في جناني

فقال الشيخ بهدوء :

ـــ وهل تظن يا البرت بك ان هذه المسألة يختلف فيها اثنان الا من حيث حكم الواحد على الرجل وحكم الآخر على اعماله كما اتفق لنا الان ؟

فقال البرت بك بحدّة :

ـــ ولكن كيف اقدر ان انظر الى الرجل بمنظارك وادعوه عاقلاً والعاقل لا يأتي مثل هذه الافعال بعد ان نهاه كثيرون

عنها ولم ينتهِ ؟

قال الشيخ — وهل حسبت للوسط الذي هو فيه حساباً ؟ فاذا نظرنا الى من تقدمه من اهالي هذا الجبل العزيز واخص منهم اولاً ابناء اسرتي وثانياً اهالي عمشيت وجدت ان لا خير عندهم سوى ذاك الذي يأتي على يد الاكليروس وهذا من تأثير الوسط والطاعة العمياء التي يعوّدها اللبنانيون روساءهم فهل ترى ان احد فاعلي الخير من قديم وهب ثروته لامر ما غير الكنائس والاديرة فكيف نلوم من جاء بعدهم على اعمالهم والابناء انما تقتفي آثار الاباء ؟

ثم هل يمكننا احتقارهم او لومهم وهم قد وجدوا في عصر لم يكن فيه لغير الكنائس والاديرة والاكليروس اسم او شأن ؟ فهذه بلدة عمشيت ترى ان معابدها تكاد تضاهي بيوتها عدداً فما هي فائدتها منها ؟

أفليست كنيسة واحدة تكفي البلدة وتكون اتمّ واعمّ وأجمل وافخم متى كان داخلها كخارجها جميلاً تقياً واعني بالداخل هنا ان يكون علم راعيها لامعاً برأسه كماء الذهب الذي يزين سقفها وطهارته نقية كنقاوة بلاطها وفضله وتقواه جميلين كجمال مذبحها لان الله جميل ويحب الجمال الحقيقي ولان غنى الكنائس محرم اذا لم يُثمّر لاجل فائدة الشعب لان القديسين لا يأكلون ولا يشربون ومع ذلك نرى الاكليروس يجعلهم

ورثة لمن لا وارث لهم واحيانًا لمن لهم من يرثهم

فما ترى عمشيت كانت الآن لو ان اوقاف كنائسها كلها تضم الى واحد ويوقف ريعه لفائدة شعبية عمومية ؟

فقال البرت بك وهو ينظر الى امامه : حبذا لو علم اهالي عمشيت الكرام ان بلدتهم التي اشتهرت من قديم للآن انها هرم الجبل المالي ان الذهب لا يترك اثرًا ولا يجعل وحده فخرًا ما لم يكن هذا الهرم لنفع العموم يظل على ممر الدهور والى ما بعد زوال العمر ناطقًا بالمجد والفخر كهذا البناء الذي اصبح الى جانبنا الآن

الفصل الثاني

— مخايل بك طوبيا —

وكانت العربة تسير بهما بكل بطء حسب اشارتهما وقد طويت الان تلك الصخور والسهول واصبحت مقابل (بناية عظيمة مبنية فوق تل عالٍ يطل على مدينة جبيل من جهة وعلى البحر وطريق العربات الممتدة فوقه الى مدينتي طرابلس والبترون من جهة وهي قائمة داخل سور عال وفي وسط حديقة غناء)

فنظر البرت بك الى هذه البناية وكانت العربة تبعد عنها وقال لرفيقه :

— ان هذه البناية التي يطل عليها الداخل الى بلدة عمشيت من هذه الجهة قبل ان يقع نظره على البلدة التي هي في وادٍ وراءها تشبه علماً نصب للفخر والمجد في بلدة بحق تفاخر به وبناصبه بل هي تنطق بلسان واهبها قائلة ,, تعالوا الي يا جميع المرضى والمتألمين من كل بلد وطائفة وانا اداوي امراضكم واخفف آلامكم ''

فقال الشيخ وهو ينظر مع رفيقه :

— وخير الاحسان ما كان لتخفيف ويلات الانسان والحيوان

فابتسم البرت بك وقال : وهذا ما حداني الى لوم (فارس جبور) فان هذين الرجلين هو (ومخايل بك طوبيا) قد وهبا ثروتيهما لعمل الخير فنرى الاول ملوماً لانه لم يفد الانسانية شيئاً والثاني ممجداً لانه افادها كثيراً

وهنا كانت وصلت بهما العربة الى خرنوبة قديمة قائمة على جانب الطريق ترمي ظلها عليها فكأنها محسنة تحب ان تهب ,, كل ما عندها '' وهو ظلهـا لتقي به المسافرين من حر الشمس فقال البرت بك لرفيقه : دعنا نقف هنا ندخن سيكارتين ونكمل حديثنا لانني التذ به كثيراً واري فرصة اختلائنا نادرة ولا احب ان تضيع سدى

— فاوقفا العربة واشعل كل منهما سيكارته وناولا سيكارة

للحوذي فاتكأ هذا على كرسيه واغمض عينيه ونام سريعاً

فنظر الشيخ الى بيوت عمشيت التي كانت امامهما وقال لرفيقه:

ــ ان الرجل لم يهب المال للبطريركية لتأخذه غنيمة باردة كما سمعت بل لتبني به كرسي اسقفية في عمشيت

فقال البرت بك وهو ينفخ دخان السيكارة من فمه بعدم اكتراث:

ــ حسن هذا المشروع فلماذا لا يطالب اهالي عمشيت باتمامه حالاً . لان من واجباتهم ذلك . لكن رغبته في اتمام هذا المشروع كان يجب ان تحمله على اتمامه بحياته ولا تمنعه من مساعدة مشاريع اخرى ببعض المال وهو في يده

قال الشيخ ــ اظن ذلك لو لم يكن الرجل بهذا المقدار اميناً على هذا المال حتى انه لا يأكل ويشبع منه فعسى ان يكون الاكليروس اميناً على مال الشعب من بعده كما انه هو امين على ما يحسبه مال الاكليروس في حياته

فضحك البرت بك ضحكة مرّة وقال:

ــ انا الوم غبطة البطريرك بهذا الامر لانني علمت عن ثقة انه حينما كان كاهناً نهى فارس جبور كثيراً عن عمله وهو اعدل من ان يجعل سبيلاً الى لومه الان ولكن كلامك يا صديقي يذكرني بحادثة جرت لي في مدينة اوربية في السنة الماضية فقد كنت ماراً باحد شوارعها وبرفقتي رجل اديب فلفتت نظرنا

بناية فخمة هي مكتبة عمومية وامامها تمثال الرجل الذي وهبهـا وتاريخ حياته واعماله والى الجهة الاخرى كنيسة قديمة العهد والى جانبها عدة بنايات قد وقف ريعها للكنيسة رجل كان حاكماً قديماً فقلت لصديقي امـا كان الاحرى بعمدة الكنيسة ان تنصب تمثال هذا الواهب العظيم امام الكنيسة كما نصبت الحكومة تمثال ذلك الرجل امام المكتبة الذي وهبها ؟ فاجاب صديقي ضاحكاً :

ـــ ومتى ,, اعترف " الاكليروس لاحد الواهبين تبرعاتهم له ,, بفضل " ولم يعتبر الامر الا من ,, بعض ما يجب "

فادار الشيخ نظرة نحو المستشفى وقال لرفيقه بضجر :

ـــ وهل ترى عمدة (١) هذا المستشفى عاملت مخايل بك طوبيا بأحسن مما عاملت ذلك الواهب عمدة الكنيسة ؟ فانظر . انظر ! أما كان من الواجب بل اول الواجبات ان ينصب تمثال الرجل على مدخل البناية حتى قبل ابتناء الكنيسة نفسها ؟ فهل تعرف

---

(١) ان عمدة المستشفى الكريمة اهملت امر التمثال وربما كان عذرها ان الحكومة الماضية الجائرة كانت تمانع كثيراً بنصب تماثيل العظماء واما الان بعد بزوغ شمس الدستور فلا شك ان وكيل المستشفى الفاضل يفتكر في الامر ولا يبعد ان يخرج من حيز الفكر لحيز العمل قريباً . (المؤلفة)

يا لبرت بك قصة هذا النابغة ؟

ـــ كلا لا اعرفها فتكرم بسردها عليَّ لان الحديث يطيب في هذا النسيم العليل في وسط هذه الطبيعة وصاحبنا لحوذي يغطّ في نومه الان وهو اكثر منا سرورًا بهذه الاستراحة

فقال الشيخ ان هذا البناء الذي عددته انت عظيماً كان يجب ان يكون اعظم واغنى مما هو الآن بعشر مرّات ليتم قصد المرحوم مخايل بك طوبيا منه (١) ولكنك ترى آفة مشاريعنا العومية في لبنان وسوريا اننا نهب اكثرها ليقوم بعد موتنا ويتولى القيام به ورثتنا من بعدنا ومعلوم ان الوكيل كائناً من كان لا يقدر ان يكون كالاصيل لان الاذواق والمقاصد والاستعدادات تختلف في الاشخاص فالمصور الذي يرسم بفكره صورة ويبتدئ هو فيها لا يقدر ان يتمها سواه بذات البراعة الا نادرًا جدًا وهناك عقبة عظيمة في سبيل اتمام وصية المتوفى بتدقيق هي ان المال متى تناهبته ايدي الورّاث يصبح من الصعب خروجه منها .. فالانسان الذي يعزم ان يعمل خيرًا لا شك بان سروره يكون بنفس قصده فاذا تمم هذا العمل بحياته ينتج عنه امران مفيدان له وللشعب أما له فلأنه يرى نيجة اعماله في حياته ويقتطف هو منها اول واشهي وألذّ ثمارها والثاني انه يبني عمله على

(١) لا يعد الكلام الآنف طعنا على الوكلاء بل انتقاداً عادلاً واري لهم اعذارًا كثيرة اهمها ان الوكيل لا يقدر ان يكون كالاصيل في كل وقت (المؤلفة)

اساس متين فلا يعود احد قادراً على انتزاعه من يد الشعب ... فلو عرف كل رجل خيري هذه القاعدة وجرى عليها لكنت ترى كل مشروع مفيداً في بلادنا كما يجب ان يكون وليس كما هو كائن على نحو ما هي الحالة الحاضرة معنا .

فلنرجع للمرحوم مخايل بك طوبيا (١) ان فخر الرجل الحقيقي قائم بنشاطه ونفسه لا بأبيه وجده لان صاحب الترجمة كان رجلاً عصامياً رحمه الله او على قول الامريكان ,, موجد مركزه '' وهذا تقريباً قاعدة مطردة مع اكثر عظماء الرجال في العالم .

ولد صاحب الترجمة فقيراً جداً الا بالعقل الفريد والذكاء الغير اعتيادي فكانت نفسه تطمح دائماً الى المعالي ونشاطه يدعوه الى الاقدام فلما صار يافعاً كان يذهب ماشياً من بلدة عمشيت الى قصبة بشراي فيشتري خمسين عباءة من هذه المدينة ويحملها على ظهره ويرجع مشياً للقرى التي حوالي بلدته فيبيع العباءات ويربح في كل منها غرشاً واحداً ثم يرجع فيحضر سواها ولما عرف نسيب له هو زوج عمته المرحوم معوض الكلاب وكان غنياً جداً توسم فيه الذكاء والتقدم فأمده بالمال وارسله في تجارة وهكذا من اول استلامه زمام الاعمال

(١) ان المؤلفة اتخذت هذه الترجمة المختصرة عن لسان والديها لان والدها كان كاتب يد اول عند صاحب الترجمة وصرافاً له ومن أعز المقربين اليه ,, المؤلفة ''

اظهر براعة ودربة في التجارة لم يظهرها سواه فسمي بعد ذلك نابغة لبنان التجاري .

وأخذ في التقدم حتى امسك بيده زمام تجارة الحرير والقمح وغيرها وبمدة قصيرة اصبحت اكثر ارزاق لبنان له ونظراً الى تقدمه السريع في الغنى كان الناس يعزون الامر لتألق نجمه في فلك السعد وهذا مشهور عن ابناء وطننا انهم قلما يحسبون للنشاط والجدّ والذكاء فضلاً في تقدم الاعمال مع ان الفضل كله لها وحدها وما ذلك الا لانهم عبدة الهي السعد والنحس ينسبون اليهما كل اعمالهم

وتزوج الرجل ولم يرزق اولاداً ومما يحكى عنه انه اراد دفع ميرة لبنان مرّة فخيّر الحكومة بين العملة الذهبية او الفضية او النحاسية وقال انه يدفعها كلها نقداً ومن نوع واحد فقط ..

ومما يشكر عليه ويدعو الى الاعجاب به هو دقة حساباته وضبطها وحدّة ذهنه وقوّة ذاكرته . اما بيته فقد كان كبيوت الحكام في ذلك الزمان ومجلسه كمجالسهم يضمّ من الناس الادباء والعلماء والفضلاء

وكان رحمه الله لطيفاً مخلصاً غيوراً مع كل جاهه ومجده وكان لا يأنف من مصادقة وملاطفة احقر انسبائه وابناء بلدته الذين كان يكتب لكل واحد منهم ,, ابن عمنا العزيز '' دائماً .

ومات فجأة وبعد وفاته وجدوا وصيته وفيها وهب ثلث املاكه لبناء مستشفى للفقراء في بلدته عمشيت وكان ثلث هذه التركة يبلغ عشرات الوف الليرات في ذلك الوقت ولم ينسَ احداً من اقربائه

وخدمه وعبيده فاوصى لهم كلهم بمبالغ متفاوتة بقدر استحقاقهم وهي مبالغ ليست قليلة

ومما يجدر بالذكر في وصيته قوله بهذا المعنى : انني اترك وصيتي هذه ببناء المستشفى الى الورّاث لكي يتموها فاذا تهاملوا فالى البطريرك واذا هذا لم يعرها اذناً صاغية فالى رومية واذا هذه وضعتها تحت وسادة النسيان فاطلب من الحكومة ان تحصل حقوقي منها والا فمن الله تعالى الذي يحصل حقوق الجميع ·

وكمثل كل الامور العمومية في بلادنا جرى هذا التهامل (١) بل كاد المشروع يصبح في خبر كان لو لم يقم المرحوم يوسف راشد وهو احد انسباء الفقيد و يصرخ صرخة قوية في اذن الكرسي البطريركي والحكومة والورّاث و يضربهم ضربة حق بيد ثقيلة ومهما كان الباعث على صرخته هذه فقد انتجت تنبه الوكلاء للامر والامور بنتائجها

---

(١) لا يقدر احد على انكار التهامل الذي جرى بتنفيذ الوصية حالاً كما انه لا احد يقدر على انكار ما سبب هذا التهامل الذي لم يكن مقصوداً من الورثة وكلهم فاضل ومحب للخير والاحسان ولكن تلك الدعاوي الزورية التي اقيمت من سليم بك ثابت على بيت زخيا وخسرت اعضاءه الوف الليرات وعرضتهم للعذابات المرة عدة سنوات هي التي سببت ذلك التهامل الغير مقصود وانما كلما ينتهي حسناً يكون حسناً

(المؤلفة)

ولم يقتصر مال مخايل بك طوبيا على نفع العالم بواسطة المستشفى فقط بل اورث لهم ،، نزلاً ،، كان مشهوراً وله الفضل على كل طبقات البشر من اكبر متوظف الى احقر شخص في لبنان هو بيت زخيا الشهير الذي ورث اكثر ماله ٠

فان هذا البيت الذي لا تنكر عمشيت فضله كان منبعاً للضيافة الحاتمية وترساً لعمشيت تتلقى به كل الضربات والضرائب من الدين والدنيا وبقي كذلك مدة عشرات السنين ولا يزال اعضاوءه للآن وان تفرّقوا مجمع الفضل والغيرة والكرم ٠ فمما يذكر عن السعيد الذكر البطريرك بولس مسعد انه اودع بيت زخيا مال الكرسي حينما سافر الى الاستانة ولم يأتمن احداً في لبنان عليه غير (المرحوم يوسف زخيا) الشهير بفضله وكرمه ٠

وقد استضاف الفيلسوف رنان في اثناء رحلته الى الشرق هذا البيت الرحب ومكث فيه شهوراً وفيه مرضت اخته ٠ وماتت ودفنت في مقبرة بيت زخيا الشهيرة بجانب كنيسة السيدة في عمشيت ولم يزل جثمانها هناك للان ولم تزل اثمن وديعة عنده في بلدة عمشيت التي أحبها وكان فيها شبه ملك على عرشه كما كتب لاصدقائه في باريس ولهذا الفيلسوف اجمل الكتابات في بلدة عمشيت واهلها وعندي ان هذه الكتابات وحدها هي اثمن من كل مال عمشيت لانها تخلد والمال يفنى (ولمخايل بك طوبيا) اكثر الفضل بها

فقال ألبرت بك مسروراً :

ــ ان (مخايل بك طوبيا) بحق يدعي كارنيجي عمشيت و يؤلمني ان لا اكون قرأت تاريخ هذا الرجل من قبل فهل كتب تاريخه ؟

فهزّ الشيخ رأسه وقال : غداً يكتب تاريخه على قاعدة التمثال الذي ينصب له على مدخل المستشفي ...

فانغض البك رأسه ايضاً وقال : ان فخر كل بلدة برجالها ونسائها الحقيقيين وعمشيت لها حق بهذا الفخر لان فيها عصبة من هؤلاء ولكن كم هو مؤلم ان لا يكون (فارس جبور) منهم مع انه قادر ان يكون

فقال الشيخ وهو ينظر بوجه رفيقه :

ــ لا تظلم الرجل يا عزيزي لانه قصد حسناً فليس الذنب ذنبه ان تجيء نتائج اعماله مخالفة لمقاصده فعسى ان يعدل الاكليروس معه و يباركوا اسمه بعد موته

فابتسم ألبرت بك وقال ــ عسى ان تعكس الآية

اجاب الشيخ بل عسى ان يتعلم الشعب معرفة حقوقه المقدسة و يطالب بها

الفصل الثالث

ذلك المنظر البهج

عند هذا تناول ألبرت بك قضيبه بيده ووخز الحوذي به فاستيقظ

هذا وفرك عينيه وامسك بيده السرعين وألهب بسوط ظهري جواديه المطهمين فجعلا ينهبان الارض نهباً و بأقل من دقيقتين اصبحا بين اول خط من بيوت البلدة المصفوفة على جانبي الطريق فتحوّل نظر الرفيقين كلٌّ الى جهة — الشيخ يوسف الى دور عمشيت وهي على بعد نحو خمسين ذراعاً منه وألبرت بك الى الجهة اليسرى من الطريق وسكت كلاهما سكوتاً تاماً آخذين لنفسيهما الراحة بعد الحديث ولم يطل سكوتهما سوى بضع دقائق حتى هزّ ألبرت بك كتف رفيقه وقال له بلهفة وتعجب :

— انظر . انظر !

فحوّل الشيخ نظره الى الجهة التي اشار اليها رفيقه ووقع نظرهما معاً على منظر من ابدع المناظر عند محبي الجمال الحقيقي وعارفي مقدار العواطف الطاهرة

فتاة في نحو الرابعة عشرة من عمرها ولكن جسمها لطوله وامتلائه ينمّ بها للناظرين فتخالها في السادسة عشرة — وهي جالسة في ارجوحة معلقة بغصن سنديانة قديمة امام بيت حقير ووراءها غلام في نحو السنة الرابعة عشرة يرجحها بعنف وشدة وهو يضحك بصوت عالٍ

لا يعدّ الجمال تاماً الا اذا كان طبيعياً لا اثر للتكلف والتصنع فيه وكذلك فقد كان جمال الفتاة متجلياً على عرش عظمته وبهجته وهي جالسة على تلك ,, الحبلة '' التي تحسبها عرشاً وهي ملكة اغراس

مملكتها ذلك الحرج القائم الى جوانبها ورعيتها ذلك الغلام الذي يرجحها — وكان شعرها الخرنوبي الطويل محلولاً ومنتشراً على كتفيها وصدرها يغطي نصف عنقها والنسيم يلاعبه ملاعبة العاشق للعاشق فطوراً يضمه فيلصقه بصدرها وتارة يداعبه فيطيره عنه — ووجهها الابيض يشبه قرطاساً خطت عليه الطبيعة بيدها البارعة آيات الجمال وسور النضارة والصحة بمداد احمر كاون الشفق فوق لوجنتين — ثم اضاءت فوقهما مصباحي العينين بزرقتهما الصافية وجعلت لهما غطاء من الاهداب السوداء المجعدة الطويلة ليعكسها النور على الوجنتين ويظهرا حسنهما للناظر فيسلبا به الالباب — وكأنها بعد ان فرغت من عملها هذا ورأت ما صنعت يدها عرفت انها اوجدت للعالم فتنة في كنز ثمين لا بد من اطماع النواظر ومحاولة سرقته فارصدت فوقه عضبي الحاجبين لتحمي بهما حديقة الجمال البديع من كل طارئ من سهام العيون السامّة — وكان العرق يقطر من فوق ذلك الجبين الوضاح كأنه نقط الندى فوق اكمام ورد الصباح وقد اعار التعب من الارجوحة عينيها بريقاً لامعاً كأنه شرارة من حرارة الخدين زادت ذلك الجمال رواءً وبهاءً

ولم يكن جمال الفتى سوى صورة مصغرة لجمال الفتاة فكأنهما باعتبار سموّ الجمال النسائي عن جمال الرجال في الحسن صنوان والسعادة شقيقان — وكعادة الاولاد كان الغلام يدفعها مرجحاً اياها بعنف

ربما ادّت اليه حرارة قلبه نحوها وهما يلعبان وقد ساعدته الطبيعة عليها فغلبها نظراً لكبر سنه وهي قدملّت وتعبت وتريد النزول من الارجوحة لتستريح وهو لا يوقفها مداعباً فلما وصلت العربة امامهما صرخت فيه باعلى صوتها قائلة :

— اخجل يافريد من الخواجات ركاب العربة فاذا لم تنزلني استغيث بهما — انه يكاد يغمى عليّ

فقفز الغلام حالاً حين استماع كلامها الى ان صار امامها وللحال تناولها بذراعيه واجلسها على حجر وجلس بجانبها فنظرت اليه متظاهرة بالغضب وقالت له بدلال :

— لقد كدت تقتلني بلعبك الخشن

فاثبت نظره فيها وقال — انني اقتل العالم كله وابقي عليك وحدك به وكان كلامه بهذا المقدار لطيفاً وبحدّة اضحكها فقالت هازلة :

— كم اشكر الله لانك لست شمشون هذا العصر

وكانت العربة قد ابتعدت عنهما وانظار من فيها لم تزل متحوّلة نحوهما فلما غابا عن الانظار . قال ألبرت بك للشيخ يوسف .

— هل رأيت اجمل من هذا الجمال بحياتك ياشيخ ؟ ان هذه الفتاة برعم جميل في حديقة عمشيت سوف يكون من اجمل ورودها .

فهزّ الشيخ رأسه بعاطفة من يعرف الشيء كما هو ويتأسف عليه

وقال لرفيقه :

ــ نعم اذا لم تقطف قبل اوانها . فهلا ترى ياصديقي ان هذه الفتاة فقيرة فلا يبعد ان تسمع غداً ان اباها ازوجها رغماً عنها لغني طمعاً في ماله او لفقير تخلصاً من نفقتها في الحياة وهي في سن" لا تقدر أن تدافع فيه عن حقوقها فتكون كفرخ الحسون الذي يأخذونه صغيراً و يسجنونه في قفص يمكث فيه طول حياته سجيناً يصفق بجناحي تعسه يطلب الفرار الى فضاء الحرية ولكن وا أسفاه . انهما يقعان على حديد القفص فقط .

فتنهد ألبرت بك وقال : ان هذه اكبر الجرائم بوطننا وهل توجد جريمة اكبر من قتل القلوب والعواطف قبل بلوغها ؟ ولكن هل ترى هذه الجريمة واقعة على هذه الفتاة ؟

فقال الشيخ متمرمراً ،

ــ واي عجب بذلك وهذا هو ,, الزي" الحديث ‘‘ بالزواج عندنا اباء وامهات يبيعون فلذات اكباهم لغول الشقاء وهم يحسبون قلوب الفتيات سلعاً تباع وتشرى

وكانت العربة قد وقفت بهما في وسط ساحة عمشيت فقال ألبرت بك لرفيقه انا ذاهب الى بيت صديقي الكافليار سليم وهبه فهل انت رفيقي ايضاً ؟

فقال الشيخ هذا هو مقصدي

اذ ذاك ترجل الراكبان من العربة وذهبا مشياً على الاقدام لان طريق العربات لم تكن امتدت يومئذٍ الى سائر بيوت البلدة كما هي الحالة الان فكان الشيخ يفكر بشغله التجاري الذي جاء عمشيت لاجله والبرت بك ينظر بعين فكره الى صورة الفتاة التي طبعت على مخيلته ولسان حاله ينشد قول الشاعر ·

خيالُك بين طابقة الجفونِ وذكرُك في التحرُّك والسكونِ

الفصل الرابع

فريد وفريده

فلنترك الضيفين في دار مضيفهما الفخيمة يغذيان عقليهما بحادثة وجهاء عمشيت الذين خفوا للسلام عليهما وقلبيهما من لطف اصحاب الدار وحسن ضيافتهم ونرجع الى الفتى والفتاة اللذين تركناهما على طريق العربات

ففريد كان وحيد والديه وهو امريكي المولد لانه ولد لهما في الولايات المتحدة وكان والدا فريد من افراد المهاجرين الذين يتركون بلادهم وعلى اعينهم عصابة الجهل فلما يأتون امريكا يزيحها التمدن والعلم والاختبار وتساعده قوة الاستعداد

لتفتح ابصارهم على كل حسن من العوائد فيقتبسونها وكل حلو من العلوم فيرغبون فيها

ومضى على مهاجرتهما نحو خمسة عشر عاماً كانت تنبض في صدريهما من تأثيرها روح الحرية وحب التمدن وفي قلب ولدهما الصغير الذي رجع الى الوطن في السنة العاشرة من عمره روح الاستقلال الشخصي والاعتماد على النفس اللذين اشربته اياهما مدارس اميركا

ولم يكن لوالدي فريد همّ سوى تهذيب ولدهما وتنشئته على اسمى المبادئ واشرف الاعمال لانه كان قبلة امانيهما وموضوع آمالهما فكان جرجس والد فريد حينما يجلس يتحدث مع امرأته عن عظمة اميركا وغناها وحرّيتها ويقيسها بخمول لبنان وفقره وعبوديته يتنهد من اعماق قلبه ويقول لها:

— ان امنية نفسي الوحيدة يا وديعة هي ان اورث فريد ثروة لا يقدر هو على صرفها ولا احد على انتزاعها من يده — ان اعلمه واهذبه وابثّ في قلبه مبادئ الشرف والعظمة ليكون شريفاً عظيماً — فان الاحوال حرمتنا نحن هذه الامور ولكن الله عوّض علينا بها بولدنا فاذا متُّ فاحفظي وصيتي ولا تنسيها — ولكن آه يا ليتنا كنا في اميركا. فتجيب المرأة بلهجة الامّ المفتخرة المحبة:

— ان لي املاً كبيرًا بفريد يا جرجس ولكنني اذا

احببته كما ذكرت فلكي يخدم بلاده لا اميركا بعلومه ومبادئه ٠

فيهزّ الرجل رأسه قائلاً :

— وهل تأملين ان يكون ابنك حرًّا وهو في قفص العبودية يا وديعة ؟ (١)

ومن اين لوالدي فريد علم الغيب ليعلما ان بلادهما كانت على وشك الدخول بطور جديد وانهما بعد بضع سنوات يصبحان ابناء امة حرة شعارها ,, الحرية والعدالة والمساواة '' ٠ انهما كانا يجهلان هذا كجهلهما مستقبل فريد

وكان بيتهما مؤلفًا من قبوين سفليين واربع غرف علوية حولها حديقة صغيرة مرتبة وجميلة بيد وديعة والى جانب بيتهما للجهة الغربية بيت احد اصدقائهما واسمه حنا وهو والد فريدة التي مر ذكرها مع فريد

توفيت والدة فريدة عروس الرواية وهذه في الشهر الاول من عمرها فلم تشعر بحرارة ثدي الام الحنون على فمها ولا بنفسها

(١) ابتدأت بكتابة هذه الرواية في اوائل سنة ١٨٠٩ وذلك قبل بزوغ فجر الحكومة الدستورية في وطننا بشهور قلائل فكأن الله لم يرد ان تُحرَم الدخول لوطننا وربما صاحبتها من دخوله ايضاً ٠ لانني شعرت بالفرح الذي شعر به كل قلب وطني بتحرير بلاده من ربقة الاستبداد وانا اكتبها فغيرت فيها بعض فقرات اقتضى تغييرها

المنعش فوق وجهها ولم تشرق عليها شمس ابتسامة ام حنون كانت نعجة في حظيرة ذئب وكانت تلك الام الطاهرة شربت قبل ابنتها كأس الظلم الى ان وصلت الى اسفلها حيث هو السم القتال فتجرعته وذهبت تاركة اياه لابنتها التي ورثته من بعدها والتي خسرت بخسارتها امها كل حب وحنو في الحياة .

وكان والد فريدة من اولئك الرجال الخشنين الذين يحسبون الظلم عظمة والتوحش لطفاً وهو فاقد التهذيب والعلم والتمدن بالكلية ولكنه كان ذا فهم وحذق لا ينكران عليه فاحب فريدة كثيراً لانها ثمرة زواجه الوحيدة ولكن بطريقته الذئبية فقط لانه لم يكن يعرف الحنو حتى امام دموعها المنسكبة ويحسب كما هو اعتقاد البعض ان حب الفتاة هو ,, رص مخها " واللطف للمرأة هو العبوسة بوجهها ولم يتزوج حنا بعد موت زوجته فعهد بابنته الى اخته فربتها هذه كما تربي ولداً لها

فجاءت فريدة آية في الجمال والذكاء وقد ورثت بذلك امها ولم يكن الناس فقط يعرفون جمال فريدة بل هي ايضاً تعرفه وحتى والدها مع خشونته كان يفتخر به ويحسبه أعظم منّة ارضية له

ومعلوم ان الجمال نوعان تام وغير تام . فالجمال الجسدي وحده هو نصف الجمال ـــ ويتم اذا قرن بالجمال الروحي اما فريدة فان جمالها الجسدي كان يعدّ ,, اعجوبة " وجمالها

الروحي الذي تمثل بذكائها كان يعدّ ,, وحياً " وكانت ذات جاذب يجذب قلوب البشر اليها وهي صامتة لكنها اذا تكلمت اسرها ولما كانت في السنة الثانية عشرة من عمرها كانت تحسن العربية والفرنسوية جيداً ولها المام بالانكليزية وكانت تقرأ باللغة الفرنسوية من تآليف روسو وفيكتور هوغو وغيرهما فكانت مطالعة هذه الافكار تجمع في قلبها حطب الحرية والنبوغ ولكن لا تضرمه لانه لم يأتِ وقته بعد — وفريد هو الذي كان يأتيها بهذه الكتب

وبوجود جمالها وسمو افكارها وتصوراتها واخلاقها كنت تجدها دائماً في مصاف بنات الاغنياء وهي اغناهن بكل هبة الهية وطبيعية وافقرهن بالمال

واعتاد فريد مرافقة فريدة الى المدرسة في كل يوم من حين تجاورهما واذ كانت هي في سنها التاسعة وهو في الحادية عشرة

واذ لم يكن الفتى حين رجوعهم من امريكا يحسن التكلم بغير اللغة الانكليزية كانت فريدة معلمته الاولى بلغة وطنها — العربية — التي كانت ايضاً اول وآخر من سمع الفاظها الحبية العذبة من فمه من النساء

من يوم تحاذي اقدام الولدين للذهاب للمدرسة تحاذى قلباهما في السير على طريق الحياة والحب

ولم تكن تلك السنين التي قضياها في الذهاب الى المدرسة والرجوع منها واللعب والاكل معاً الا تمرّناً لهما على فن التقرب والالفة فازدادت نبضات قلبيهما التصاقاً واتحاداً حتى نبض القلبان كواحد وهما لا يفقهان لذلك معنى

وكم اجتمع الثلاثة — جرجس ووديعة وحنا — تحت السنديانة القديمة التي امام بيت الاخير ولاحظوهما يلعبان ، تحدثوا بشأنهما وكانت وديعة أكثر الثلاثة ارتياحاً الى حبهما الطاهر وسعادة بالحصول على فريدة متى آن الوقت المناسب وهي تحسبها موافقة لفريد وتنتظر الوقت الذي يناسب لتجعلها زوجة لولدها برضى الحب والمناسبة والاهل

ومع تساوي فريد وفريدة بالجمال والصحة والمبادئ فقد كان اختلافهما بالطباع ظاهراً لان الفتاة كانت لها البشاشة خلقة والابتسامة طبيعة واللطف عادة والهزل صابوناً يجلو القلب من همومه ولو ظاهراً ولكم اخبر العجائز عنها بقولهن " انها عند ولادتها ,, استقبلت هذه الارض بضحكة قوية " وهكذا فان هذه الابتسامة رافقتها الى لحدها وقد كانت في ابان اشتداد مصائبها وهبوب عواصف الحياة الشديدة حولها اكبر مساعد لها عليها وامضى سلاح عليها كما كانت سلاح اصحاب الظنون الرديئة والشكوك الفاسدة فيها — بل كانت حجاباً كثيفاً تسدله فوق وجه مصائبها فيحجبه عن انظار الناس

وانما هذه التي كانت اجمل ما فيها من انواع الجمال — هذه الابتسامة الطاهرة — كانت لها نقمة لا نعمة — اذ جلبت عليها اكثر مصائبها العالمية ولا غرو فابتسامة المرأة الجميلة شرك تنصبه للناس بدون قصد منها فبعد ان يقع فيه طيور الخفة والطيش والفساد تنقلب بشاشتها الى عبوسة وابتسامتها الى دمعة

وكانت فريدة كطير جميل يطير من فوق الاقذار ولا يلمسها بقدميه — منزهة النفس شريفة المبادىء من طبعها وكبيرة عن كل حقارة ودناءة وقبل ان دخلت الى طور اختبارها كانت تحسب كل البشر مثلها فاوقعتها عواطفها هذه في شر المصائب

اما فريد الذي كان شريف المقاصد طاهر النية سامي الفكر ايضاً فقد كان جدّياً الى حد العبوسة الدائمة ومتحذراً الى درجة اساءة الظن بكل البشر

فمن هذه الجهة كانت كل الامور تدنيهما بالمشابهة وهاتان الخلتان تبعدهما عنها وكثيراً ما كان هذا التفاوت سبباً للنفور بينهما في حياتهما المقبلة ولكنه نفور وقتي لان الحب كان اعمق من ان تصل اليه يد النسيان والسلو

وهل تلام فريدة اذا كانت لم تقدر في اول الامر على العمل بمشيئة فريد من تغيير طبيعة نفسها والتحذر والعبوس بوجه كل انسان خوفاً من الوقوع بشر الظنون الفاسدة ؟ انها

لم تكن تقدر قبل ان اختبرت وازدادت عقلاً ان تتظاهر بما ليس فيها

لذلك بقيت فريدة شطرًا كبيرًا من عمرها كحسونة الحقل تغرد على اغصان الحياة وفريد ينظر اليها بعين الصقر ويحميها بها

صغيران في ظل الهوى ليس فيهما
معابٌ وهل في الحب عيبٌ اذا سطا

الفصل الخامس

الجريمة الجائزة

كان اليوم السابع عشر من شهر ايار الجميل الذي ابتدأت روايتنا به هو اليوم الاول الذي شعر فيه فريد بان بينه وبين فريدة حائلاً من الحوائل وانها ليست له بعين كل احد وكل شيء كما هي كذلك بعين قلبه

ففي صباح ذلك اليوم قصد والدا فريد وابنهما الذهاب الى مدينة جبيل لزيارة بعض الاصدقاء وكان من عادة فريدة ان تذهب معهم الى كل مكان لان وديعة امّ ثانية لها

استيقظ فريد صباحاً باكرا في ذلك اليوم وذهب الى بيت فريدة ليوقظها حسب وعده لها اذ انها كانت تحب النوم

صباحـا فلما وصل وجد حنا خارجا وهو جالس على مصطبة امام الباب وامامه نارجيلة يدخن بها وللحال عرف قصد الفتى من الحضور فقال له بعبوسة غير معهودة منه :

ـــ ان فريدة لاتقدر على الذهاب معكم اليوم لانها مشغولة في البيت

فرجع الغلام بدون كلام وكان الدمع يصل الى حدقتيه ثم تمنعه عن السقوط كبرياؤه فلما اخبر والدته بالامر تهيأت هذه وذهبت الى بيت حنا لتستطلع الخبر بنفسها ولمـا سألته عنها اجابها بذات الجواب الذي اجاب به ولدها

رجعت المرأة كما رجع ولدها لانها كانت تعرف عناد جارها وانه متى قال كلمة لا يرجع عنها سواء كان مخطئا او مصيبا · وأنى له التهذيب الكافي ليعرف ان شرف الانسان يتأتى من رجوعه عن خطأه وليس من اصراره عليه

وبعد ساعة درجت العربة بفريد ووالديه ومرت من امام بيت حنا حيث كانت فريدة واقفة على جانب الطريق تنظر الى فريد وتبكي وتمسح دموعها بمنديلها الى ان بعدت عنهما العربة واخرس لسان الدموع الساكتة الذي كانا يتخاطبان به

عندئذ رجعت فريدة الى البيت باكية وذهب فريد الى جبيل باكيا ايضا وكل منهما يشعر لاول مرة بمرارة الفراق وبحؤول الحوائل دون اللقاء

وبالحقيقة ان ذلك اليوم كان يوماً غريباً في حياة الفتاة شعرت بانه هائل مخوف ولم تعرف لماذا شعرت كذلك . فانها رأت عمتها التي ربتها تهتم بترتيب البيت واعداد انواع من الحلوى صباحاً ورأت والدها راجعاً من الساحة ويداه مثقلتان بحمل انواع الفواكه ووراءه غلام يحمل له مكسرات وبعض قناني مشروبات لم ترَ موجباً لوجودها في بيتهم بل انها لم ترَها فيه من قبل فكانت حركة غير اعتيادية في ذلك البيت يقوم بها كل من فيه حتى فريدة نفسها التي كانت تساعد عمتها بهذا الشغل وهي مع ذلك ساكتة بافكارها في وسط الحركة ـ انها كانت تعد معهم الاحجار التي يبنى بها ,, سجنها الابدي ‘‘ وهي لا تدري

وعند المساء انتهى اهل البيت من اشغالهم ومدت مائدة انيقة في وسط المنزل المبني على طرز بيوت لبنان القديمة اي انه كناية عن غرفة واحدة مستطيلة ذات قاعدتين في الوسط تسندانه فلم تعد فريدة تطيق السكوت فسألت عمتها قائلة :

ـ ما سبب كل هذه الحركة ياعمتي هل عندنا ضيوف الليلة ؟

اجابت عمتها ضاحكة وقالت :

ـ نعم ياحبيبتي عندنا ضيوف

قالت الفتاة باستغراب ولكن من هم ؟ انني لم اتعود جهل الاشياء التي تجري في البيت

فقالت عمتها . انك لا تعرفينهم الان وستعرفينهم فيما بعد .

فانقبض قلب الفتاة من كلام عمتها وهمت ان تستجلي الكلام منها فسمعت صوت والدها يناديها فاسرعت اليه وقلبها ينبض نبضات الخوف من امور لم تزل طي الكتمان ولكن قلبها يدلها عليها كما يدل تلبد الغيوم على قرب وقوع المطر

مشى الوالد امام ابنته وامرها ان تتبعه الى الخرنوبة الكبيرة فمشت وراءه مطرقة الرأس كانها تقرأ في الارض سطوراً تزعجها ولما وصلا الى تلك الخروبة التي تبعد قيد اذرع عن البيت جلس كل من الوالد والبنت الواحد مقابل الاخر وكان الاول ينظر في الفضاء وهو حائر لا يدري كيف يفاتحها الحديث والثانية تنظر اليه بدهش من ارتباكه

و بعد سكوت عدة دقائق نظر الوالد في وجه ابنته الملائكي الجميل وكأن كهربائية الوداعة سرت منها اليه فشعر بان له ,, قابلية " لملاطفتها — ولا يبعد ان يكون شعر ايضاً بانه يظلمها بما هو عتيد ان يقوله لها ولكن شعوره هذا كان من نوع شعور القصاب نحو النعجة التي يذبحها —

وخانت البنت قواها من نظر والدها فقالت له مضطربة :

— لماذا اتيت بي الى هذا المكان ياابي ؟ ان في عينيك خبراً لي ارهبني فما الذي تريد ان تقوله لي ؟

فقال الوالد بلطف وقد جرأه كلامها :

ـــ انا اعرف انك ابنة مطيعة حلوة يافريدة وانتِ تعلمين ان والدك الذي كرس حياته لاجلك لا يريد لك الا الخير

فاجابت الفتاة وقد اسرعت نبضات قلبها :

لا فضل لي في طاعتك ياابي لانني تعلمتها قبل الالف والباء

فربّت على ظهرها بيده ثم قال لها بلهجة السائل :

ـــ وهل تكملين جميلك وتطيعينني للآخر ؟

فقالت بتلك اللهجة الطاهرة ـــ انا اللحم وانت السكين ياوالدي ولا ارادة لي بوجودك فما الذي تريده مني ؟

اذ ذاك استوى في مكانه استواء الفائز الظافر واخذ بيده ورقة من ورق الخرنوب ينظر فيها وقال لابنته :

ـــ عافاك الله ياعزيزتي انك ابنة متهذبة · وما اريده منك الان هو انه خطبك اليّ رجل فاضل غني عاقل ووعدته بك لعلمي انك تعيشين عنده شبه ملكة · فقطبت الفتاة حاجبيها وكمن سمع كلاماً ولم يفهمه جيداً قالت متأثرة متفهمة :

ـــ كيف خطبني اليك الرجل ياابي ؟ ولماذا طلبني منك ؟

فابتسم والدها من بساطتها بدون ادنى وخز ضمير وقال :

ـــ خطبك ليتزوجك

فقالت بغم ـــ وما هو معنى الزواج ياابي ؟

فعض والدها على شفتيه وقال لها موبخاً :

ــ الا تخجلين من هذا السوءال يافريدة وانت متهذبة طاهرة ؟ ان سر الزواج سر مقدس لا تفهمينه الان وسوف تعلمك اياه الايام وكل ما يلزمك الان ان تتكلي عليَّ وتطيعيني وانا افعل كل ما هو صالح لك ·

فاطرقت فريدة المسكينة خجلاً من كلام والدهـا ومع اعتقادها انها اجترحت بسوءالها ذنباً لم تتمالك ان سألت قائلة:

ــ اذا كان لا حق لي بمعرفة شيء عن سر الزواج كما قلت الا يحق لي معرفة الشخص ذاته ؟

فقال والدها بلهجة الامر سيزورك هذه الليلة فيجب ان تكوني مطيعة ومحتشمة حتى يرضى بك ــ اسمعي واطيعي يافريدة وهذا كل ما يطلب منك

هنا وضع الوالد في فم ابنته لجام الطاعة فاطرقت بهمّ وخوف ولم تجب على جملة والدها الاخيرة كأنها حسبتها فصل الخطاب في امر يطلب منه لا منها ... وماذا يهم ان تطيع والدها بهذا الامر كما كانت تطيعه بكل امرٍ آخر فهل هو يفرق عن بقية الامور بشيء عندها ؟ كلا انه كان عند فريدة امراً بسيطاً جداً لانها تجهله لذلك قالت في نفسها رغماً عن خوفها وغمها: لا بأس ان والدي يعرف ما يوافقني اكثر مني وطاعته واجب اول عليَّ · ولكن فكراً واحداً وقف في تلك

الدقيقة امام نظرها فانساها كل ما تقدم من الافكار وحالاً سألت والدها وكأنها نسيت نفسها بالكلية

— وهل اذا تزوجت لا اعود العب مع فر ...

وصل اسم ,, فريد '' لحلقومها ولكن يداً قوية تناولته من هناك وارجعته الى قلبها فسكتت ولم يكن والدها غبياً ففهم وقال لها مخادعاً :

— ان فريد ,, لا يهرب من الدرب '' فلا تخافي

فما اقبحك ياخداع وما اشد سوادك يامكر ! — ان الوالد قصد القاء حب الخداع في شرك الغاية ولمن ؟ لتلك العصفورة الجميلة ابنته حتى اذا وقعت في الشرك يلتقطها فيسجنها او يذبحها

ورغماً عن خشونة حنا وعدم تهذيبه شعر بذنبه لان ضميره كان لم تزل له بعض قوة الحياة لانه حين لفظ الجملة الاخيرة اضطرب وارتجف — ولكن المذنب اثنان احدهما يقوم على اتيان الذنوب بقوة دافعة فمتى نهاه ضميره عنها يرجع بذات القوة من اول الطريق او منتصفها والآخر يظل متابعاً سيره في طريق الشر مغمضاً عينيه عن مرأى الحقيقة وصاماً اذنيه عن سماع الحق والعياذ بالله من غلبة الباطل للحق

وفيما الرجل يحارب افكاره سمع صوت اخته تناديه فأخذ يد ابنته المثلجة ونهض من مكانه ومشى وإياها الى البيت وفيما

هما في الطريق قال لها بلطف :

ــ حافظي على سلوكك امام خطيبك يا فريدة واعلمي ان هذا الرجل انزل اليك من السماء (بقفة) وانه لولا سعدك لما كنت حصلت عليه

اما فريدة فقد كانت غير مكترثة حتى لوجودها بتلك الدقيقة لان افكارها كانت متحولة نحو فريد وهي تشعر انه مسرور وتغار عليه حتى من سروره

وهذا طبيعي في كثير من المحبين فمتى كانوا بعيدين عن الذين يحبونهم وطرأ عليهم همٌ يتصورونهم اما شاعرين معهم واما غير شاعرين فالامر الاول يسليهم والثاني يحرق قلوبهم لان ضحك الناس كلهم على مصيبتك لا يوازي ابتسامة شماتة واحدة من احبائك ودمعة واحدة منهم مقابل انهر من الدموع من غيرهم ٠

الفصل السادس

الخطبة

معلوم ان ظاعة فريدة واذعانها للظلم صاغرة وخوفها من الخطيئة اذا هي خالفت الوصية ترجع اسبابها لنوع تربيتها فان الفتاة تربت عند الراهبات ومع ان هذه المؤلفة هي ربيبة

الراهبات اللواتي تقرّ بفضلهن على العالم بامور كثيرة وتعزو كل سامٍ من الفضائل في نفسها الى ارشادهن وتعليمهن فهي لا تمنع قلمها الجريء عن انتقادهن بامر واحد في تربية البنات وتعليمهن .

انهن يربين البنات تربية دينية محضة فيخرجن من بين ايديهن ,, راهبات صغيرات '' يعلمنهن الطاعة العمياء لوالديهن وروسائهن وان مخالفتهم لا تسوغ الا اذا طلبوا منهن اتيان ما يمس الدين فقط ومن هذا الامر يتأتي ظلم اهل البنت لها اذ تصبح مع تكبلها بقيود الطاعة المطلقة شبه دمية لا حراك لها امام ارادة والديها الظالمة وشبه تمثال من شمع تطبع عليه اميالهم الجائرة طبعاً فتحتمل ظلمها بصبر لظنها انه فضيلة وتطيعهما ولو على ايرادها حتفها لاعتقادها ان مخالفتهما خطيئة مميتة

ومن هذا نرى اكثر البنات اللواتي يخرجن من مدارس الراهبات يصلحن لدخول الاديرة اكثر مما لدخول العالم لانهن يكن ممتلئات عواطف دينية وادبية وهذا من اهم ما تحتاجه المرأة ولكن هل تعيش المرأة في دير ضمن هذا العالم ? كلا ! اذن يجب ان تكون تربيتها تامة . اي ان تكون ,,دينية وادبية ودنيوية ''

ومعنى ذلك ان تدرس البنت في المدرسة فن الاختبار — ان تدرس علم طبائع البشر — ان تعرف كل شيء عن معيشتها

المقبلة في العالم وان تعرف عن كل شيء له تعلق بمعيشتها الاجتماعية لان امرأة اليوم هي غير امرأة الامس واحتياجنا هو الى قلوب تشعر وعقول تدرك وأيدٍ تعمل وادمغة تبتكر وليس الى تماثيل تصمد في بيوتنا

فالمرأة التي تعيش شبه حمل وديع لا تعرف غير الصلاة ولا ثقة لها بنفسها او استقلال او معرفة متى دخلت بين ذئاب المجتمع الانساني وهي عزلاء لاسلاح لها يفضي بها الامر الى اتيان عملين: اما انها تبقى على سذاجتها وضعفهـا فيكشر الذئاب عن انيابهم وينهشونها واما انها تستعير نوع سلاحهم وتدافع عن نفسها به وفي كلا الامرين هلاك للفتاة التي تخرج من المدرسة وهي كأنها نازلة من بين طبقات الملائكة لا تعرف عن العالم الذي تدخله شيئاً بل تظن نفسها قوة سلبية ازاء قوته الايجابية عليه العمل وعليها السكون له القوة ولها الضعف

انا اعرف انه على المدارس وحدها تتوقف سعادة فتياتنا في مستقبل حياتهن فالى معلمات ومعلمي هذه المدارس اوجه كلامي واتوسل ان يعيروه آذاناً صاغية اذ قد آن لنا ان يخرج من مدارسنا ,, نساء ‘‘ لا دمى واتكالنا على المدارس وحدها بهذا الامر لعجز البيوت عجزاً كلياً عنه اذ انه لا يوجد اكثر من خمسة في المائة من بيوتنا تستحق ان تجعل اساساً للتربية - فاذا كانت مدارسنا تربي الولد على ,, جهة واحدة ‘‘

والبيت لا يقدر ان يتممها فمن اين نؤمل الحصول على شعب مستقل راقٍ ؟

ومن لا يوافق على هذا الكلام وهو يرى بعين فكره فريدة راجعة للبيت وراء والدها وهي كالزنبقة الذابلة ولما دخلت البيت وجدت فيه رجلاً كهلاً وكاهناً كانت تعرفه وهو مرشدها فمشت توًّا الى الكاهن وقبلت يده بكل خشوع فرفع هو تلك اليد وباركها بها ثم مشت راجعة لتجلس على كرسي بجانب الباب بدون ان تعير الرجل التفاتاً

لحظ والدها عملها هذا وعرف انه مقصود من ابنته الذكية فاراد استدراكه وللحال ارجعها من نصف الطريق وقدمها لذلك الرجل قائلاً :

— هذه ابنتي الوحيدة فريدة ياحبيب وقد رضيت ان تقبل بخطبتك اياها هذه الليلة

فاطرقت تلك الفتاة التاعسة عندما سمعت كلام والدها ولم تحر جواباً وكان اطراقها خيرًا لها لانها لو نظرت الوجه الذي كان امامها وفيه تانك العينان وهما تتفرسان فيها بشَرَه وحشي لخافت فوق خوفها

وكانت الان يدها بيده وهو لا يشاء تركها وهو واقف بجانبها كأنه ذكر بوم هرم بجانب حسونة جميلة لان حبيب كان في نحو الخمسين من عمره ولكن شعر رأسه وشاربيه مشبع

السواد بفضل الصبغة وهو حادّ النظر كثيف شعر الحاجبين ولونه الى السواد اقرب منه الى السمرة كبير الجسم والفم والانف والاذنين ضيق الجبهة جداً وكأن ثوبه الافرنجي الانيق وخاتمه الالماسي الثمين؛ جوهرة في مذبلة عليه

كان جسم فريدة يرتجف ارتجافاً اذ كانت يدها بيده وهي تشبه زنبقة نضرة ضربتها الريح فالصقتها بالصخر حيث جاءت حرارة الشمس واذبلتها — او انها طير جميل الريش وقع فريسة بين انياب ,, كلب الصيد ''

موقف يفتت الاكباد — موقف يحرك الجماد كان موقف هذه الطفلة بازاء ذلك الرجل المسن

فهل شعر به كل من اولئك الرجال الثلاثة ؟

وذلك الكاهن الذي قال له سيده ,, ارعَ نعاجي '' هل عرف ان يده التي سوف ,, تبارك '' اتحادهما الابدي هي ملعونة من الله ؟ هل شعر انه بعمله لا يعدّ راعياً صالحاً بل ذئباً ضارياً بين ,, النعاج ''

فهو لو اتوه بذئب ونعجة هل يضعهما معاً ؟

وذلك الاب الذي ادعى انه يحب ابنته اكثر من نفسه هل اذا كان عنده هرة لها اولاد واتى ابوها الهر ليأكلها الا يقتله ؟

وذلك الخطيب هل يحب مرافقة طفل في طريق صعبة

المسلك ولا يشفق على نفسه من الملل وعلى الطفل من وعورة الطريق ؟

ان الكاهن لا يسمح بان تبيت النعجة مع الذئب ولكنه ,, باسم الله ‘‘ يسلم الذئب البشري هذه النعجة الجميلة الرخصة ـ وحاشا عدل الله قبول ما يجري باسمه من الشرور

والوالد يشفق على اولاد الهررة التي في بيته ولا يشفق على فلذة كبده فيضعها بين براثن الشقاء وانياب التعس

وذلك ,, العريس ‘‘(انعم واكرم !) لا يرافق طفلاً في طريق قصيرة ولكنه بلهفة وشهوة حيوانية يطلب مرافقة طفلة في طريق الحياة الزوجية الطويلة و يضطر اقدامها اللطيفة الى مسايرة اقدامه الخشنة في جبالها واوديتها فسبحانك ربي في بعض خلائقك الذين يشفقون على الحيوان اكثر من الانسان ويجرون باسمك ما يبرأ منه عدلك وتنكره رحمتك و يطرده حبك

سبحانك ربي يا خالق الانسان الذي يدعي انه على ,, صورتك ومثالك ‘‘ والبعض منه ذئاب مفترسة تمزق النعاج التي في القطيع تمزيقاً وهي تدعي انها ارقى مخلوقاتك واكملها واجملها

بكل بساطة وذبول جلست تلك الفتاة الطاهرة بجانب الرجل الذي اختاره لها والدها زوجاً وكانت تنظر في يديها اللتين فوق ركبتيها وافكارها تحوم حول الشخص الوحيد الذي خلق بصرها لكي يقع عليه في الحياة ـ حول فريد ـ وكان

حبيب ينظر اليها بجوع جسدي لان الحيوان لا يفتكر بغير الجسد لضعف عواطف الروح فيه وهو لشدة فرحه يملأ بعصير بنت العنقود وخمر جمالها وحظه بالحصول عليه ولسان حاله ينشد وهو لا يكاد يفرغ في جوفه كأساً من العرق حتى يملاء سواها ,, اللي بيسكر ما يعد قداح '' وكلما شرب كأساً يجعل الابتسامة لفريدة (مازا) لها فهنيئاً لها لانها كانت لا تنظر الابتسامته التي تشبه ابتسامة الهر للفارة وابن آوى للدجاجة والذئب للنعجة

وبعد ان اكتمل عقد المدعوين وكانوا نفراً من الاصدقاء والاقارب نظر الخوري متى في ساعته وقال :

ـــ هوذا الساعة الثالثة (عربية) فلنبتدىء بعقد الخطبة

ولم يكد يفتح كتابه حتى نهضت مريم عمة فريدة ومربيتها وجلست بجانبها وطوقت خصرها بذراعيها قائلة بتحبب :

ـــ ارفعي نظرك من الارض يابنيتي وجاوبي (ابينا) متى على سوءالاته التي يوجهها اليك فرفعت الفتاة نظرها الى الكاهن الذي كان يقرأ صلاة الخطبة وهي حائرة مبهوتة تظن نفسها في حلم مدهش لانها تنظر وتسمع ولا تدرك لهذا الامر معنى ليس لعدم ذكائها بل لان ما يجري امامها من الامور تجهله تمام الجهل

ولما جاء دور سوءال العريس ما اذا كان يقبل بها زوجة

له رفع رأسه بفخر واجاب بصوت مسموع ,, نعم '' فرنت هذه الكلمة في اذن فريدة رنة ثقيلة اطرق لها رأساً في الارض فلما وصل السوءال اليها لم تجب عليه

فقال والدها مبتسماً : ان فريدة تخجل ان تجيب على هذا السوءال

وقال خطيبها ضاحكاً ضحكة وحشية - بل ان السكوت ردّ جواب

فرضي الكاهن بجوابيهما من جوابها وبعد ان اكمل قراءة الخطبة شرب اخر قدح ,, نخب العروسين '' وذهب داعياً لهما بالسعادة الدائمة والفرح الملازم (كثر خيره)

وهكذا بدون ان تنبس ببنت شفة وبدون ان تفهم القصد من خطبتها تمت هذه الخطبة الكنسية بين حبيب وفريدة واصبحا بعرف الكاهن والبشر ,, نصف زوجين '' ولكن ليس كذلك بعرف الله وشرارة روحه — الحب

و بعد ساعة انفرط عقد المدعوين وتظاهر من في البيت بالاشتغال ليتركوا الخطيبين بانفراد فلما وجد حبيب نفسه منفرداً مع خطيبته او بالحري فريسته ولكثرة فرحه لم يصدق ان هذه الفرصة حقيقية وضع يده الثقيلة على كتف فريدة ينبهها لانها كانت لا تزال مطرقة وهي في غيبوبة روحية لا يعرف معناها الا من يكون من ضحاياها · فشعرت كأن جبلاً القي على

كتفها وعرتها قشعريرة فرفعت نظرها من الارض وادارته في البيت فلم تجد داخله احداً فحولته نحو حبيب فوجدته جالسا بجانبها وامامه طاولة صغيره عليها كيس من المال وعلبة مخملية جميلة مفتوحة يضيء من داخلها خاتم من الالماس الثمين والمال والخاتم هما عربون الخطبة

حمي وطيس غضب فريدة وخافت بوقت واحد فتحفزت للنهوض والخروج من ذلك البيت فامسكها حبيب بذراعهـا يمنعها عن الخروج قائلاً :

ـــ ما معنى هربك مني ياعزيزتي ؟

فرنت اليه بطرف الغزال النافر وخاطبته بصوت لطيف قائلة :

ـــ ارجوك ترك ذراعي ـــ لقد ألمتني

فضحك قائلاً ـــ ان ذراعك لي وليست لك

وكان الرجل يكلم فريدة ورائحة المسكر تنبعث مع انفاسه اليها واذ لم تدرِ ما تعمل جلست على كرسيها ثانية واطرقت مفكرة تسمع كلامه الحبي الذي كان كأنه قطع كبيرة من اجبال حملايا تقع على قلبها وعواطفها

كرهت الكلام واضطرت باعتقادها الى سماعه كما يكره المريض الدواء ويضطره الطبيب الى تناوله ـــ وذلك لانها ابنة مطيعة

الفصل السابع

امتداد يد الحب الى عواطف فريدة

ما كنت ادري قبله معنى الهوى
حتى فهمت سطوره في قبلةِ

ولم تصدق فريدة أن حلها خطيبها من عقال محادثته فلما خرج من الباب الشمالي مشياً خرجت هي من الباب الغربي ركضاً ولم تكد تنتهي الى الفضاء حتى وقفت تحت النجوم المنيرة واصعدت من صدرها زفرة حارة وكانت الساعة نحو نصف الليل

ولبثت في مكانها تفرغ رئتيها من الهواء الفاسد الذي دخل اليهما من البيت وتعتاض عنه بهواء نقي من الفضاء ولما انتعشت نفسها قليلاً مشت نحو الباب الشمالي وهناك وجدت نفسها بدون قصد منها بين ذراعي والدها الذي ضمها وقبلها بحرارة هي نتيجة سروره من طاعتها له او بالحري ثمن حياتها السعيدة وكان وهو يهنئها بنصيبها الحسن مسروراً تجاوبه بالبكاء والشهيق فرفع رأسها عن كتفه وادار وجهها اليه وخاطبها قائلاً :

— ماذا يبكيك ياحبيبة والدك ؟

فاجابت وهي تشهق — انني اكاد اموت حزنًا ياابي ولا اعرف لذلك سببًا فقبلها ثانيه وقال لها ,, مبرطلاً ''

— لابأس ياحبيبتي . هذا ما يصيب كل البنات في مثل هذه المواقف . ولكن دموعك التي تُهمر اليوم سوف تصبح ابتسامات غدًا

لم يكن هذا الكلام عذبًا على قلب الفتاة لانها لم تشعر بصحته لذلك تابعت البكاء ساكتة لظنها ان والدها يفهم لغة دموعها الطاهرة —

بكت فريدة بكاء مرًا ونضبت دموعها بعد ذلك . واذ ساعدت الدموع على افراج قلبها قليلاً نظرت بعينين محمرتين الى جهة بيت جرجس فوجدت النور خارجًا من النوافذ فعلمت انهم رجعوا من مدينة جبيل وعجبت كيف ان فريدًا لم يزرها ثم نظرت الى والدها بانكسار وقالت له بدلال وهي تومئ باصبعها نحو البيت :

— انهم رجعوا . فهل تسمح لي بالذهاب الى هناك ؟

فرق الوالد لها ولسروره منها اذ ذاك قال :

— اذهبي وارجعي حالاً

ركضت فريدة الى فريد بقدمين مسرعتين وقلب نبضاته اكثر اسراعًا وهي شاعرة كأن على قلبها عبئًا ثقيلاً سوف يشاطرها حمله فلما وصلت ورأته لم تجده كما كانت تصورته

فرحاً مسروراً بل رأت آثار الكمد على وجهه كما رأى هو آثار الدموع في عينيها

وكان فريد في ساعة وصولها جالساً في غرفته الى النافذة التي تطل على بيت حنا كأنه يراقب ظهور البدر من وراء الغيوم — ووالدته جالسة على كرسي وراءه تراقبه فلما نظرته فريدة على تلك الحالة نسيت همومها وذكرت اويقات لعبها فأومأت الى وديعة بالسلام ووضعت اصبعها فوق شفتيها لتمنعها عن الكلام ثم مشت على رؤوس اصابعها الى ان صارت وراء فريد فوضعت كلتا يديها فوق عينيه (وطمشته) كما يفعل الاولاد وكانت هذه اللمسة كافية فارتعش الفتى كمن مسه سلك كهربائي وانزل تينك اليدين الى شفتيه واخذ يقبلهما بحرارة لاول مرة في حياته

فاعار عمله هذا وجنتي فريدة لون الورد وعينيها وميض البرق فوقفت ترتجف وقد دبت فيها حرارة الحياة من اخمص قدميها الى اعلى رأسها وكانت وديعة تنظر اليهما بقلب ينبض فرحاً فنهضت من مكانها مسرعة وضمت فريدة الى صدرها تقبلها مما جعل الفتاة تبكي خجلاً لانتباهها ان شخصاً ثالثاً معهما في الغرفة وقد حدث ما حدث امامه

وبعد ان هدأ روعها اخذت فريداً بيده قائلة :

— تعالَ نذهب تحت السنديانة

وكانت هذه السنديانة دوحة كبيرة فيما بين البيتين وهي التي رأى البرت بك والشيخ يوسف فريدة وفريداً يترجّحان تحتها في طريقهما الى عمشيت

وصلا الى تلك الشجرة يداً بيد وجلسا على مقعد خشبي كان قد سمره جرجس الى جذعها وكان القمر بدراً في تلك الليلة وهو ينظر اليهما من خلال اغصان تلك الشجرة فتارة يظهر وتارة يختفي عن انظارهما كأنه رقيب او عذول

ولم يطل مكث الصغيرين حتى نظرت فريدة الى وجه فريد وقالت له بين الخوف والخجل:

— عندي خبر اقوله لك

فحملق الفتى فيها وقال وهو يبتسم

— ما هو ياحبيبتي؟

اجابت ببساطة — لقد خطبني رجل الى والدي بغيابك

فاحس فريد كأن تلك الكلمة صاعقة انقضت على رأسه من علو السنديانة لانه كان يعرف ما تجهله هي من هذا الامر ثم ارتجف وتلعثم لسانه اذ اجابها:

— ماذا تقولين؟ خطبت! ياربي دخلك! والى من؟

فخافت الفتاة من لهجته واجابت بتلعثم:

ــ ماذا يزعجك يافريد ؟ ولماذا انت تتكلم هكذا ؟
لان حبيب نعمه خطبني غضبت ؟

فانتصب الغلام عندما سمع كلامها واسم الرجل وصرخ بصوت جهوري قائلاً :

ــ لماذا غضبت ؟ كأن امر خطبتك امر بسيط عندي كما هو عندك ياقاسية ؟ كيف لا اغضب وانت تطعنين قلبي بحربة سامة الان فهل انت يافريدة تريدين التزوج بذلك الرجل المسن لانه غني ؟

فمدت فريدة يدها اليمنى اليه وتناولت بها يده وجذبتها نحو المقعد بلطف راجية اياه ان يجلس قائلة بصوت يتلجلج خوفاً

ــ فريد ! فريد ! . اجلس واخفض صوتك لئلا يسمعك والدي

وكأن لمسها ماء بارد صب فوق نار غضبه فاطفأه حالا وبدون ممانعة جلس بجانبها كالطفل فقالت له بوجل:

ــ لماذا اضطربت بهذا المقدار ياحبيبي هل في الامر جريمة ؟

فقال لها بحنق :

ــ ألم تعرفي انت ذلك حين رضيت بالامر ؟

اجابت بوجل ــ انني لم اعرف شيئاً وقد رضيت رغما

عني اطاعة لابي الذي يعرف بهذا الامر اكثر مني

فصرّ الفتى على اسنانه غضباً وزمجر كالأسد قائلاً :

— وهل اطعت والدك بتسليمك نفسك الى الموت يامجنونة ؟

فنزلت دموعها وقالت له بحزن وتذلل

— وهل الزواج يعني الموت يافريد ؟

اجاب بغضب

— بل يعني اكثر من الموت — يعني العبودية والرق وقلة الشرف متى كان على هذه الصورة ؟ فوضعت فريدة يديها فوق عينيها واسترسلت في البكاء وكان فريد ينظر اليها وكأن قلبه يتقطع من بكائها ومع ذلك لم يحاول تهدئتها لان افكاره كانت بدرجة الغليان اما هي فقالت من خلال دموعها :

— آه يافريد انك اخفتني — انك ارعبتني لان والدي لم يصور لي الزواج بالصورة التي صورتها لي انت

فضحك الغلام متمرمرًا وقال :

— لا غرو من ذلك وهو يريد خدعك . يريد ايقاعك في شرك المكرحباً بمصلحته . يريد بيعك بيع الرقيق اشباعاً لمطامعه فلماذا لا تصرخين مستغيثة وترفضين طلبه ؟

فازدادت الفتاة شهيقاً وقالت له :

— وهل يجدي بكائي نفعاً امام رجل كوالدي . انه متى اراد امرًا فعله ولا يقدم او يؤخر احد به وقد تمت الخطبة

الان فماذا اقدر ان افعل ؟

فمسك الغلام كلتا يديها بيده وضغط عليهما حتى كاد يدميهما وقال بنزق وحدّة:

— تقدرين على فسخها — بل انا اقدر على ذلك · فاه يافريدة القاسية كيف رضيت بها ؟

فقالت بحزن الم اقل لك انني اطعت والدي بالامر بدون معرفة — وهل اقدر على مخالفته وهو والدي · ألم نتعلم طاعة الوالدين في المدرسة ؟ فدعني اموت مطيعة · فاذاب هذا الكلام قلبه واوقف نبضاته فخرجت عواطفه من عينيه مع دموعه اذ قال لها بألم :

— انك لا تموتين وحدك يافريدة ولكن لماذا نموت ظلماً اذا كنا قادرين ان نحيا حياة سعيدة طويلة ؟

كانت هذه الجملة شبه برق لمع امام عيني الفتاة فاراها زرقة السماء الجميلة بغتة ثم اختفى فرجعت الى الظلام وللحال القت رأسها فوق كتفه كزنبقة كسرت ساقها فارتمت على الارض

القى فريد رأسه فوق رأسها ولبثا ساكتين مقدار عشر دقائق يتخاطبان بلغة الدموع التي كانت تسكب من عيونهما بغير قصد منهما وكان الشاب الذي استفاق من هذه الغيبوبة اولا فهمس في اذن الفتاة قائلاً

— فريدة — فريدة — لقد حان لي قول كلمة كنت

اخفيها عنك لعلمي ان وقتها لم يأت بعد — ولكن والدك اراد ان يضطر برعم الجمال على التفتح قبل اوانه فانا اقطر فوقك ندى قلبي الان — اقول لك انني اعبـدك . انني احبك وانني اموت لاجلك كما مات بطل الرواية التي كنا نقرأها في الاسبوع الماضي لاجل حبيبته — انت اجمل من جرترود التي قرأنا عنها معاً وانا احبك اكثر مما احبها ادينوس فلماذا لا يكون احدنا للآخر كما كانا هما ؟ انك اذا تركتني اموت يافريدة لان لا حياة لي بدونك

فرفعت الفتاة اليه نظرها الذابل وكأن ,, ندى حبه " انعش قلبها وقالت له بابتسامة لطيفة وهي تظن انها تجبر خاطره :

— انا وحياتك لا اتركك يافريد ياحبيبي — حتى ولو اطعت والدي وتزوجت ابقى لك وحدك الى الابد

كان الفتى اكبر سناً واكثر اختباراً وهو شعلة من ذكاء فلما سمع كلامها اختلج قلبه داخل صدره كالطائر المذبوح ليس لانه اساء الظن بطهارتها الذي دل عليه كلامها بل لانه عرف جلياً انها تجهل الامر الذي هي مقدمة عليه اتماماً لرغائب والدها تمام الجهل فصرخ بها قائلاً :

— فريدة ما هذا الكلام ! أانت بهذا المقدار بسيطة مع ذكائك ؟ انك اطهر بافكارك من الملائكة — أفلا تعلمين ياحبيبتي انك متى تزوجت تصبحين لزوجك وحده ولا يعود لي عليك

حق حتى ولا بمخاطبتك اذا لم يرد هو ذلك — اذ ذاك تعد مخالفتك بعرف البشر خطيئة وليس الان فان مخالفة والدك جائزة بمثل هذه الاحوال اما مخالفة زوجك فليست جائزة اما انا فافضل ان نموت معاً في هذه الساعة من ان تكوني في حوزته - انك نعجة يافريدة ووالدك يقدمك للذبح

ففكرت الفتاة بكلامه قليلاً ورغماً عن تصديقها اياه ظنت ان المدافعة عن والدها واجبة فقالت لفريد:

— لاتسئ الظن بابي فهو لا يريد لي الا الخير

فضحك الفتي ضحكة الحزن العميق وقال:

— قد يكون هو يظن ذلك ولكن ليس والدك الذي سوف يتزوجه بل انت فقولي لي انت بحق حبي لك هل تريدين ان تكوني مع حبيب نعمه طول حياتك تحت سقف واحد ؟ - هل - هل - هل تسمحين له بقبلة شفتيك ؟

فارتجفت فريدة واجابت غاضبة متأثرة:

— انا لا اسمح لرجل بالعالم ان يقبلني - - غ - وغلب عليها الحياء فغطت وجهها بيدها

اذ ذاك فرغ صبر فريد وهاجت عواطف قلبه فرفع رأس فريدة بين يديه وادناه من وجهه حتى اصبحت عيناها المطرقتان على قيد اصبع من عينيه المتوقدتين بنار الحب وبعد تأمل دقيقة في جمالها الباهر طبع على شفتيها قبلة كانت الاولى التي شعرت

بحرارتها من فمه و بعد نحو دقيقة رفع شفتيه الملتهبتين عن شفتيها الورديتين وقال لها بلسان يتلجلج ووجهها لا يزال بين يديه :

ـ انظري الي يافريدة ـ افتحي عينيك لارى نورهما ـ وقولي لي الان وفي هذه الساعة هل تحبينني ؟

فابتسمت الفتاة وهزت رأسها ساكتة فكان سكوتها يعني ,, أو لا يعد هذا السوأل بليداً ''

اما هو فابتسم ايضاً وسأل مضطرباً ,, وهل ترضين بالزواج من حبيب بعد الان '' فصرخت بجزع وقالت :

ـ كلا . كلا ! اذا كان الزواج يعني ما قلت فانا ارفضه رفضا ـ

فتنهد الفتى وشعر كأن عبئاً ثقيلاً انزل عن قلبه ثم ضمها بلهفة الى صدره وهو يشعر كأن القمر قد اظلم نوره حينما تألق نجم سعده والارض ابطلت دورانها حالما سمعت باقرار فريدة انها تحبه ولما تخلصت فريدة من بين ذراعيه قال مسروراً :

ـ ان الزواج يعني اكثر بكثير مما تكلمت ياحياتي . انه جهنم بدون الحب وسماء به . فاياك ان تسلمي نفسك على هذه الصورة يافريدة وتوقعي بيدك اللطيفة صك مبيعها للعذاب والتعس

فقالت الفتاة مفكرة :

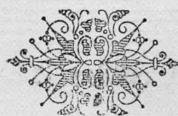
ـ ولكن ماذا يجب ان افعل ؟

فاجابها ارفضي مخاطبة حبيب رفضاً تاماً وغدا يذهب والداي وانا ونخطبك الى والدك رسمياً

فنظرت اليه نظرة المنة والشكر ثم نهضت فنهض هو وفتح لها ذراعيه فرمت نفسها بينهما مختارة وبشوق فطوقها بهما ورفعا انظارهما معاً نحو السماء فاذا بالقمر فوقهما ينظر اليهما مسروراً فقال فريد بفرح

ـ اشهد هذا القمر عليّ بان هذين الساعدين لا يضمان من النساء الاك ـ ياسعادتي الوحيدة ·

فاجابته فريدة بكلمة خرجت من فمها وخرقت قلبه هي „ حبيبي " سمعها فريد ولم يتكلم بعدها لئلا يزيل حلاوة تأثيرها من قلبه ثم اخذ يد فريدة بيده ومشيا في هدوء ذلك الليل نحو بيتها فوقف خارجاً ودخلت هي الباب ثم قفل راجعا وكلمتها الاخيرة ترن في اذنيه



الفصل الثامن

﴿ التوسل ﴾

ليس فيه علة تُشكى لآسٍ
انما الحبّ هو الداء العياء

رجع فريد الى البيت فوجد والديه يرقبان عودته واذ رآهما قال لهما بحسرة :

ـ هل دريتما بما حدث في غيابنا ؟

فقالت والدته كلا فماذا حدث ·

اجاب وقلبه يتقد كأتون من نار

ـ ان حنا يا ابي عقد خطبة فريدة على حبيب نعمه والفتاة المسكينة لا تدرك معنى الخطبة ولا سرّ الزواج وقد ارغمت على الرضى من والدها · ولم يكد يتم فريد كلامه حتى وقع على عنق والدته يقبلها و يقول :

ـ يامي ! دبري انت ووالدي الامر بمعرفتكما واشتري فريدة واشتريني من الهلاك والموت ـ اذا تزوجت فريدة سواي اقتل نفسي

فنظرت وديعة الى زوجها وقالت له وهي تبكي ايضاً :

ـ اسمعت ياجرجس . فكيف نفعل ؟

ففكر جرجس في الامر قليلاً ثم قال بهدوء :

ـ لهذه الغـــاية لم يسمح حنا لابنته بالذهـــاب معنا هذا الصباح ـ انني لحظت قبلاً ان حبيباً صريع هوى فريدة وان بولس يسعى له بالامر مع والدها ولكنني لم افتكر قط بان حنا يبيع فريدة بالمال وهي وحيدته وثمرة حياته .

فقال فريد بلهفة ولم يسرّه الحديث :

ـــ والان كيف نعمل يا ابي . انني لا اقدر على النوم هذه الليلة

اجاب والده بلطف: نم مستريحًا ياعزيزي فاذا لم يرضَ حنا باعطائك فريدة مختارًا يرضى بالامر مضطرًا ـــ اذهب لفراشك الان وغدًا يتم كل شيء على خاطرك .

قبل فريد والديه وقبلاه وذهب الى فراشه ولكن هل نام تلك الليلة ؟

انه بقي طول ليله في نافذة غرفته التي تطل على بيت فريدة يسامر البدر وكأنه ينظر وجه حبيبته فيه

وقبل ان يبزغ الفجر طرق باب غرفة والديه فوجد والدته قضت ليلتها كليلته لان خسارة فريدة عندها كانت بالدرجة التي هي عند فريد لانها كانت تعشقها مع ابنها

وبعد ان تناولوا قهوة الصباح ذهبوا جميعهم الى بيت

جارهم فوجدوه مع شقيقته وزوجها واولادها على ,, المصطبة ‘‘ امام الباب وفريدة لم تزل مستغرقة في نومها لان كلام فريد في الليلة الماضية كان قد اراح بالها

ترحّب حنا بجيرانه كثيرًا وعرف للحال ان مجيئهم لغاية وكان في قلبه يحرق الارّم غيظًا من فريدة التي اخبرتهم بالامر وبعد مبادلة الاحاديث وصلوا الى حديث خطبة فريدة فقالت وديعة مداعبة

— اهذه محبتك لنا ياجار • تنتهز فرصة غيابنا لتعقد خطبة فريدة فهل خفت ان ,, نمسح سفرتك ‘‘

فعبس حنا لمعرفته ان كلامها ,, ألغاز ‘‘ واجاب :

— ومن اخبرك بامر الخطبة أليست فريدة ذاتها ؟

اجابت لا بل علمنا من الجيران ولما سألنا فريدة اخبرتنا الحقيقة • وهل الامر تمَّ فوق الارض ام تحتها ؟

فقال حنا بهدوء : نعم قد تمت خطبة فريدة على حبيب نهار البارح

فقال جرجس بشيء من التهكم — وهل رضيت فريدة بها ؟

جاءت هذه الجملة كسهم خرق قلب حنا ولكنه كظم غيظه وقال بجدة :

— وهل من الضرورة ان ترضى فريدة ؟ ان فريدة

طفلة لا تعرف بهذه الامور وانا دبرت الامر لعلمي بموافقته لها وعرضته عليها فلم تمانع

اذ ذاك سكتت وديعة وفسحت لجرجس مجال الاعتراض فقال

— وهل تظن ان حبيباً ,, عريس '' فريدة ياجار ؟

فعبس حنا وقال — بهذه الايام لا يسألون عن ,, الاهلية '' بل عن المناسبة وانا ارى ان زواج ابنتي بحبيب سعادة لها

اجاب جرجس : انت مخطئ اذا كنت تظن ان فريدة تستريح مع حبيب لانه غير اهل لها ولا هي تحبه

اذ ذاك اظهر حنا بعض الضجر بقوله

— وهل انت اعرف ياجرجس بامر ابنتي مني ؟ انا اعرف ان فريدة اذا لم يهنأ عيشها مع حبيب يكون الذنب ذنبها لان الرجل غني وماذا تطلب المرأة اكثر من هذا ؟

فتنهد جرجس وقال: اعلم ياجار ان مال العالم كله لا يجعل المرأة سعيدة بزواجها اذا لم يكن قلبها ينبض بحب زوجها وفريدة جوهرة لا تشرى بالمال فحرام عليك ان تبيعها بيعاً

وعند هذا الحد لم تعد وديعة قادرة على السكوت فاضافت على كلام زوجها قولها

— ان فريدة لا تحب حبيباً ياجار لانه اكبر منك سناً . وهي عروس فريد وقد قلنا انهما لبعضهما منذ الصغر فماذا

الذي غيرك عن هذا القصد الان وانت تعرف ان فريدة حياة فريد واعز من بنت لي

فقطب الرجل حاجبيه عندما سمع كلامها واجابها متكلفاً :

ـــ لي الشرف بمصاهرتكم ياست وديعة ولكن الواجب يقضي عليَّ بالنظر الى راحة بنتي الوحيدة ·

وعند سماع كلامه نهض فريد من مكانه وهو يسكب دموعاً سخينة ووقع على يده يريد تقبيلها وهو يقول له بحسرة :

ـــ بالله عليك ياعماه لا تحرمني فريدة ـــ لا تقتل الاثنين معا

فبكى لبكاء الفتى كل من والديه وقالت والدته لحنا بتوسل :

ـــ بحق مريم العذراء ارحم قلبي ياحنا ـــ لا تقتل لي وحيدي بقسوتك

فاعتذر هذا قائلاً

ـــ لقد سبق السيف العذل الان واصبحت عاجزاً عن فسخ الخطبة

فقال فريد بلهفة :

ـــ بل انك تقدر على فسخها اذا اردت ذلك ·

اجاب حنا بمكر :

ـــ كيف اقدر على ذلك وقيمتها خمسمائة ليرة واذا اردت

فسخها اضطر الى دفع الف ليرة انكليزية فمن اين لي هذه القيمة لادفعها ؟

اذ ذاك نظر فريد الى والديه واسان حاله يقول ,, اشترياني بهذه القيمة ''

فصرخت وديعة قائلة :

— عندنا عقار واملاك تسوى ضعف هذه القيمة فنحن نرهنها ونحضر لك المال واذهب انا وزوجي الى اميركا فنحصله ببضع سنوات ونرسله الى فريد بشرط ان يكون سعيداً مع فريدة

اذ ذاك نظر الغلام الى الرجل نظرة الاستغاثة وقال له :

— ماذا تقول ياسيدي العم ؟

ولم يكن حنا بكلامه الاول مخلصاً فلما رأى انه غُلب على امره في الاجوبة اراد من الامر مخرجاً فقال بعبوسة :

— ان الامر اصبح فوق مقدرتي الان وانا لا افسخ الخطبة واجعل نفسي كذاباً منافقاً ولو دفعتم لي عشرة الآف ليرة عوضاً عن الالف . كلا . كلا . انا اكون حنا نخله واجعل ذاتي كذاباً ؟ ان هذا لا يصير ولو قطع رأسي

عندئذٍ تحول لطف الجميع الى خشونة فقال الفتى بغضب :

— بل انك منافق الان — انك ظالم — انك قاتل — انك دنيء تبيع عرضك بالمال

فحمي وطيس غضب حنا من كلام فريد واقترب منه بحدة وغضب يريد ضربه واذ ذاك نهض جرجس من مكانه كالاسد وهجم على حنا يريد ان يمزقه ارباً ارباً لو لم تدخل وديعة واخته وزوجها وفريد بينهما ويفصلاهما فأخذ فريد اباه الى البيت وادخل حنا صهره الى بيته وهو يسب ويشتم ويتهدد ويتوعد ويقول لفريد

— وحق ماري ميخائيل وجبرائيل وماري صوفيا والقديسة بربارة وماري زخيا ومار جرجس ومار اليشاع والسيدة ومـار بطرس وبولس وكل ملائكة عمشيت انك اذا كلمت فريدة كلمة واحدة بعد اليوم اقصف عمرك والعن اباك وامك ووووو٠

فلم يجبه فريد على كلامه بل مضى الى بيته يمزج الحزن بالغضب في نفسه وهو يتوكأ على ذراعي والده ٠ فأخذ كل من والديه يطيب خاطره من جهة ويعده المواعيد من جهة اخرى ولكن الفتى كان في حال لا تفيد معها المواعيد فلما وصل الى غرفته ارتمى على فراشه وهو يشكو من صداع قوي



الفصل التاسع

انتصار القوة على الضعف

استفاقت فريدة من نومها ذلك الصباح ولبثت في فراشها تنتظر مجيء فريد ووالديه ليفسخوا عقد خطبتها كما وعدهـا حبيبها لأن كلام هذا لها كان قد فتح بصرها على حياة جديدة حلوة لاذة ذاقت طعمها من تأثير ,, اول قبلة " طبعت على شفتيها من الحبيب في الليلة الماضية فكانت كعود ثقاب اشعل حطب حبها الذي كان معدّاً للوقود فلم يعد قابل الانطفاء فلما سمعت اصواتهم خارجاً اخذ قلبها يهبط و يصعد كلما سمعت كلمة من كلامهم الى ان وصلت الى الحد الاخير وسمعت ما جرى فاخذت تشهق في فراشها وانكسر قلبها واظلمت الدنيا بوجهها فلما عرفت بذهابهم رمت اللحاف عنها بعنف وقامت من فراشها وارتدت ثيابها وجلست على الكرسي باكية فلما دخل والدهـا غاضباً وهو يسب ويشتم و يتهدد ويتوعد اقترب منها قائلاً بغضب وهو يهز يده مهدداً في وجهها :

— والله وحق العذراء مريم اذا خرجت من هذا الباب بعد الان لا ترجعين اليه حية .

قال هذا وخرج غاضباً اما هي فغطت وجهها بكلتا يديها ورجعت للشهيق وعند ذلك عرفت ان الاماني الحلوة التي

عللت نفسها بالحصول عليها في ليلها الماضي لم تكن سوى احلام لذيذة ازالتها اليقظة — فواأسفاه يافريدة٠ان اصعب صعوبات الحياة هي تحقيق الاماني الحلوة

لبثت المسكينة على كرسيها نحو ساعتين من الزمن تستلقي دموعها وتشرب منها وباطلاً حاولت عمتها ان تطعمها شيئاً او تقدر على تسليتها وفيما هي كذلك دخل حبيب من الباب وهو (يضحك كله سوا) بقوله

— صباح الخير ايتها الحبيبة ٠

فاقشعر بدن الفتاة من منظره وودت لو صمّت اذناها قبل سماع كلامه فكان جوابها له عبوسة

أما هو فاقترب منها بحق المحب" كما زعم وحاول ان يأخذها بين ذراعيه فهربت منه كما تهرب من افعوان هائل وقالت له بخوف:

— لا تقرب مني !

فحمل كلامها على محمل الخجل والحياء وقال مداعباً :

— ولماذا ايتها الحبيبة الصغيرة ؟

اجابت بنفور: لان لا حق لك بذلك

— قه٠قه ٠ فهل جهلت انك خطيبتي وانت بكليتك لي٠

اذ ذاك صرخت قائلة : كلا ٠ كلا ! انني لست لك ولا لاحد في العالم غير فريد

خرج اسم فريد من فمها رغماً عن العقبات التي وقفت

بطريقه من الحشمة والتحذر والخوف وللحال انتشر لون الورد في وجنتيها وزاد بريق عينيها فتمزق قلب حبيب غيرة من هذا الاكتشاف الجديد وبعد ان كان يحسب فريدة ملاكاً ارضيا لم تعرف من الرجال غيره (بيحق له) اصبحت بنظره شيطاناً رجيماً وقد وقعت بعشق سواه قبله لكنه كظم غيظه وقال بلطف :

ومن هو فريد هذا ؟

فاجابته بقوة اوجدها الحب واليأس في قلبها قائلة :

— انه رفيقي منذ الصغر وحبيبي منذ الازل وهو وحده الذي له حق بحبي لانه معطى له من الله

فقال مبتسماً عن مرارة — حسن . ولكن كان يجب ان اعرف بالامر قبل ان يتم كل شيء

فرفست الارض برجلها وقالت بحدة :

— لم يتم للان شيء

اجاب متهكماً بل قد تم كل شيء برضاك . وانما تعجبني قوتك المستعارة

اجابت باكثر حدة : انا لم ارضَ بالامر قط وقد جهلته تمام الجهل وها قد عرفته فأرفضه

فقال عابساً — ليس الامر لك بل لوالدك .

اجابت بجنو — ولكن والدي لا يظلمني لانه يحبني

فقال ضاحكاً — سنرى .

ولم يكن والد فريدة في البيت تلك الساعة فخرج حبيب غاضباً ولم يمشِ بضع خطوات حتى رأى حنا راجعاً للبيت فلما رآه هذا عرف من هيئةوجهه ان وراء الاكمة ما وراءها ولكنه تجاهل الامر وقال له:

ــ ما بالك قصرت زيارتك ياصهر ·

فاجاب حبيب ببرودة · كان يجب ان تعلمني بامر حب ابنتك لفريد قبل ان تمت الخطبة

ثم اخبره بقصة فريدة وكلامها له فعض حنا شفته السفلى حتى كاد يدميها وقال لحبيب :

ــ يالها من وقحة عنيدة ولكن لا بأس فان زمام الامور بيدي وليس بيدها وفريدة لا تتكلم من عند نفسها بل غيرها يعلمها هذه الامثولة فدعنا نرجع اليها الان لان بفكري (ان اخلص منها اليوم ها المنقومة)

ولما دخلا البيت وجدا فريدة مستخرطةفي البكاء لان ذلك النهار كان طليعة ايام حياتها التي كانت كلها شتاء ومطرها الدموع السخينة ــ ولما رأتهما مسحت دموعها وهمت بطرح نفسها على قدمي والدها تستعطفه فلما رأت هيئته خافت ووضعت يديها على صدرها ولبثت تنتظر ان يخاطبها كمجرم يرقب صدور الحكم عليه وللحال اقترب منها والدها وهزّ كتفها بعنف قائلاً بغضب :

— احقيق انك جاوبت خطيبك بكلام فج ياوقحة ياقليلة الادب !

فاطرقت وقالت بصوت منكسر — بل تكلمت الصدق اذ ذاك (لعب الكف) على وجنتهـا الرخصة المورّدة وسمعت صوت والدها يقول :

— وماذا تعرفين من الصدق انت ياقليلة الحياء . ان الذي اشربك هذه الروح الخبيثة طرد من بيتي طرد الكلاب اليوم وسوف لا تقدرين على مشاهدته او مخاطبته بعد الآن فاذا لم تطيعي اوامري فاعلمي ان موتك خير من قول الناس عنك انك (عنيدة قوية الرأس) لا تطيعين والدك

ولما انتهى من كلامه رفعت الفتاة نحوه رأسها وهي تستغيث بمنظر يفتت الاكباد وعينين ورّمهما البكاء وقالت بصوت مختنق :

— ابي — ؟

فصرخ بها : اصمتي ولا تدعيني اباك اذا عصيت اوامري

فمدت اليه ذراعيها قائلة بصوت يستدعي الشفقة حتى من القلوب الصخرية :

— ابي الحنون —

فصرخ مرة ثانية — لا تلفظي كلمة ابي بفمك الرجس قبل ان تطلبي الصفح من خطيبك

وكان جوابها ان وقعت على قدميه تقبلهما وتسكب فوقهما دموعها الطاهرة و بكل عنف انهضها واذ لم تقوَ على الوقوف خانتها قواها فوقعت الى الارض وعفرت وجهها بالتراب فرفسها برجله قائلاً بغضب :

— لا تميتي نفسك مكرًا واحتيالاً . انتن النساء من حطب جهنم لا يقطع بكن شيء فيَّ . واطلبي الصفح من خطيبك

فقالت بانكسار وتقطع :

— انني لا اقدر ان اتزوجه

— ولماذا ياشقية !

— لانني لا احبه

فرفسها برجله الخشنة ثلاث رفسات متوالية وهو يقول لها بحقد :

— أهذه ثمرة تربيتي لك ياخائنة ؟ ابهذه القحة تعصين اوامري ؟ فصرخت من قلب جرحه الظلم اكثر مما جرحه الحب قائلة —

— سيدي . والدي . حبيبي - انني اطيعك بكل شيء حتى الموت عدا هذا الامر

فضربها مو بخا قائلاً :

— هذا هو الامر الوحيد الذي اطلب ان تطيعيني فيه واذا أبيت فان الله يغضب عليك وسخطي يرافقك الى القبر

مسكينة فريدة انها كانت تدافع عن حقوقها بقوة لاعتقادها ان سيف الحق مصلت بيدها فلما ذكر والدها ,, غضب الله‘‘ لامت نفسها لظنها انها ارتكبت اثماً فظيعاً وكمن استفاق من غيبوبة نهضت مسرعة عن الارض واقتربت منه فاخذت يده بيدها وقبلتها قائلة بحزن وانكسار :

ـ انني اطيعك ياوالدي فاصفح عن ذنبي

فهدأت جملتها الاخيرة ثوران غضبه ووضع يده فوق رأسها وقال لها صافحاً :

ـ انك باطاعتك اوامري ليس فقط تأتين فضيلة بل تعملين لاجل خيرك وسعادتك فالله يرضى عليك يافريدة لا تُضحكي الناس منك

قال حنا هذا الكلام وخرج من البيت وتبعه حبيب تاركين فريدة لنفسها فلما اصبحا خارجاً نظر الاول الى الثاني وقال له بافتخار :

ـ ان الذي نظرته من عناد فريدة لم يكن من عند نفسها بل من فريد ـ فان افكارها كالصحيفة البيضاء يقدر الانسان ان يطبع فيها آراءه بكل سهولة فيجب ان تلاحظها من هذا القبيل وتعلمها حبك

فاجاب حبيب . انا اموت حبا بها ولكنها هي لا تحبني ولذلك فالاوفق ان نعجل بالاقتران لانني اخاف ان تسرق

فريدة من البيت ويفسد علينا عملنا

فقال الوالد هذا ما ارتأيه انا ايضاً فليكن الاكليل نهار الاحد المقبل

قال حبيب مسروراً ان هذه الفرصة كافية لانني اعتمدت أن نقترن هنا ونذهب حالاً الى بيروت فنبتاع ما تريده

ثم ودع حبيب حنا وذهب وهو يعلل نفسه الجائعة بقرب وقوع فريسته بين يديه

الفصل العاشر

الاكليل

وما الموت الا موت نفسٍ محبة
تقاد الى من لا تطيق حديثه

بعد ذهاب حبيب دخل حنا بيته فوجد ابنته جالسة على الكرسي كالدمية التي لا حراك لها ووجهها فوق راحتيها تتلقى بهما دموعها المنسكبة فاقترب منها وانهض رأسها وقال لها موبخاً:

— ألم يكن الافضل لك عدم احتقار نفسك امام خطيبك واستدامة ثقته بك (يامجذوبة) ؟

فنظرت الفتاة اليه بعينين منتفختين من البكاء وقالت له بانكسار :

ـــ اذا كانت مخالفتي اوامرك خطيئة كما قلت فانا لا افعلها ولكنني افضل الموت ياابي على ان اتزوج هذا الرجل ـ ,, دخيلك ‘‘ اقتلني وأرحني وأرح نفسك مني ـ قبل ان تسمح بزواجي منه

فقال نافراً : سواء احببته ام ابغضته فهو قد اصبح خطيبك وبعد نهار الاحد المقبل يصبح زوجك فالاوفق ان ترضي به لا ان ترغمي على الرضى لانه نصيبك من الله .

جاء كلام الوالد كسكين ماضية فوق اخر حبال امالها فقطعها ولذلك ضعفت عن المقاومة اذ وجدتها ذاهبة سدى وفي هذه المرة لم تسقط دموعها التي كانت نضبت بل قالت بوهن ويأس وهي تنظر اليه نظر المقتول الضعيف الى قاتله القوي

ـــ اذن ذهب كل امل ؟ وهل يتم الاكليل نهار الاحد ولا بد ؟

اجاب بفظاظة ـــ لا بد ولا مهرب ويجب ان تعرفي ان خروجك من هذا الباب يعني دخولك منه مائتة كما قلت لك .

ثم تحول عنها ومشى من امامها تاركاً اياها في وهدة اليأس والحيرة كطير مقصوص الجناح ملقىً على الارض وبعد ان لبثت هناك وقتاً لا تعرف مقداره تفكر بامور لهمّها لا تدري ما هي قامت بكل هدوء ومشت الى فراشها حيث كان المصلوب معلقاً فوقه فجثت امامه تصلي بقلبها فقط

وكانت صلاتها هذه الجملة التي رددتهـــا بصوت مسموع

„ لمجد آلامك احتمل كل هذا فيامخلصي اغفر لهم لانهم لا يدرون ماذا يفعلون ''

وفيما هي تصلي شعرت كانهـا قد اخذت مخدرًا قويًا فارتمت فوق فراشها ونامت وسعيد هو الذي يقدر على مداواة داء همومه بدواء النوم لا السهاد

وكان لفريدة صديقة عرفتها من ايام المدرسة اسمها سوسن وهي فتاة في نحو السنة الثامنة عشرة من عمرها يتيمة الوالدين جاءت من بلدتها اهمج لكي تتعلم في مدرسة الراهبات في عمشيت ورغبت في الانخراط في سلكهن

تساوت سوسن بفريدة اخلاقًا وفضائل وذكاء وجمالا ولا شيء كالمساواة الاخلاقية والجسدية يوطد دعائم الالفة والحب بين المرأتين لان المرأة التى ترى في صديقتها صورة اخلاقها كما ترى صورة وجهها تحبها حبًا دائمًا وقويًا لا ينخره سوس الحسد ولا يفسده داء الغيرة القتّال — وحب كهذا تحسبه كل واحدة من المرأتين لخير نفسها اكثر مما هو لخير رفيقتها فلا تقدر على الاستغناء عنه لانه يصبح قسماً من روحها وجزءًا مهماً من احتياجاتها الدنيوية

سمعت سوسن بخطبة فريدة فاستغربت الخبر كغيرها ممن استغربوه وحسبوه ظلماً فادحاً ان تتزوج فتاة غضة جميلة رجلاً قد ذوت زهرة عمره فضلاً عن قبح صورته وعدم رضاها به

ولكن „ معرفة " الظلم والعمل „ لقمعه " امران متضادان متناقضـان ومن عادة اهل بلادنا ان لا يأتوهما الا بالقول فقط لذلك لم يحركوا في مصلحة فريدة يداً لاعتقادهم ان والدها „ حرٌ بها "

وصلت سوسن الى بيت فريدة وقلبها يكاد يثب من صدرها لظلم حبيبتها فلما دخلت وجدتها نائمة وعلى وجهها هيئة الراحة وعلى شفتيها ابتسامة الرضى فقالت في نفسها : هل تُعدّ تاعسة من تكون لها هذه الهيئة ؟

ولما سمعت فريدة وقع اقدامها فتحت عينيها وتفرست في صديقتها بدون كلام فترامت هذه عليها وتعانقتا فوق الفراش حيث تفجرت فوقه ايضاً ينابيع عيونهما فامتزجت ببعضها كما تماسّت نبضات قلبيهما وبعد ان فرجت فريدة همومها بالدموع جلست والى جانبها سوسن وقالت لها :

ــ هل بلغك ما دهمني من الشقاء يااختي سوسن ؟

فقبلتها هذه بحنو وقالت لها :

ــ ولماذا انت شقية يافريدة أفلا تحبين خطيبك ؟

فشهقت كمن اغمي عليها وقالت لرفيقتها :

ــ ألا احبه ؟ ـ فكيف اقدر على حبه ياسوسن ؟ انني ابغضه • انني ابغض عينيّ اذا نظرتا اليه واذنيّ اذا سمعتا صوته • ولساني ان تحرّك لمجاوبته • انني اتمنى الموت قبل دنو

الاحد المقبل

فقالت سوسن بحسرة : وهل عينوا يوم الاحد لا كليلك ؟

— نعم ياسوسن و ياليت نعشي يخرج عوضي من هذا البيت

فسكتت سوسن عن الكلام اذ يوجد مواقف يعجز عنها الكلام و بعد هنيهة قالت بصوت منخفض :

— وهل علم فريد بماذا جرى ؟

— لا اعلم فقد اخبرته بامر الخطبة ولم اره من الليلة البارحة اما اليوم فلم ارَ احداً غير والدي وعمتي وزوجها وذلك ـ الوحش

ثم اطرقت فريدة حياء وخفضت صوتها خجلاً واخبرت سوسن بكل ما جرى بين والدها وفريد ووالديه فقالت سوسن بوداد وجرحة :

— والان ؟

اجابت وهي تفرك يديها — الان ؟ الان لا ادري ماذا افعل انني وحيدة في محيط المصائب وعزل وكل من حولي مسلّح وضعيفة بين اقوياء ولا معين لي فضلاً عن انني مضطرة ان امكث في البيت طول الاسبوع بامر ابي

فتنهدت سوسن قائلة وبماذا اقدر على مساعدتك انا ايتها الحبيبة ؟

فنظرت فريدة حولها واذ لم تجد احداً اسرّت في اذن

رفيقتها قائلة :

— هل تحملين مني كتاباً لفريد ؟

تم نهضت من فراشها ومدت يدها الى رف خشبي فوق رأسها فتناولت قلماً رصاصياً وورقة وكتبت عليها ما يأتي :

عزيزي فريد

لقد قضي الامر وعزمت على تسليم نفسي الى „ الموت " الذي اخبرتني عنه ارضاء لوالدي بل رغماً عني وخوفاً منه — فاصفح عني واعلم انني ما زلت حية اقول وافتكر واعتقد انني لك ولك وحدك ولو قال العالم كله غير ذلك . حبيبتك

فريدة

فماذا كتبت فريدة ؟ مسكينة فريدة ماذا كتبت ؟ — كتبت انها له بحسب رضاها واعتقادها ورغبتها وحكم الحب ولكن هل هي حرة حتى بقلبها وعواطفها وحبها ؟ تاعسة . شقية . عبدة . ذليلة . مجرمة هي لانها فتاة سورية ! !

وقبل ان تطوي الورقة ارتها لسوسن فقرأتها هذه وارتجفت فقالت لها فريدة بلهجة القانط :

— ارأيت ما كتبت ؟ انني قلت له هذا القول لانني اعرف انه لا يحبني اثيمة . فافتكرت سوسن ان تجيب فريدة بانها „ غير اثيمة " ولكنها هي ايضاً كانت كفريدة تحسب مخالفة الوالدين حتى في هذه الامور „ خطيئة مميتة " فلم

تتجرأ على اظهار افكارها حتى لفريدة التي قبلتها ووعدتهـــا بالرجوع في اليوم الثاني

ولكن سوسن لم ترجع . انها حملت الرسالة ولم تكد تخرج من باب بيت فريدة حتى تكاثرت عليها الافكار فصارت تارة تحسب ان في حملها رسالة حبية من حبيب لحبيبته خطيئة وهي فتاة سوف تصبح راهبة واخرى تقول انه لربما اختطف فريد فريدة بدون رضى والدها فاكون انا سببت لهما اقتراف هذا الذنب وطوراً تظن انه ربما اضرت فريدة او فريداً بشيء

وكانت كلما اعترضها فكر ترسم شارة الصليب على وجهها قائلة ,, الله يطردك ياشيطان " واذ يضايقها الفكر الاخر تبصق حولها لتطرد الشيطان واذا هجم عليها غيرهما ترفس الارض برجلها لترد الشيطان الى جهنم حتى وصلت الى بيت جرجس بعد ان تغلبت على كل القوات الشيطانية باعتقادها

ولما دخلت البيت وسألت عن فريد وقالت لها امه انه مريضٌ خرجت حالاً بدون ان تراه ولم تعد ترجع الى فريدة لانها حارت بامرها فذهبت الى الراهبة معلمتها واستشارتها بالامر فحارت هذه بامرها ايضاً واذ لم تدرِ ما هي اقوم طريقة لتتخذها قالت لسوسن ,, ابقي الرسالة معك ولا ترجعي الى فريدة بعد فان الله يدبر كل شيء "

نعم الله يدبر كل شيء متى اراد . ولكنه عزّ جلاله لا

يظهر اعجوبات بكل اعمالنا في الحياة · فهو قد فطر الانسان وخلق له عقلاً ليميز الخير والشر وتركه في هذا العالم حرًا · وخلق الطبيعة وسن لها نظامات وابقى لها حق العمل بها · فعلى الانسان اذن ان يستعمل في الامور عقله وعلى الطبيعة ان تقوم بحسب وظيفتها وما دعاوءنا الله كي يختلط بكل اعمالنا سوى تجربة منا له تعالى جلّ اسمه — وهذا باعتقادي ضعف وجهل

اما فريدة فقد كانت مقطوعة عن كل العالم الذي تعرف انه يرحمها · انتظرت مجيء سوسن فكان انتظارها عبثًا تشوقت الى معرفة اخبار فريد فلم يجدها التشوق نفعاً ترجت والدها ان يسمح لها بالخروج من الباب لتنشق الهواء النقي فكان ترجيها عقيماً فاستسلمت اخيرًا لامر القضاء ولبثت في سجنها تنتظر الخروج منه „ للموت الابدي " كما كانت تدعو الزواج

اصبحت كحامية ضعيفة لقلعة من القلاع البحرية قد يئست من كل امل من الداخل ولم يزل املها من نجدة خارجية — من فريد — فاذ لم تحصل عليها سلمت نفسها مرغمة صامتة فظنها العالم راضية سعيدة — وكم تلتبس الحقائق على البشر

وهكذا ففي ليلة ذلك الاحد رفع الخوري متى يده (المباركة) فوق رأسي حبيب الشامخ وفريدة المثقل بالهموم وبارك اكليلهما — بل بكلمة اخرى جفف السعادة والجمال والراحة في قلب الفتاة

وبعد انتهاء الكاهن من صلاة الاكليل التي تمت في البيت

وبحضور افراد من الاقارب والاصحاب اقترب الناس من فريدة ،، وهنأوها ،، بقرانها وهي مغمضة العينين عن ظلم هذا العالم وربما كان بينهم من يحسدها فتم فيها قول الشاعر

هم يحسدوني على موتي فوا اسفي

حتى على الموت لا اخلو من الحسد

****

بعد نصف ساعة من ذلك الوقت درجت عربة تقل العروسين والشاهد فيليب والشاهدة ظريفة اخت العريس ذاهبة بهم الى بيروت - مرت من امام بيت جرجس ومن تحت غرفة فريد حيث هو ملقى على فراش المرض لا يعي على شيء ولا يعرف ان هذه العربة التي يسمع باذنه قرقعة دواليبها انما هي تحمل عنه سعادته وحياته وكل ما هو في العالم له

ولم تتمالك العروس ان نظرت الى الغرفة وكانت تجهل ما داخلها فرأت النور ينبعث من نافذتها فشعرت كأنه سهم خرق قلبها فصرعها وللحال ادارت ظهرها للعريس الذي بجانبها واتكأت على جانب العربة وهي تشعر كأن قلبها يتقطع اجزاء صغيرة ويرمى امامها ٠



الفصل الحادي عشر

العروس الجديدة ـ الحبّ الطاهر نفحة قدسيَّة من جنان الخلد

ماذا تدرك او تفهم ابنة اربعة عشر عاماً من الحب والزواج ؟ ان قلبها الصغير يكون بهذا العمر ابتدأ بجمع نبضاته الحية واحدة واحدة ليصلها بعضها ببعض ويجعلها سلسلة متينة لا يفصمها هجر او سلوان ولا يؤثر بها ظلم او عدوان ولا تدعى هذه السلسلة تامة الحلقات قبل ان تصل المرأة الى الخامسة والعشرين من عمرها وما كان يدعى قبل هذه السن ,, حباً '' ليس الا ,, لعباً '' او هو تصوّر الحب لا لبابه وخياله لا حقيقته ـ بل مقدمة لفصول الحب الحقيقي

من النساء من تحب ,, لاجل الحب '' فقط او بكلمة اوضح تحب لانها تجد لذة في كيانها ,, محبة ومحبوبة '' وليس لان الحب امر طبيعي في نفسها هو اقوى من النفس ذاتها فمثل هذه تدعي الحب وهي براء منه

وكم يدعي بالحب من ليس اهله

ويلبس منه الثوب يوماً فيخلق

وهذا الذي تدعوه هي مع الناس في قلبها حباً لا يكون سوى ميل يتقلب مع تقلبات الاحوال ويتناقص او يزداد بحسب

اهمية وجاذبية الاشخـــاص فمثل هذه المرأة لا تحب احداً ,, بحبها " لانها لم تخلق ذات قلب واحد له باب واحد يدخل فيه رجل واحد و يوصد وراءه الى الابد بل يكون لقلبها ابواب ونوافذ جمة تدخل فيها انواع كثيرة من الاميال المتشعبة وامرأة كهذه تكون ضربة على نفسها وشقاء على الرجال اذا كانت جميلة : على نفسها لانها بعد ان تفلت عصافير السعادة من يد طيشها الواحد تلو الاخر وتصبح في عمر لا تقدر ان تمسك احدها تمسي بحسرة فتصل الى ايام الشيخوخة ولا زاد لها من ايام الصبا . وعلى الرجال لانهم يعلقون عليها امالاً لا تتحقق و يضيعون في حبها اياماً لا ترجع

اما المرأة الحقيقية -- المرأة التي يدعونها فاضلة فهذه تخلق ولها في الحب قلب واحد كبير وطاهر ينمو و ينمو الحب به الى ان تبلغ العشرين فينضج ذلك الحب على شجرة الطهارة و يلبث بانتظار ,, الرجل الواحد " الذي خلق في هذا العالم و بيده مفتاح ذلك القلب فيفتحه و يدخل حديقة الطهارة فيه فيقطف من اشجارها ثمر الحب الحقيقي

فامرأة كهذه اذا تزوجت صغيرة فلا تقولوا انها ,, احبت " الا اذا كان ذلك الذي تزوجته هو هو الذي خلقه الله لها لانها تكون في سن لا تدرك معها معنى الحب ولا سره المقدس — اما اذا لم تقطف برعوماً من وردة الحياة فانها

لا تتزوج غير الرجل الذي تحبه ولو ضحت لاجله مال العالم كله — لان كل العالم لا يغني المرأة المرتقية عمن تحب وهذا وحده يغنيها عن كل العالم

وهذه المرأة اذا تزوجت قبل ان تبلغ سن الادراك او أرغمت على التزوج بمن لا تحبه ثم وجدت بعد زواجها ضالتها المنشودة تعيش باعظم تعس يتصوره عقل بشري لانها تكون امينة على عهد زواجها فلا تخونه ويكون الحب يتنازع قلبها فيمزقه فتقع صريعة بين ,, الواجب والحب " وكلاهما عزيزان عليها معذبان لها .

وفيما يلي من هذه الرواية يعرف القارىء حالة المرأة من هذه الطبقة — بل يعرف حقيقة الشقاء الذي يتأتى عن الزواج الغير بالغ الذي يقع فيه دم الانسان على رأس من ظلموه وليس على رأسه هو فيما اذا كان راشداً — فان المرأة الشريفة هي التي تقدس حبها وتضحيه ولا تضحي لاجله شرفها لانها تطلبه شريفاً سامياً منزهاً محللاً لا تشوبه مرارة الشك ولا تنخره ابر الضمير — وبئس السعادات تلك التي يمرمرها دوس الواجب

وهل يوجد اتعس من فريدة بين النساء ؟ هذه الفتاة التي على غير ادارك منها اخذت تبني لفريد ولنفسها قلعة السعادة منذ سنتها التاسعة — فلما جاء وقت الراحة من عناء

البناء والسكنى بهذه القلعة جاء والدها بمعول ظلمه واستبداده فهدم كل ما بنته وبكل قسوة وعناد بنى لها مكانه سجناً ووضعها فيه طول حياتها في ظلام البوءس واوكل بحمايتها رجلاً مكروهاً منها قبيحاً لديها — هل يقدر احد ان يتصور شقاء هذه الفتاة التي كانت تحسب ان الجمال والحب والحياه وجدت لشخص واحد في الحياه فاضطرت ان تهبها لآخر — و بعد ان كانت السعاده تنتظرها فاتحة اليها ذراعيها لتضمها اليها انتزعت من بينهما بكل جور وقذفت الى هاوية البوءس ؟ — فهي قد دخلت باب سجنها الابدي الان لا بل باب جهنم حياتها — فاصبحت لا تريد الفرار لان فيه عارها ولا تقدر على المكث الذي فيه دمارها — فموتها الف مرة خير من حياتها التي تلاقي فيها كل يوم موتاً جديداً

هذه صورة نفسها المقبلة بريشة هذه المؤلفة التي تعودت (تصوير) الظلم فـاصبحت تقدر على ابرازه بهيئة مرضية ولكن فريده لم تكن في ذلك الوقت تشعر بها كما هي . وكانت تقواها قيداً ثقيلاً بكل عواطف نفسها واميالها فاستسلمت صابرة وعزمت على ان تكون (امرأة مطيعة) وان تكون طاعتها عن رضى تحت كل التقلبات وان تسلو فريداً تماماً — هكذا نوت هي اما الطبيعة فقد كانت نيتها منها مخالفة لنيتها من نفسها لانها اخذت امر العناية بحب فريدة لفريد بيدها القوية واخذت

تنميه في قلبها رغماً عنها كما تنمي جسمها وجمالها وعقلها ولا غرو فهو قد كان جزءًا من روحها — ومن تراه يقدر على اطفاء النار المشعلة بيد الله ؟

الفصل الثاني عشر

المعركة البيتية · الوالدة والولد

بعد ذهاب العروسين الى مدينة بيروت بيومين فارقت فريد الحمى وأخذ يتقدم نحو الصحة وفي اليوم الخامس نهض من فراشه وجلس على كرسي امام تلك النافذة المطلة على بيت حنا فاخذ ينظر اليه بعين ألهبتها حرارة الحب و يراقب كل من يخرج منه و يدخل اليه وكان عرف ان فريدة منعت عن رؤيته من والدها ولكنه استغرب سكوتها كل تلك المدة عن مخاطبته بكلمة فنادى والدته وللحال جاءت هذه بقدم مضطربة لظنها ان سؤاله سيكون عن فريدة فنظر هو اليها بعينين خائرتين من الضعف وقال

-- لما كنت مريضاً واسألك عن فريدة كنتِ تقولين ان الحديث بشأنها يزعجني ومتى شفيت تخبريني كل شيء فانجزي الان وعدك ·

فنظرت اليه بقلب يتقطع من مرآه على هذه الصورة وهي لا تدري بماذا تجيبه وعرف هو سبب حيرتها فقال بضجر :

ـ أخبريني الحقيقة مهما كان جرحها اليماً

واذ ثابرت على سكوتها قال لها بغضب ثانية :

أخبريني الحقيقة ياأماه لان جهلي اياها يعذبني اكثر من معرفتي لها ـ قولي لي لماذا لم اسمع شيئاً عن فريدة في اثناء مرضي ؟ واين هي الان ؟ وهل تزوجت ؟

فوقعت وديعة على عنق ولدها تقبله وتبكي وللحال فهم بلغة الدموع اكثر مما يفهم بلغة الكلام واصعد من صدره زفرة حارة اذ قال :

ـ انها تزوجت ؟ نعم لقد تزوجت فريدة تركتني فآه من والدها الظالم ؟ آه من بساطة قلبها ! آه من سوء حظي ! وآه ثم آه من العوائد الفاسدة الجائرة التي انتزعتك يافريدتي ياحبيبتي من قلبي وحياتي

كادت والدته تقع مغمياً عليها من البكاء عند سماعها كلام ولدها فلم تقدر على مجاوبته بل سلمته رسالة فريدة التي كانت سوسن قد سلمتها اياها بعد ذهاب فريدة الى بيروت فاخذها وقرأها بعينين لا تلينهما الدموع بل يقسيهما شرر الغضب ثم طواها ووضعها في صدره ونظر الى والدته بحقد قائلاً :

ـ ما اكثر ادعاء المرأة بالقوة واشد ضعفها . متى وصلتك

هذه الرسالة ؟ انها بدون تاريخ

اجابت بحسرة : وصلتني اليوم من سوسن وقالت ان فريدة ارسلتها ولم تتجرأ على اعطائك اياها وانت مريض لئلا تضر بك اما فريدة فقد تكللت نهار الاحد وهوذا اليوم الجمعة

فقام الفتى من مكانه واخذ يخطر في الغرفة ذهاباً واياباً وهو ينفخ كأن هذا الخبر اعاد اليه قوته بل أكسبه قوة غير اعتيادية ثم قال بصوت يرتجف من الغضب :

ــ كثر الله خير سوسن . انها رامت ان تبعد عني الضرر أليس كذلك ؟ فاواه من هؤلاء النساء اللواتي لا يفرقن عن الدمى بشيء . انهن تماثيل من شموع تطبع عليها ارادة الغير طبعاً . انهن فونوغرافات ترددا صوات غيرها ولا صوت لها . انهن آلات تدار بأيدي الرجال وكل وصي عليهن ــ فاواه يافريدة لقد قصدت ان اعلمك واجعلك امرأة ذات قوة واستقلال ومعرفة فغلبتني فيك التربية والعادات والتقاليد . آه ياحبيبتي ان الله ايضاً ساعد الاعداء علينا ــ ولكن كلا . كلا . حاشا لعدل الله من ذلك بل الصدف والاحوال ــ اوقعتني بالمرض والجهل اخفى عني الحقيقة فاخذوك قبل ان اتمكن من تخليصك ــ قبل ان اصونك لانك جوهرة حياتي وقد انتزعك اللصوص مني فاصبحت لا املك شيئاً ــ آه يافريدة ــ

وكانت والدته تسمع كلامه وهي تبكي بكاء مراً ولا تجرؤ

على الحديث . و بعد ان سكت الاثنان عدة دقائق قالت الوالدة بكل هدوء :

ــ وماذا تقدر ان تصنع فريدة في مثل هذه الاحوال القاهرة ياولدي ؟

فاجاب غاضباً : تقدر ان تفعل ما يأول الى سعادتها ولو أغضبت عيها كل البشر لان لها الحق بالحياة والسعادة فان فريدة قوية وذكاوءهــا غير اعتيادي يا امي ولكنها تستعمل شجاعتها بالطرق التي تضرها لا تلك التي تفيدها . فالتي تقدر ان تضحي سعادتها وحبها وحبيبها لاجل طاعة والدها بامر ظالم تقدر ان تقف بوجه والدها باستقلال تام وتقول له انني اطيعك بكل شيء ولا اطيعك بقتل حياتي وسعادتي ظلماً . ولكن آه من نوع التربية التي تعلم ,, الطاعة المطلقة '' والعمياء وتميت روح الاستقلال في هذا الوطن التعس الذي تطيع نساوءه رجاله طاعة مطلقة وبكل شيء هذه التي تجعل الرجال اشباحاً والنساء اماء وتطفي جذوة التقدم في البلاد

فقالت والدته بحزن : ان فريدة كغنمة اقتيدت للذبح رغماً عنها ولم تقدر على المدافعة عن نفسها لصغر سنها . فيا ولدي عليها ! ويالهف قلبي على صباها وجمالها !

فلطم الفتى رأسه بيده لطمات متوالية وهو يقولـــ سراً باسنانه :

— ماذا ينفع تلهفك وتجدي حسرتك الان ؟ لماذا لم تخبريني عن الامر في وقته ؟ انني كنت اختطفتها تحت جنح الليل — كنت دافعت عنها بروحي — فيالهفي على نفسي انا الذي كنت اظن ان الوقت طويل وانني قادر على تخليصها ,, فتعشوني قبل ان اتغداهم " ماذا فعلت فريدة ؟ — انها تزوجت رجلاً تبغضه وتركت حبيبها وسوف يريك المستقبل ندم المسكينة وشقاءها —. ثم ضرب جدار الغرفة بيد قوية وقال بحدة :

لقد ذهبت ضحية الاغراض يـا فريده — لقد استلم زمامك من لا يقدر ان يحميك — لقد دست بالاقدام ولكن انا بجانبك ياحبيبتي وسوف ادرأ عنك كل تهمة واحمي ذمار شرفك وطهرك وابعد عنك كل ضرر — انني بكليتي لك ولا يهمني لمن تكونين انت

كان فريد اذا تحقق واعتقد انه مصيب بامر لا يرجع عنه مهما كانت القوة المضادة له عظيمة . فلما سمعت والدته قوله انه سوف يقف بجانب فريدة حتى الموت عرفت ماذا تعني هذه الجملة عنده فرجف قلبها خيفة

فلذلك ترى هذه المرأة التعسة تقابل الان اعظم الاخطار التي تصورتها منذ خطبة فريد وجهاً لوجه وهي لحكمتها لا تتجرأ على الاعتراض لعلمها انها عاجزة عن دخول قلبه الا من باب

آخر له ذات النفوذ الذي لحب فريدة عليه كما ظنت فقالت له بقلب منكسر :

ــ افعل ما بدا لك ياحبيبي بشرط ان لا تميت والديك حزناً .

فاجاب بعبوسة ــ انني لك ولوالدي بكل ما اقدر عليه ولكن فريدة هي حبيبتي . هي الاهتي . هي المرأة الوحيدة التي اقدر على حبها في الحياة وقد اقسمت لها امام السماء على ذلك ليلة افتراقنا . اما اذا كانت هي اخلفت بوعدها فلأنها حسبت انجازه خطيئة ــ ان حقها فيَّ ثابت ومنزلــــ من عند الله .

فلطمت الوالدة وجهها بقوة كفيها وقالت له بحسرة :

ـ انك وحيدي يافريد ـ ياحبيب قلب امك .

اجاب مبتسماً عن مرارة تشق صدره :

ـ نعم وفريدة هي وحيدتي ياامي .

عند هذا الحد ضاق ذرع وديعة عن احتمال الحديث فخرجت تكفكف دموعها وذهبت الى تلك السنديانة التي جلس تحتها فريد وفريدة في ليلة اجتماعهما الاخير واخذت في النواح

فكان ذلك المقعد ملعباً تمثلت عليه فصول هذه المأساة الثلاثية ,, طهارة الطفولية '' ,, وتأثير اول قبلة '' ,, ويأس ام حنون ''

الفصل الثالث عشر

رجوع العروسين

بعد اسبوعين من تأريخ اكليلهما رجع العروسان من بيروت ولا بد هنا من قول كلمة عن العريس

ان حبيب نعمه رجل من الذين عملتهم امريكا بعمل ,, النعمة الحديثة ،، لانه ذهب اليها بعد ان رهن بيتاً صغيراً كان يملكه فرجع منها وهو حامل اكياساً من الذهب تحوي على خمسات الوف الليرات جمعها بمدة عشرين سنة

ومن المقرر االمعروف ان مال امريكا صنع من السوريين فئتين متباينتين في الاخلاق والاعمال احداهما اصحابها ذوو مقاصد نبيلة وغايات سامية ومبادىء شريفة كان يعوقهم عن اتمامها بالوطن رزوح عقولهم تحت اثقال العبودية والظلم واجسادهم تحت يد الفاقة وكان قيد الخمول وقيد وقوف الاشغال يكبلان ارجلهم فلما هاجروا جاء اجتهادهم كمبرد حل هذين القيدين فانطلقت ايديهم وحفرت قلب الصناعة والتجارة واستخرجت كنوزهما وتحررت افكارهم فصفقت بجناحي الحرية فوق بستان الاستقلال فاقتطفت من ثماره ما حلا وطاب من المبادئ فاستفادت وافادت — والفئة الثانية ابطرها المال واسكرتها خمرة حداثة

النعمة فغدت كالحيوانات التي تسمن اجسادها وتهزل ارواحها ولا همّ لها سوى جر اللذات لنفوسها ثم وضعوا نفوسهم ,, بحق المال '' في المراكز التي لم يخلقوا لها ولا اهلتهم عقولهم لنيلها فكانوا عثرات في سبيل غيرهم من اصحاب الاهلية

وحبيب الذي عليه مدار الحديث كان من اهل الطبقة الثانية — ابطره المال حتى ظن نفسه من اصحاب الفضل الذي خلقوا له وخلق لهم او اهلاً للمراكز التي هي تطلب الناس وليس الناس تطلبها فقلد اكابر عمشيت بابتناء دار فخمة وفرشها بالرياش الثمين وكان فيها هو واخته كطيري بوم في قفص مذهب — وصنع من ماله قيداً ثقيلاً قيد به عنق فريدة التعسة .

وحين رجوعه من بيروت أدخل فريدة دارهُ وهو يباهي قائلاً :

— انها لا تصلح الا لك ايتها الحبيبة

اما هي فصعدت الدرج بدون جواب ولم تمضِ على وصولهما ساعة من الزمن حتى كانت وفود المهنئين تتوارد لتهنئتهما وكلما دخل جمهور يزيد وزن حبيب من الفرح نحو اوقة وازداد هذا السرور حينما دخل وفد من وجهاء البلدة مع نسائهم فنهض حبيب ملاقياً لهم وهو يضحك ,, كله سواء '' وعيناه الصغيرتان تبصان في وجهه الاسمر جداً أشبه بمصباحين ضئيلين في ليلة

مظلمة وشعر شاربيه مبعثر كريش طير بلله القطر

وكان من جملة الوفد رجلٌ غريبٌ عليه سيماء العظمة والنجابة هو البرت بك الذي كان لم يزل في عمشيت وأحبَّ ان يأتي مهنئًا مع المهنئين بدون ان يعرف من هما العروسان

جلس البرت بك على كرسي مقابلاً للعروس فنظر اليها واذا بها جالسة بجانب حبيب ,, والضد يظهر حسنه الضد '' فانها كانت بين قبحين : قبح زوجها وقبح اخته ظريفة التي كانت شاهدتها وهي جالسة على شمالها . ولم يكد يملاء نظره منها حتى اتخذ وجهه هيئة التفكر والعبوسة اذ عرف انه انما ينظر لذلك الوجه الذي نظر اليه في الارجوحة حين مروره بصحبة الشيخ وانطبعت هيئته في مخيلته حتى لا تمحى

وكانت فريدة في وسط ذلك الجمع اجمل زهرة في وسط ذلك البستان العالمي ولكنها واأسفاه ذابلة لهمّ قلبها كأن كثرة النظر اليها سبب ذبولها وهي كتمثال من جماد بين جمهور متحرك

فلما رآها البرت بك رمقها بنظرة حادة كالسهم — ولكنها لم تكن كنظرة بعض الشبان للنساء الجميلات — لانه لم ينظر اليها بعين جوعانة للجمال ولا بعين تحتقر الطهر او تحسد الجمال بل بعين رحيمة شفيقة نظر اليها متأسفًا

ولما كفّ نظره عنها كان متهيبًا محتشمًا امام تمثال الطهارة والشقاء وكأنه مارّ في طريق ورأى زهرة جميلة ومدوسة بالاقدام

فالتقطها ووضعها على حائط مرتفع شفقة عليها · هكذا شعر نحو العروس

ولم ينتبه البرت بك لمن هم حوله الا بعد دقائق فنظر في الغرفة ورأى انظار بعض اصحابه متحولة اليه فعرف غايتهم منها اما هو فضحك في سره ضحكة الاسيف اليائس على مرسح الظلم اذا رأى هناك جماعة شبه هالة حول عواد يطربها بصوته وهناك مثلها حول نارجيلات تعطل اصوات (بقبقتها) على العود الحانه والسيدات يدخنّ ويبتسمن فتظهر شموس الاسنان كأنها تشرق سروراً من سماع الالحان ورجال يتحادثون همساً لئلا يقطعوا على المغنين الغناء وانظار الجميع لها وجهة واحدة متحولة اليها هي ,, وجه العروس " مع ان هذه متحولة النظر نحو الارض

فقال الرجل في سره · ان هذا الجمع وفيه الشيخ والشاب والعاقل والجاهل والفاضل والخامل والغني والفقير لو كان في جنازة شيخ مسن تعبت منه الحياة وهو تعب منها لكنت ترى كل واحد منهم يذرف دمعة حزن على الذاهب اما وهم في جنازة مستقبل وحياة وسعادة فتاة كهذه العروس فهم يضحكون و يفرحون و يهرجون ويمرجون · فهل هم ياترى بمصابها يشعرون ؟ ام انهم لا يدرون ماذا يفعلون ؟

الفصل الرابع عشر

مقدمة فصول العذاب

لما عرف فريد يرجوع فريدة وحبيب من بيروت نادى والدته وقال لها بصوت هادىء :

— احب ان نذهب ونسلم على فريدة يا اماه

فنظرت والدته فيه بدهشة وقد اخافها هدوءه وقالت له :

— لا ارى ان ذهابنا واجب ياعزيزي واهل الضيعة كلهم يعرفون ماذا جرى لنا مع والد فريدة

فضحك الصبي تلك الضحكة المخوفة قائلاً :

— ما زلنا يا امي نخاف من معرفة اهل الضيعة وانتقاداتهم فلن نحصل على سعادة محللة لنا • واي بأس من ذهابنا اذا كانت لنا خصومة مع والد فريدة ؟ انا لا اعرف حبيباً واحب ان اراه وارى فريدة في هذا الوقت ولا سواه

اجابت بحزن : ولكن اخاف من تأثرك . اخاف من رجوع المرض اليك ياولدي

فقال بقوة : انني رجل فممَّ تخافين عليَّ ؟

فلم يسعها الا الامتثال لامره وخرجت لكي تلبس ثيابها وكان والده في بيت احد الجيران فنادته وهي تقول في سرها

ياويلاه ماذا يقصد من ذهابه اليها ؟

وهكذا بينما البرت بك يسارق العروس النظرات اهتماما بها وهو يفتكر كيف انه بينما كان مع رفيقه الشيخ بالعربة يتكلمان بشأن مستقبلها كان والدها يدبره لها وحينما كانا يسميانها نعجة كانت هي تعد للذبح دخل الغرفة جرجس ووديعة والدا فريد يتبعهما فريد الذي مع اجتهاده في اخفاء امره لم يقدر على ذلك

فوجهه الجميل كان مبرقعاً بالصفرة ـ صفرة المرض والهم ـ وعيناه البراقتان ذابلتان من الهوى وقلبه يخفق خفقاناً شديداً ولولا الحواجز من الضلوع لكان يفرّ من صدره ويقع على قدمي فريدة ورجلاه ترتجفان وهما لولا قوة غير اعتيادية فوقهما لما حملتاه الى هناك فظل ماشياً وابصار الناس شاخصة فيه كأنهم يتفرجون على تمثيل رواية لاذة الى ان دنا من فريدة فمدّ اليها يداً مرتجفة اخذ بها يدها الناعمة . وهنا اترك وصف الموقف لكل قارىء لبيب

فالى اين اتى فريد ؟ الكي يهنىء فريدة بزواجها ؟ ام لكي يراها بجانب حبيب ؟ ام لكي يفرح مع الفارحين بعرسها ؟ انه اتى لكي يراها والله وحده يعرف غاية مجيئه .

جلس الشاب بعيداً عنها فسدل حجاب الصمت على المجلس ومن فيه ولعل هذا ما ساعد فريداً على التفكر فأطرق كأنه

وحده في تلك الغرفة ولا شك انه كان ينظر بعين فكره قلب فريدة امامه و يسمع ضرباته الشديدة المزعجة ·

ولم يكن احد في المجلس اكثر تأثرًا من حبيب الذي صعد دم الغيرة حـارًا الى اوداجه ولكنه اراد تحويل افكار الموجودين عن هذه النقطة فقام الى المائدة الموجودة في الوسط وتناول صينية فضية فوضع عليها اقداحاً من المشروب ودار بها على الحضور وهو يضحك و يظهر الفرح والحبور نكاية في الفتى وتحويلاً لافكار الناس

وكان البرت بك ينظر في وجهي ،، فريد وفريدة " فيتعجب كيف ان قواهما لم تخنهما بعد لان الاثنين كانا في اخر درجات الشعور واليأس

ان معركة دموية كانت تجري في افكار فريد الان فمن يقدر ان يتصورها ؟

ان والديه شعرا بها اما فريدة فقد كانت تسارقه النظرات وتعرف ماذا تجري في ظلام ذلك الصدر الذي لا تقدر ان تضيئه نظراتها فودت لو ان الارض تفتح فاها وتبتلعها او لو ان فريدًا يقتلها و يغمض عينيها عن منظره وهو بتلك الحالة وفي تلك الساعة فقط عرفت ماذا فعلت اذ كانت بدأت ان تعرف خانتها قواها ووهن قلبها وخارت عزائمها وللحال صرخت صرخة قوية ووقعت الى الارض لا تعي على شي٠

فهنيئاً لك يافريدة لانك اغمضت عينيك عن هذا المنظر المؤلم ولأن والدك القاسي لم يكن حاضراً فيرى ابتسامات الهزء على شفاه البعض امامك وجمل التوبيخ في افواههم فوق رأسك

وكالنمر الضاري هجم حبيب على زوجته فاحتملها الى غرفتها وهو يسب الدين ويلعن ويشتم وكانت الضجة قد اختلطت الان فاقترب جرجس ووديعة من ولدهما الذي كان جالساً في هذه الضجة كمن فقد رشده وحراكه معاً وفي هذا الوقت اقترب منه البرت بك فمسك بذراعيه ومشى به بدون ان يبدي ادنى اعتراض ولما اصبحا خارجاً نظر الى والديه وقال :

— اسمحا لي ان اذهب بولدكما مسافة قصيرة لانني احب مكالمته ٠

فنظرا اليه نظرة الشكر وذهبا الى بيتهما والبرت بك وفريد في طريقهما

وهكذا فان اكثر الحاضرين نظروا الى فريدة بعين الواجب واغمضوا دونها عين الشعور فظلموها باعتقاداتهم — وهي من كل احد وعلى كل حال مظلومة

بعد عدة دقائق رجع للعروس رشدها فاحست انها ملقاة على صدر فيه قلب يخفق واذ كانت لم تزل مفتكرة بفريد — وبفريد وحده — فتحت عينيها بسرعة فرأت رأسها فوق صدر عريسها وعيناه تقدحان شرر الغضب والانتقام فرفعت رأسها

عن صدره ساكتة والقته على الوسادة وغطت عينيها بيديها لتمنع عنهما هذا المشهد ٠

فهل قدرت ؟

الفصل الخامس عشر

على ابواب الصداقة الابدية

على هذه الصورة المزعجة انتهت تلك الحفلة الشائقة وبمثل هذا سدل ستار الشعور والتأثر القلبي على بهجة العرس الظالم فانفرط عقد المدعوين وهم بين راحم وظالم ومتأسف وشامت وعاذل وعاذر

فلنترك فريدة بعد ان ترك زوجها غرفتها على فراش تبلله بدموعها وزوجها على كرسي بتلك الغرفة التي مثلت فيها هذه الفاجعة وبقية من الاصدقاء حوله يسلونه و يطيبون خاطره وهو يتوعد و يتهدد بانه سوف ينتقم منها ومنه على هذا العار الذي جلبته على صيته

ونرجع لألبرت بك وفريد فان هذا كان يتبع ذاك لجهة المستشفي بدون كلام وافكاره لم تزل في تلك القاعة التي تركها على غير هدى

ولما تجاوز الاثنان ذلك المعهد الخيري العظيم بعدة اذرع انحدرا قليلاً نحو خروبة قديمة بقرب بيت فريد وفريدة وهي قائمة بوسط ارض مزروعة بالقمح وتحتها صخر عالٍ جلسا عليه وبعد مضي بضع ثوان ثاب الى فريد رشده فقال لرفيقه مستغرباً :

— لماذا اتينا الى هنا يا سيدي ؟

فأجابه البرت بك باخلاص ظاهر من لهجته :

— لانني خشيت من حدوث امر ذي بال فاردت ابعادك عن محل الحادثة الى ان يثوب اليك رشدك ويهدأ بركان جزعك .

فاصعد الفتى زفرة كادت تشق صدره حين خروجها منه وقال بصوت منخفض .

ومع ذلك انت لا تعرفني ؟

قال البك : ومن قال لك ذلك ؟ انني اعرفك ليس من اليوم فقط بل من قبل ايضاً — انني اعرفك كما تعرف حالك تمامـاً .

— انت يا سيدي ؟

— نعم انا .

فنظر فريد فيه نظرة طويلة وقال له :

— لم يكن لي الشرف بمعرفتك قبل اليوم وقد ظننا انك غريب ولست عمشيتياً كما يظهر من لهجتك .

— انا كذلك يا عزيزي واسمي البرت ولكن ماذا يهم امر حسبي ونسبي ونشي فانني صديقك منذ الساعة وانا اشعر بجاذب في قلبي نحوك لا اعرف سببه

فقال فريد بحزن — الف شكر لك يا سيدي ولكن اين رأيتني قبل اليوم ؟

فقال البرت بصوت يذوب رقة وتأثراً :

— هل تذكر اذ كنت ترجح العروس تحت تلك السنديانة في يوم السبت الاسبق ؟

فتنهد فريد واومأ برأسه قائلاً :

— نعم اذكر ذلك .

— وهل تذكر ايضاً مرور عربة من امامكما فيها رجلان اذ كانت الفتاة تناديك مشتغيثة لكي تنزلها ؟

— آه نعم اذكر ذلك ايضاً وهل اقدر ان انساه ؟

— انا كنت احد الرجلين اللذين كانا في العربة وقد تكلمنا ملياً بشأنكما لاننا رأينا كما شبه بلبلين تصدحان بالحان الحب في روضة الحياة وكأن كلام رفيقي عن الفتاة كان نبوءة لانه ادهشنا جمالها وتمنينا لو خلصت من ايدي الظلم التي تضغط على اعناق فتيات هذا الوطن التعس بكل ما فيه ولا سيما نسائه

فبكى الفتى حالاً من تأثره ولم يخجل من رفيقه ثم قال بجسرة :

ـ ان فريدة يا سيدي فعلت كما كان يفعل عبدة الاوثان في الدهور المظلمة اذ كانوا يقربون الضحايا البشرية اكراماً للعجول الجمادية وهي قد ضحت حياتها وحياتي على مذبح ظلم والدها ـ فآه منها

فقال البرت بك بقصد تعزيته :

ـ لا تحقد على الفتاة ياعزيزي لان قصدها كان حسناً وهي لا تلام لصغر سنها لانها اطاعت والدها

اجاب بحدة : ولكن الا تعلم ياسيدي انها جلبت بهذه الطاعة عوض البركة لعنة دائمة على حياتها وحياتي وربما حياة والدها وذاك الوحش البشري الذي تدعوه زوجها ؟

ـ ولماذا لم تختطفها قبل زواجها وتخلصها من يد الظلم ؟

ـ لو فعلت ذلك لكنت اذنبت اليها وكسرت عواطفها وهب انني كنت اتخذت هذا الدواء الاخير فأنى لي ذلك وقد كنت طريح الفراش لا علم لي بشيء مما جرى ؟

فقال البرت بك بشعور :

ـ مسكينة هذه الفتاة انها ضحت سعادتها لاجل شرفها

فقال فريد متأسفاً :

ـ نعم كما ظنت هي ـ لانها جبانة ولا استقلال لها

فقال البك . لا تنحِ عليها باللائمة ياعزيزي لانها فتاة وقعت بين شرين فظنت انها اختارت الاهون وهل تلام فتاة في

سنها اذا لم تكن مستقلة والمرأة في وطننا على ما هي عليه من الاستعباد والذل ؟ فهي مظلومة وظالمها والدها التي هي وديعة عنده وكان يجب ان يعرف كيف يصونها

فهزّ فريد رأسه قائلاً :

— وهب ان قسماً من اولئك الوالدين لا يعرفون الواجب وقسماً اخر يعرفه ولا يعمل به ؟

— فعلى الحكومة والكنيسة والهيئة الاجتماعية ردعهم . لان الانسان الذي له حق بقتل حيوان ضارٍ لانه مضر ومفترس له حق بمقاصة والد يفعل اكثر من الحيوان بظلم اولاده

فتأوه الغلام من نفس حرّى وقال :

— ان الجريمة التي تسلم فيها الشريعة والكنيسة لهي جريمة يسهل على كل احد محاربتها ومنع وقوعها على رأس البريء ولكن الحالة بعكس ذلك متى كانت الجريمة واقعة والرأي العام والسلطتان الدينية والمدنية لا تسلمان بها وتحسبانها ليس فقط „لا تستحق القصاص" بل „ واجبة وضرورية " كما هي الحالة باجبار الوالدين اولادهم على الزواج بمن لا يريدونه واضطرار الاولاد للطاعة فمن تطلب خلاص فريدة وامثالها من مظلومات النساء يامولاي ؟ امن ممثل الكنيسة وهو الذي ساعد على قتل قلبها بان رفع يده الظالمة فوق رأسها وهي فتاة غير مدركة تصرخ وتستغيث ولا من مجيب ؟ ام من البشر واكثرهم

يعتقد ان الامر جائز وصالح ,, والدارج ما هو خارج " كما يقولون لك ؟

فغداً ان بقيت هنا تسمع ذم المسكينة من كل الافواه لان عواطفها خانتها فاغمي عليها وهم يريدونها من جماد لا تشعر وسوف لا تجد من يرحما الا القليلين وهوءلاء لا يجاهرون بنصرتها خوفاً من نقمة الراي العام اذا لم يشاركوا الاكثرية باللوم والتعنيف اما انا فألعن نفسي الف مرة لانني كنت سبب هذه الامور التي جرت لها — انا الذي كان يجب ان اكون سبب اسعادها فقط

وعندما وصل فريد الى هذا الحدّ اخذ صدره يهبط ويعلو من التأثر العميق فرق البرت بك لحاله وعجب من فصاحته وشرف نفسه ثم اجابه :

— خفف عنك ياصديقي فاننا نحن الرجال قد خلقنا لنقوّي ضعف النساء فلا يجمل بنا السقوط معهن تحت اعباء المصائب ثم انه من الجريمة والجبانة معاً ان تقتل نفسك هماً وكدا على حالتك وحالة حبيبك التي لا ينفع معها الا الصبر الان فان فريدة تحتاج الى قوتك لا الى ضعفك يافريد ياصديقي !

فابرقت عينا فريد حباً اذ قال :

— ان بقية مالي من القوة لاجل خدمة فريدة وحدها

اجاب البرت بك بلطف :

ــ هذا ما اعرفه فان الرجل الشريف متى احب يضحي حتى حياته لاجل من يحب ولا منة بالحب قطعاً لانه يسهل عقبات كل طرق المحب نحو حبيبه ــ لكن فريدة قد تزوجت الان ياعزيزي .

فابتسم فريد قائلاً ــ هذا ما عرفته و ياليتني مت قبل ذلك ولكن ماذا يهم ياسيدي هذا الامر وانا اترك عمشيت في الاسبوع القادم لانني احافظ على شرف حبيبتي لاخر نقطة من دمي ولأن بعدي عنها اوفق لها من قربي منها ــ انها صغيرة السن وتقدر ان تسلوني اما انا ؟!

فقال البرت بك بحزن عميق :

ــ والى اين يكون ذهابك ايها العزيز ؟

ــ الى الكلية الامريكية في بيروت لانني ارغب في تتميم علومي وتلقن علم الفقه وبعد ذلك يكون لكل مقام مقال

هنا نهض البرت بك من مكانه وامسك بذراع فريد فانهضه ايضاً واذ وقف الشاب والغلام متقابلين قال الثاني للاول بوداد :

ــ انني احبك يافريد حباً ممزوجاً بالاسف على مصيبتك في غرامك وحبي هذا يدعوني للقلق عليك فهل تعدني بانك تكون ,, رجلاً ‘‘ ولا تذبل زهرة حياتك بالهم او تدع للهوى سبيلا لجرك الى جريمة حبية ؟ هل تعدني بذلك ؟

فابتسم الفتى حزناً وقال :

ـ لو كنت جباناً ياسيدي لما كنت خرجت من تلك الغرفة التي اخرجتني منها حياً فقد مرت عليّ اعظم التجارب في الحب امامك ورأيت كيف كانت شجاعتي باحتمالها ـ انني لفريدة ولوالديّ فلا افعل ما يوءذيهم

فوضع البك يده على كتف رفيقه قائلاً باعجاب :

ـ انت شريف ياصديقي الصغير بل انت نابغة ومتى وصلت الى ذروة مجدك العقلي فاذكر كلامي هذا اما اخلاصي لك فهو يرافقك في كل اطوار حياتك

وبعد ان قال هذا الكلام مدّ يده الى جيبه واخرج منها علبة من العاج محفورة باليد واخرج منها بطاقة عليها اسمه وعنوانه وناولها لفريد

فلما قرأها هذا احنى رأسه احتراماً وقال :

ـ لي الشرف بصداقتك ياسيدي البك

ـ هذا لسان حالي ياعزيزي

عندئذٍ مشى الرفيقان صُعُداً الى ان بلغا المستشفى فنظر البرت بك الى تلك البناية الشامخة وقال لفريد :

ـ.. دع قوتك كقوة هذه البناية حتى لاتوءثر بك عواصف المصائب

اجاب هذا بجسرة ـ

— سوف اطبق كتاب حياتي الماضية وافتح مجلداً آخر لا أقرأ فيه سوى حبي لوطني وخدمتي لبلادي بما فيّ من القوة

الفصل السادس عشر

اول درجة من سلّم الاختبار

لبثت فريدة في غرفتها طول ذلك النهار بدون طعام او شراب وقد اوصدت بابها في وجه كل انسان حتى زوجها الذي كان حاقداً عليها يطلب الانتقام منها

وسري حديث العروس في البلدة سريان البرق فكان سَمَر القصور الشاهقة والبيوت الحقيرة٠ انقسم الناس بكلامهم عنها الى قسمين فكان القسم المتنور العادل معها والذي دونه تمدناً وعلماً وفضلاً عليها وعذر الاول لها انها فتاة صغيرة السن ومحبة ومظلومة ولا قدرة لها على امتلاك عواطفها التي خانتها اما القسم الثاني فمع عدم انكاره ما تقدم من الاسباب الموجبة لعمل الفتاة كان يحتم عليها ان تظهر من الضعف قوة ومن الشعور جموداً وان تذعن لأحكام الظلم مهما كان قاسياً كأنهم يحسبونها من طبيعة ملائكية — وما كانوا ليحكموا على نفوسهم كذلك ٠

عرف القسم الاول ظلم فريدة وتأسفوا على وقوعه ولكن

بعد ذلك الوقوع وبالكلام فقط لو ناب الفعل مناب القول وجاء بوقته لكان قليلٌ من الاهتمام يمنع وقوعه .

واكثر الناس تأثراً مما جرى لفريدة هو والدها الذي حينما بلغه خبر اغمائها جاء بيتها وقصد ان يكسر باب غرفتها ليدخل اليها ,, ويخطف روحها '' فلم تفتحه هي ولم يمكنه الحاضرون من الدخول وأبعدوه عن الباب وهو يصيح ويشتم بصوت مرتفع قائلاً :

— لعنة الله عليك يا ابنتي . غضب قديسيه يحل على رأسك . مريم العذراء تخنقك ياشقية . ياخائنة . اين بقيت اقدر ان اضع شيبتي . كيف عدت اقدر على الظهور بين الناس من جراء عارك وذلك .

فاعجب لتأثير هذا الرجل من شيء طبيعي وقع رغماً عنها مع انه لم يكترث قط بتأثرها هي حينما ظلمها ؟ فلماذا لا يعدل الانسان الا مع نفسه ؟

مسكينة فريدة انهم ارادوا الانتقام منها وكان الاحرى بهم ان ينتقموا من الله خالقها لانه خلق لها قلباً يحب وعواطف تتأثر ومن نفوسهم لانهم بكل جور قتلوا هذا القلب وخنقوا ازهار تلك العواطف بأشواك الظلم

سمعت صديقة فريدة الحميمة سوسن بخبر اغمائها الاخير فتفطر قلبها وكانت لحد تلك الساعة لم تشاهد فريدة وضميرها

يحاربها دائماً بانها ربما كانت أضرتها وخانتها بعدم تسليم رسالتها الى فريد ولكن حبها لصديقتها غاب حبها لنفسها فهرولت اليها وهي لا تبالي بما يكون قصاصها لها

فلما قرعت باب غرفتها واسمعتها صوتها اسرعت فريدة لفتح الباب وهي تذوب شوقاً الى روءيتها ولا تذكر اساءتها فتعانقت الفتاتان هنيهة تصب بها كل منهما دموعها الحارة على كتف الاخرى وكانت اول من رفعت رأسها فريدة التي قالت بحزن

ـ ما الذي ابعدك عني كل هذه المدة ياقاسية ؟ انك اخلفت وعدك ولم ترجعي الي في اشد اوقات احتياجي اليك ٠

فجثت سوسن امام رفيقتها ورفعت اليها نظر التوسل قائلة :

ـ ارحميني يا اختي واصفحي عن ذنبي انني قصدت خيرك فحدث عن الخير شر ثم سردت عليها قصتها وماذا حدث لها بعد ان تركتها فتنهدت هذه وقلت :

ـ لا بأس ياحبيبتي كله بامر الله ٠ ولكن هل سمعت بخبر عاري الاخير ؟

فمسحت سوسن دموعها المتساقطة وقالت لها :

ـ لا تقولي ذلك يااختي ٠ فانت اشرف من ان تأتي عاراً وشواعر الفضلاء هي معك ٠

فاجابت بحسرة :

ـ ان المصيبة التي اصابتني موءخراً ابعدت كل احد عني

وتركتني فريدة وحيدة لو لاك ـ هوذا والدي غاضب علي وزوجي يريد الانتقام مني والناس تلومني وتعيرّني وليس لي الاك ٠

فرجعت سوسن الى الشهيق وقالت لها باخلاص :

ـ انى بكليتي لك ـ انني افديك بأعزّ مالي

وبعد ان هدأ روع الفتاتين شيئاً تربعتا على الارض وطوقت كل واحدة منهما الاخرى بذراعيها كانما انفردتا بهذا العالم وحدهما فقالت سوسن :

ـ والان ماذا تريدين ان تفعلي ؟

ـ انني لا اعلم شيئاً فأمديني برأيك ٠

ـ الا تظنين ان الاوفق خروجك الى والدك وزوجك وطلب الصفح منهما ؟

فانتفضت فريدة قائلة :

ـ انا لا اعد نفسي مذنبة بشيء ياسوسن وقد كان يجب عليهما على الاقل ملاطفتي ووضع بلسم الشفقة على جروح قلبي بعد ان اوجداها بظلمهما فماذا فعلت انا الا انني نظرت الى وجه فريد اليائس الحزين فخانتني نبضات قلبي واغمي علي أأعدّ مذنبة ؟ هل انا خلقت هذا القلب المحب ؟ وهل في امكاني نزع حب فريد منه ؟ فلماذا جعلوا ما حلله الله محرماً علي ؟ لماذا لم يتركوني اتحد بمن احببته واحبني و يريحوني من كل هذه الاضطرابات ؟ ـــ انهما ظلماني يااختي وهما المذنبان ولست انا

ـ انا اعرف ذلك ياعزيزتي ولكن اذا كان الحقد ارضيا فالصفح سماوي واذا اعتذرت تجبر ينهما على الاعتذار

ـ انني لست حاقدة عليهما ولكنني لا اجعل نفسي مذنبة فاعتذر .

ففكرت سوسن هنيهة وقالت لها :

ـ وماذا تفعلين الان ؟

ـ ابقى هنا الى ان يقضي الله امراً كان مفعولاً

ـ وبماذا اساعدك انا ؟

ـ تساعدينني ببقائك معي الى ان يفتح الله باب فرج جديد

فطوقت سوسن عنق فريدة بذراعيها ورشت على وجهها مطر القبلات ممزوجة بالدموع ثم قالت :

ـ انا منذ الان رفيقتك وسوف اترك الدير لاجلك واكون معك الى الابد



الفصل السابع عشر

اولى التضحيات

بينما فريدة وسوسن في غرفتهما تتناجيان كانت عربة واقفة امام بيت جرجس وداخلها البرت بك وامامها فريد واقف يخاطبه فقال الاول للثاني :

— انني جئت لوداعك الان ياصديقي ورجائي المكرر اليك ، ان تعتني بنفسك الى ان اراك قريباً

فقال فريد بحزن :

— انا اعدك بانني اسمع نصيحتك بشكر واقبلها بامتنان وساكون في الكلية في اواخر هذا الاسبوع

فمدّ البرت بك يده وصافح فريداً قائلاً :

— لا تنسَ ان تكتب الي دائماً

— هذا ما اعدّه اول واجباتي ياسيدي .

— الوداع الى الملتقى

— الوداع ياسيدي وبحراسة الله .

ثم درجت العربة والبرت بك لم يزل مطلاً برأسه ينظر الى صديقه الفتى وهو واقفٌ يتبعه نظره بحزن ويأس . الى ان غاب احدهما عن نظر الآخر اذ ذاك استوى البرت بك في

العربة واخذ يقول لنفسه :

هل يقدر ان يصدق الانسان الحرّ الشريف بماجريات هذا الكون الفاسدة لو لم يكن ينظرها بعينه و يسمعها باذنه؟ هل اصدق ان ذلك الرجل باع ابنته الوحيدة الجميلة رغماً عنها لرجل مسن قبيح ؟ هل اصدق انه بادل على حياتها الثمينة بقطع ذهبية براقة وهو انما يعيش لا جلها ؟ هل اصدق ان ذلك الكاهن الذي اوصاه سيده قائلاً : ,, ارعَ نعاجي '' هو هو نفسه يسلم احدى تلك النعاج الرخصة الى الذئب ؟ وهل اصدق ان فتاة بسن فريدة وحبها منحت سعادتها بذلك الحب وحياتها ذاتها اعتقاداً منها انها ,, تقوم بواجب مقدس '' مع ان من ضحّت لاجلهم ضحوها هي مع ذلك الواجب المقدس اشباعاً لشهواتهم ؟

وهل اصدق ان النعاج تساكن الذئاب في حظيرة واحدة في بلادنا هذه ؟ فاين هي شريعة الحكومة العادلة تحمي البنت من ظلم اهلها قبل بلوغها سن الرشد ؟ اين هي شريعة الكنيسة ترف فوقها بجناحي الشفقة والرحمة وتنتشلها من براثن الجور وترى لها ما لا تقدر ان تراه هي لنفسها :

ثم رجع فضحك لذاته ضحكة قوية سمعها الحوذي فالتفت وراءه ثم حوّل وجهه وابتسم كأنه يظن ذلك الرجل مجنونا — كلا انه لم يكن مجنوناً ولكن اضحكه كلامه الاول فقال ما يلي

لنفسه ايضاً :

ولكن اذا كانت حكومتنا رعاهـا الله تعبث بأهم الامور فهل تراها تهتم بالمهم منها وما هو شأن المرأة في وطننا ليسن لها نظام عادل. أهي غير متاع ليباع ويشرى ويطرح في سوق المزاد فيحصل عليه الاكثر مالاً ... والكنيسة ـــ الكنيسة التي وجدت اماً لتابعيها تنشر ممثليها الذين تدعوهم رعاة القطيع المؤمن فيكونون ذئاباً اما ان تخطف نعاجه بانفسها واما ان تساعد الغير على خطفها

فمتى تقف كل من هاتين الهيئتين الحاكمتين في الجبل عند حدود واجباتها الخصوصية وحدها ؟ متى تصلح داخلية كل منهما اما بنفسها واما بواسطة الغير فلا يعود الشعب اللبناني كرة تلعبان فيه وترميه كل واحدة منهما للاخرى ومتى يصير الشعب اللبناني عارفاً حقوقه فيجتمع قوة تحميه من كل منهما اذا ظلتا على حالتها لا تحميانه من الظلم لانهما مصدره نحوه

هذه كانت مناجاة البرت بك لنفسه وهو ذاهب الى مقره في اسكلة جونيه . اما فريد فقد ابتدأ منذ ذلك اليوم هو ووالداه بالتأهب للسفر في آخر ذلك الاسبوع لان اباه وامه لم يطيقا البقاء في عمشيت بعد ان هرب هو منها هرباً فعزما على السكن في بيروت ليكونا قريبين منه

وفي صباح الاحد من ذلك الاسبوع كان فريد قد فرغ

من اعداد ما يلزمه واصبح مهيئاً للسفر فاحب ان يودع اعز من لديه في مسقط رأسه قبل ان يغادرها ففكر في الامر بضع ساعات ووضع المواجب والشوق في كفتي ميزان فرجح الاول على الاخير فعدل عن السعي الى مواجهة فريدة لئلا يسبب انزعاجها وربما الضرر لها · وعزم على مشاهدة سوسن وارسال كلمة الوداع الى الحبيبة معها ·

مسكين فريد انه لصغر سنه اذ ذاك كان يحسب انه بابتعاده عن فريدة يسلوها وتسلوه ولم يكن يعرف ان البعد يزيل الحب الضعيف من القلب ويزيد القوي قوة وثباتا لانه محك المحبة الحقيقية ·

الفصل الثامن عشر

رسالة الوداع

مساء ذلك اليوم الاحد كان المار على شعبة طريق العربات الخصوصية الممتدة من المستشفى الى طريق البلدة الاصلية يرى في ظل حائط الى جانبها بين المستشفى وآخر البيوت شبحاً واقفاً وعيناه تكاذان تطيران من وجهه تلفتاً نحو شخص فتاة جميلة قادمة اليه من جهة البلدة فاذ رآها اسرعت نبضات قلبه واصطكت ركبتاه وندي جبينه بعرق الانزعاج فتناول منديله ومسحه

كان الشيخ فريدًا وقد تربص لانتظار سوسن التي عرف بذهابها الى البلدة وكان بانتظار رجوعها منها فلما دنت منه وهي مطرقة ناداها باسمها فبغتت ونظرت لجهة الصوت فوجدت فريدًا واقفاً بقلق واضطراب فقالت له بلطف :

— مساء الخير يافريد انك ارعبتني

فخطا الغلام من مكانه واتى اليها حتى حاذاها فقال :

— اسعد الله مساآك ياعزيزتي دعينا نمشي ونتكلم لان لي حديثاً معك .

فنظرت الفتاة حولها واذ رأت الطريق خالية من الناس مشت بقدم مضطربة لئلا يراها احد لاسيما والشمس كانت قد مالت الى الغروب الان والظلام يرخي سدوله على وجه الارض ولما خطوا بضع خطوات قال فريد بلهفة :

— كيف حال فريدة ؟

فتنهدت وقالت : انت ادرى بحالها مني لانك مما عندك تعرف ما عندها

فقال متأثرًا : — الا تزال متأثرة من جرآء الحادثة الاخيرة ؟

— انها لا تزال سجينة غرفتها ولا تخاطب احدًا ولا تذوق من الطعام الا قليلاً

فقال مدهوشاً : سجينة غرفتها ؟ ومن ذا ساجن لها ؟

— هي قد سجنت نفسها لان حرقة قلبها بالغة الحد الاخير

فقال مستخبراً : اظنها متكدرة من نفسها لما اصابها

فنظرت فيه سوسن وقالت بجدة :

— انها نسيت نفسها بالكلية وكدرها هو على عذابك وحزنك .

وكأن فريد لم يكن على ثقة بوصول حب فريدة له الى الحد الذي ينسى فيه المحب نفسه اكراما لحبيبه (والرجال يحتكرون هذه الفضيلة الحبية لنفوسهم)

فلما سمع كلام سوسن فرح في داخله كما يفرح كل حبيب مخلص اذا رأى اخلاص من يحب له الذي يحمله على العذاب لاجله ومع ان عذاب فريدة لاجله كان يعذبه فقد كان يسليه ايضاً فنظر الى سوسن قائلاً :

— هل اخبرتك فريدة عن سبب اغمائها في الاحد الماضي ؟

فابتسمت سوسن وهزت برأسها قائلة :

— وهل تجهل انت السبب — ان تجاهلك يعجبني

— وهل تظنين احداً قادراً على معرفة قلب المرأة وهو كالحرباء كثير التلون

— ليس مثلك من يضع كل النساء بدرجة واحدة فان فريدة اقوى النساء واثبتهن

فابتسم وقال متهكماً :

— واكبر برهان على قوتها هو طاعتها لوالدها في امر زواجها.

فقالت الفتاة بصوت مرتفع ملوءه التحسر:

— ارحمها يافريد ارحمها فيكفيها ما بها من ظلم والدها لها

— لم يكن من حاجة لهذه الرحمة لو لم تكن سلمت نفسها على تلك الصورة او لو كنت انت سلمتني تلك الرسالة

فقالت الفتاة بأسف :

— يكفيني ما بي من تعذيب الضمير يافريد فانا لم اسلمك الرسالة الاّ شفقة عليك اذ وجدتك مريضاً فاصفح عن ذنبي الغير مقصود . اما فريدة فارحمها يرحمك الله لانها سلمت نفسها مرغمة وهي ضعيفة امام قوة والدها . ان آمالها كلها معقودة عليك فلا تخيب بك آمالها

فهزّ فريد رأسه وقال متمرمراً :

— ان سلاح المرأة ضعفها ودموعها . فهل نحن ملائكة ياصديقتي نعيش في السماء ام بشر نعيش على وجه الارض ؟ اننا بشر مركبون من لحم ودم يشعران اما وقد شاءت فريدة قتل نفسها ونفسي فليكن ما شاءت والان قصدت مقابلتك لامر خطير هو ان تبلغيها تفانيّ في سبيل سعادتها الذي يدعوني لمغادرة بلدتي وبيتي الى الابد لاجل راحتها لانني بعد ان لقيت ما اصابها في الاحد الماضي عرفت ان وجودي معها في بلدة

واحدة يزعجها فقولي لها انه سوف يذهب الى مكان لا يراك فيه الا بعين الروح و يحبك به الى الابد ·

فنظرت سوسن بوجهه الشاحب وقالت بحزن :

— وهل صممت ان لا ترجع لعمشيت يافريد ؟

— ليس الان ·

فتنهدت قائلة : مسكينة انت يافريدة ما اشقاك فكيف اقدر ان احمل هذا الخبر اليها انا التي احبها اكثر من كل بشر ؟

اجاب الشاب بهدوء : اجتهدي ان تسليها وعلميها سلوّــي وقولي لها انها هي وضعت على قلبي هذا الواجب المقدس وساحاول القيام به بكل امانة

— ولكن ما يمنعك عن البقاء هنا ؟ فانك عون كبير لها ومجرد وجودك قريباً منها يساعدها بحمل صليبها وان لم تركَ · فهل من جريمة ببقائك ؟

— لا جريمة عند الله وعندك وعندي ولكن ذهابي اوفق من بقائي لها ولي فلماذا اعذبها بوجودي واكون في طريق سعادتها ؟ انها ليست لي الا بروحها الان وانا لها بالروح سواء بعدت ام قربت فلربما كان قربي سبب ايغار صدر زوجها من الناس الذين لا يفهمون الحب الروحي ولا يصدقون وجوده لانهم يحكمون على الناس بحسب نفوسهم ·

فقالت بيأس : ومتى يكون ذهابك ؟

قال الشاب بحزن : من الليلة او صباح الغد فاوصيها ان تكون سعيدة بعد ان ذهبت من طريق حياتها

فرفعت سوسن يدها الى عينيها لتمسح دمعتين كاللوءلوءتين وقالت له موبخة :

— كفى كفى . تهكماً عليها يافريد ! ان فريدة بدأت تشعر بمصيبتها وسوف تكون حياتها بعد ذهابك جحيماً ارضياً

وكانا قد وصلا الان الى الطريق التي تأخذها سوسن لبيت فريدة الذي لم يكن يبعد سوى بضع اذرع فوقف فريد وقال للفتاة :

— انا لست متهكماً ايتها العزيزة ولكن قلبي يضطرم بنار الحب والشوق فاعذري واعلمي ان فريدة سببت لي كل هذا ,, بقداستها ‘‘ وجهلها فأواه يافريدة ياقاسية !

وهنا خفض صوته لانه قال الجملة الاخيرة وهو ينظر نحو بيتها .

فاصعدت سوسن زفرة وقالت :

— ان والدها ظلمها سامحه الله .

فهز فريد رأسه من جمالتها وقال بحدة وغضب :

— قبل ان يقع علينا الظلم نقول ,, لمجد الله ‘‘ وبعد ان يقع نقول ,, سامحهم الله ‘‘ فهل الله يريد ان يظلم البشر بعضهم بعضاً ؟ ما هذا الجهل . ما هذه الغباوة . ما هذا الخمول

والذل فيكن انتن النساء · فهل تحسبن انفسكن مخلوقات من الله لكي يتمرّن الظالمون على فن الظلم بكن ؟ فانا لا اقول ,, سامحه الله ،، لان الله لا يسامح القاتل ما لم يردّ روح المقتول — وهل يقدر على ذلك ؟ اذن جازاه الله وجعله عبرة لسواه من الوالدين اما انا فيجب ان اتمم ما نويته الان وكل ما اطلبه منك ان تسلي فريدة بصداقتك وتذكري لها حبي لانني اخاف ان يزول من قلبها قبل ان تصبح بعمر تقدره فيه قدره

— الا ترغب في مشاهدتها وتوديعها قبل سفرك ؟

فقال متنهداً : ان حياتي ذاتها تعدّ ثمناً بخساً على هذه المشاهدة ولكن ما الفائدة ؟ اغير تجديد عذاباتها ؟ يجب ان اتمم التضحية بشجاعة ·

فغطت سوسن عينيها بيديها وبكت وقالت :

— اواه ايتها الحبيبة كيف اكون انا هادمة أسس سعادتك بهذا الخبر المؤلم المميت كلا · كلا · انني لا احمله اليها فارسله مع غيري ·

— هذا مستحيل ياسوسن لانك انت وحدك التي تؤتمنين على هذا السرّ المقدس — حاولي ان تسليها ولا تنسي ان تذكري لها اسمي دائماً اذا هي نسيته اما الان فالوداع الى الملتقى ·

قال فريد كلامه الاخير بصوت متهدج والدموع تكاد تخنقه ومد

للفتاة يده اليمنى واخذ باليسرى منديله ومسح دموعه فصافحت هذه يده وهي تشهق وتشرق بدموعها وتقول :

— رافقتك السلامة يافريد واجزل الله اجرك وساعد فريدة التاعسة على احتمال فراقك المذيب

الفصل التاسع عشر

القلب الغالي في ماء بارد

وقف فريد يلاحظ سوسن وهي راجعة لبيت فريدة فلما رآها داخلة قفل راجعاً وفي قلبه نار آكلة فقال في نفسه بصوت مسموع قليلاً حينما ادار وجهه عن ذلك البيت

— ياايها البيت الجهنمي · ياايتها القلعة الواهية لان تعي جواهر الحياة — ياايها القفص الذهبي الذي سجنت فيك حسونة الجمال الابدي ظالماً والسجن المظلم الذي ترف فوقك روحي دائماً سلط الله عليك خراباً مدمراً ·

ثم وعى لما قال من يأسه فلام نفسه ولكنه لم يقدم وتابع مسيره الى بيته في ظلام الليل ·

اما سوسن فقد دخلت غرفة فريدة فوجدتها تقرأ كتابا امام النافذة ولما شاهدتها هذه لحظت على وجهها حالاً آثار الشحوب والهمّ وفي عينيها آثار الدمع فوضعت كتابها على مائدة صغيرة امامها وقامت الى صديقتها تتفرس فيها بانتباه اما سوسن فاذ

رأتها تفجرت ينابيع دموعها واخذت في الشهيق ورأسها فوق يديها ·

فاقتربت فريدة منها لترفعه ولتستخبر عما بها فكان جواب سوسن الوحيد هذه الجملة

ــ لا اقدر ان اخبرك ــ لا اقدر ان اخبرك ·

فقالت فريدة باضطراب · ماذا حل بك ياحبيبتي ؟ هل بلغك خبر موت احد من اهلك ؟ ماذا اصابك · انك تقطعين قلبي وتزيدين مصابي وحزني

فتنهدت سوسن قائلة :

ــ ليس بكائي على نفسي بل عليك انت

ــ عليَّ انا ؟ ــ ماذا يبكيك علي !

فلم تر سوسن بدًا من سرد قصتها على مسامع فريدة بين التأوه والبكاء والحسرة كل ذلك وهذه جامدة كأنها فقدت شعورها بالكلية ولما انتهت سوسن من سرد قصة فريد لبثت فريدة جامدة تنظر في الارض ورفيقتها تنظر بها وهي متعجبة من سكوتها فساد سكون ولا سكون الموت على الفتاتين هنيهة كان اول من مزق حجابه فريدة التي مشت بقدم ثابتة الى النافذة البحرية المطلة على بيت فريد فوقفت امامها بضع ثوان ثم رجعت منها وارتمت على سريرها بوهن زائد وفرقت شفتيها عن كلمتين هما :

— رافقتهم السلامة

ثم اغمضت عينيها ولم تعد تفتحهما كل ذلك الليل وسوسن جالسة على الكرسي امامها تنظر فيها بذهول ولبثت في مكانها الى ان مضى الهزيع الاول من الليل فادركها النعاس اذ ذاك وتمددت على طنفسة بجانب سرير فريدة ونامت الى الصباح

بزغ فجر اليوم الثاني على فريدة وهي رائقة مطمئنة كما يروق الطقس بعد زوال الزوبعة الشديدة ففتحت عينيها وصلت صلاة الصبح ونهضت من سريرها فارتدت ثيابها بدون كلام ثم ذهبت الى تلك النافذة ونظرت منها نظرة طويلة كأنها «تقدمة» لصلاتها وعادت الى رفيقتها وهي تتنهد وتقول :

— اظنهم قد سافروا لان ابواب ونوافذ بيتهم كلها مقفلة — فأواه كيف ارخى الظلام سدوله على ذلك البيت فلم يعد يخرج منه النور

فلم تجب سوسن على كلامها اما هي فأستأنفت قائلة :

— ان ذلك خير له وابقى

عندئذٍ اعيا سوسن السكوت فاجابتها !

— ان امرك حيرني فليس هذا ما كنت اظنه منك .

فهزت فريدة رأسها وقالت بعواطف الاطفال :

— ان ذهابه احسن لنا ياعزيزتي اذ ما هي الفائدة من بقائه غير زيادة العذاب وتسبيب الشكوك ؟ انني في البعد اقدر

على حبه براحة لا اجدها في القرب فسوف نعيش بالروح وهي افضل من الجسد

فسكتت سوسن ولكن داخلها بعض الريب بمحبة فريدة لفريد وقالت لنفسها : ,, لو كان بها ما به لما صبرت على فراقه ولو كان في القرب خسران حياتها ''

ولكن سوسن حكمت على فريدة كما تحكم على ,, كل امرأة تحب '' وهذا هو سبب ظلمنا اكثر البشر بحكمنا على جميعهم بالسواء دون نظر الى تباين اذواقهم ومشاربهم ومبادئهم .

الفصل العشرون

ظريفة والاشبين

وكان ختام الحديث قول سوسن لفريدة :

ـــ هل احضر لك القهوة ؟

فقالت فريدة بهدوء وهي تمشي نحو الباب

ـــ دعينا نذهب لتناولها مع حبيب واخته

وكان حبيب قد طرق باب امرأته مرارًا بعد سجنها نفسها وتوسل اليها تكرارًا ان تفتح له وهو يعدها بانه لا يذكر لها شيئًا وهي لم تفتح اما خوفًا واما كرهًا واما خجلًا لا احد يعلم . عجبت سوسن من ذهابها اليه الان من تلقاء نفسها ولم تفقه لانقلابها السريع معنى ولكنها مشت صامتة وراء فريدة الى ان

أقبلتا على غرفة المائدة حيث كان حبيب جالساً مع اخته ظريفة وفيليب الاشبين فلما رأى حبيب عروسه مقبلة اليهم بسط لها ذراعيه وركض فرحاً فضمها الى صدره وقبلها وهي طرقة كالوردة الذابلة ·

كان حبيب يعرف ان فريدة لا تحبه ولا هي تقدر على حبه ولكنه كان يؤمل الحصول على هذا الحب متى صارت في حوذته وهو من نوع الذين يهمهم الحصول على المحبوب سواء كان بينه وبينه ,, مبادلة قلوب " ام لا فلما رأى من زوجته ذلك الحب لفريد الذي تجسم بقلبها نهار الاحد الماضي احترق فؤاده بنار الغيرة ورام الانتقام منها ولكن بعد ان رأى قوتها على المقاومة عمد الى اللين والعمل بمبدأ الهرة والفأرة

وكان لحبيب هذا اخت عانس غضبت عليها الطبيعة فانتقمت منها بان وهبتها ,, خلاصة القبح " التي في خزائنها فقد كانت طويلة القامة جدًا ونحيفة الجسم ومحدودبة الظهر اما لونها فقد كان حبشياً اي انه اسمر مُشبع وعيناها صغيرتان مدورتان كعيون الهررة تحت جبين عريض نافر وفوق انف كبير وفم اكبر واسنان تفوقهما كبرًا والذي زاد في قبحها ان لون عينيها كان اصفر كلون عيني الهرة تتسع حدقتاهما في الظلام وتضيقان عند قربهما من النور

ولم يكن قبح خَلقها سوى صورة مكبرة لقبح خُلقها وبقدر

ما كان الاول يبعدها عن الانظار كان الثاني ينفر منها القلوب لأن أهل الجمال كانوا يحسبونها ,, شوءماً '' على جمالهم واهل القبح يرون فيها صورة كبيرة لقبحهم فكان هذا نصيبها من الفريقين

وكانت ظريفة قد بلغت الاربعين من عمرها ولم تزل بدون زواج لان الجميل كان يستنكر سحنتها والقبيح يقول اذ يراها ,, ان ما عندي يكفيني فلا ازيد عليه '' فسببت لها العزوبة ضيقاً في الاخلاق لا سيما وهي كانت عصبية المزاج تتأثر لاقل الامور

وكأن هذه المرأة لم ترضَ ببعد الناس الطبيعي عنها فوضعت بينهم وبينها حاجزًا ,, اصطناعياً '' هو الكبرياء . فمع كل ما وصفت بهِ كانت متكبرة منتقدة وذات لسان طويل جعل الناس تخافه اكثر مما تخاف ,, عينها الشريرة ''

وازدادت كبرياؤها بعد رجوعها من امريكا حيث كانت هي واخوها واتت بمال خاصتها لا يقل عن اربعة الآف ليرة ظنت ان هذا المال يشتري لها كل ما تريده من ,, الجمال '' ولكن الحظ لم يكن لطيفاً معها كما كان مع اخيها لحدّ ذلك الوقت .

اما ظريفة هذه واخوها فليسا من اهل عمشيت اصلا ومولدًا ولكنهما جعلاها مسكناً لهما بعد رجوعهما لانهما ربيا

فيها كخادمين منذ الصغر

واذ خابت من هذا القبيل آمالهـا وخذلت من مناصرة المال لها وهو الذي القت عليه اتكالها والذي حسبت انها تعلو بواسطته عرش العظمة وتأتي بمن تريد من النـاس الى امامهـا مكبلين فيخضعون لدولة بائنتها ,, دوطتها '' مرغمين زادت اطباعها شراسة واخلاقها فظاظة فصار كل انسان مبغضاً منها لحلة فيه وليست فيها

وكان اكثر بغضها متحولاً بشدة نحو امرأة اخيها فانها من اول وقوع نظرها على فريدة شعرت كأن جمالها الفتان نبلة مسممة رمت بها قلبها فخرقته

وابتدأ غمّها بفريدة من حين اصابها حادث الاغماء ولم تكن تقلّ كرها لسوسن عن فريدة لان بهذه من الاخلاق الحسنة والجمال ما كان يميتها غيرة وعلى حد قول القائل :

وان احق الناس مني مودةً

حبيب حبيبي او عدوّ عدوي

وكانت في تلك الساعة التي دخلت فيها فريدة جالسة بجانب فيليب وهو شاب جميل الصورة خفيف الحركة طلق اللسان حسن الهندام وقلبها يكاد يطير فرحاً للطفه معها وانتباهه لحديثها لظنها انه علق بشبكة غرامها ٠٠ وهي لا تدري السبب

فلما دخلت فريدة وتحولت اليها الانظار شعرت كأن ماء

مغلى صب فوقها ولكنها اظهرت كل تلطف نحوها وناولتها القهوة بيدها ٠

اما فريدة فقد اظهرت كل ارتياح الى الجلوس معهم وكانت تتكلم وتضحك كأنها مسرورة وكأن لم يحدث شيء وسوسن تنظر اليها وتتعجب من مقدرتها على اخفاء ما بها مع صغر سنها وقلة اختبارها ٠

الفصل الواحد والعشرون

الرأس يطلب والقلب يأبى

كان فيليب اشبين حبيب وفريدة شاباً ظريفاً ولطيفاً وهو من الشبان الذين يدعوهم الامريكان ,, طيور قاعات الاستقبال المغردة '' وكان غريباً عن عمشيت ايضاً ولكنه لعلومه وتهذيبه وطلاقة لسانه محبوب اكثر من القريب والحق يقال ان من يدخل عمشيت لا يعود غريباً بل يصبح من اهلها نظرًا الى محبتهم ضيوفهم الذين كثيرًا ما يكرمونهم اكثر من اهل البلدة نفسها ٠

ومعلوم ان الشبان من طبقة فيليب يكونون فاقدي الطبقة ترفعهم معارفهم وتمدنهم الحديث عن الطبقة المتوسطة والواطئة فلا يقرون بها ويخفضهم فقرهم عن الطبقة العالية فلا تقر بهم فيصبحون فاقدي الطبقة وهذا داء شرقي قد بلي به اكثر شبان

بلادنا ولا سيما تلامذة المدارس منهم واهم اعراض هذا الدآء هو ,, الترفع عن العمل ‘‘

ولم تبتدئ صداقته لحبيب الا حينما نوى التزوج بفريدة فسعى جهده باتمام هذا الامر وقدم نفسه ليكون الاشبين فكان .

وها نحن نراه بعين الفكر الان جالساً على كرسي امام فريدة يرشقها بورد النظرات وهي لطهارة قلبها تحادثه مسرورة وتنظر اليه باسمة ومن يلومها . انه مع سوسن كانا بلطفهما وذكائهما يزيلان ثقالة دم حبيب وظريفة من امامها .

وكان من تأثير ملاطفة فريدة له وابتساماتها بوجهه ما طرح بذور الامل في قلبه على غير قصد منها .

وبعد ان مكث عدة ساعات هناك وهو يجهد نفسه باظهار ألطف واجمل ما عنده ذهب مودعاً اياها بنظرة حادة لم تشعر هي بها كما ظن .

وفي صباح اليوم الثاني قامت فريدة الى ترتيب بيتها وقد زال بعض ما بها من ألم النوى وان يكن رسم فريد على جدران بيتها وفي ارضه وسقفه كما انه في قلبها

لم تكن هذه الزوجة ـ غير طفلة بالحب فكانت ككل طفل بالعواطف وكطفل طلب امرًا وبكي لاجله طويلاً فلما لم يرَ نتيجة من بكائه مسح دموعه ورضي بما اعطي بدلاً عما طلب وان يكن لا يريده ـ هكذا كانت فريدة او انها حاولت

ان تكون ·

فان عواطفها الصغيرة النقية لم تكن قد نضجت بعد ففرحت بذهاب فريد ليس لانها لا تحبه بل لان عواطفها كانت بحرب عامة مع عقلها فخافت ان تصرع الاولى الثاني في ميدان الحب فتجلب عليها العار وهي تفضل النار على العار

ومع ان اعمال الفتاة كانت صادرة عن قلب طفلة فانه كان فيها شرف مقاصد الكبار وثباتهم

وقعت المسكينة في وهاد الظلم مرغمة وعرفت ان لا خلاص من ذلك ولا مناص فارتأت ان تحسن مسكنها او بالحري سجنها بقدر امكانها من جهة وان توسع لفريد طريق السلوان من اخرى لان واجبها نحوه كان يدعوها لهذا الامر الاخير لعلَّها تجد انجح وسيلة من افتراقهما لاتمام هذا الامر وسرت لانه هو يريد تجرع هذا الدواء مثلها فتجرعته هي ايضاً مع مرارته لان قلبها كان لم يثبت بدين الحب بعد ·

شاءت فريدة ان تطبق مجلد حياتها الماضية الى الابد اما الله فلم يشأ ذلك لانها كانت قد درست كل كلمة منه عن ظهر قلبها فكان طبقه وفتحه عندها سيَّين لان معناه في قلبها وعلى لوح صدرها ·

فلنترك امر المستقبل المجهول ونبحث في امر الحاضر المملول والماضي المأسوف عليه ان هذا لم يترك في قلب فريدة غير

تذكارين سارين احدهما حب" فريد والآخر انتصارها على ذلك الحب" كما زعمت اذ ذاك

فان الاول كان شعاع شمس حياتها الذي ينيرها في طريقها المظلمة والثاني كانت تجتهد دائماً ان تفرش طريقه بورود القناعة وتزين جدرانه بزنابق الطهارة وتنشر شذا الابتسامات الحلوة بكل جوانبه وكانت بشاشة هذه الفتاة الصغيرة السن سلاحها تجاه شقاء هذا العالم وساعدتها على المعيشة بهدوء وراحة داخل بيتها وخارجة لبضع سنين فقط

لم تكن فريدة تحب زوجها لان الامر فوق استطاعتها اذ انه طبيعي ومن الله اما ما كان بوسعها عمله وهو ,, احترامه وطاعته '' فقد فعلتها بكل رغبة وكانت شديدة الحرص على مسرته وان يكن في الامر عذابها هي وفضلاً عن ذلك فقد كانت تشتغل لعمار بيته بيدين قويتين وفكرٍ صافٍ ·

وليست هي وحدها التي سرت بذهاب فريد بل ان والدها وزوجها سرّا به اكثر منها وهما قد كانا يخافانه جداً لظلمهما اياه وما زالت هذه حالة المذنب امام البريء

عاشت فريدة في بيت زوجها غير المعيشة التي عاشتها في بيت والدها لانها في هذا كانت راضية بكفاف العيش بينما في ذاك كان لها كل ما يقدر على شرائه المال ـ الا السعادة

وكانت فريدة عندها برسم خادمة لكنها اخت وصديقة

تعاملها كنفسها ورفيقة تسافر معها بكل خطراتها لان فريدة اتخذت من جملة الادوية لجراح قلبها دواء الاسفار والتنقل فكانت تعيش خارج بيتها اكثر من داخله وخارج عمشيت اكثر من داخلها وكان زوجها يسر بكل ما سر هي به

وخلاصة الامر ان تلك الزوجة الطفلة كانت شبه حسونة رخيمة الصوت جميلة الريش تعيش ضمن قفص مذهب يعتنى بامرها فيه بكل دقة ولكنها مع كل ذلك كانت — سجينة

نعم انها كانت سجينة العواطف والقلب رغماً عنها وبقوة تهزأ بضعفها وكانت دائماً تفضل التنقل على افنان الاشجار يبللها قطر الحب ولا يقيها منه سقف القفص بشرط ان تكون مع الحبيب فكانت لاجل ذلك دائماً مهمومة رغماً عن السرور الذي يحيط بها لان سرور القلب يأتي من داخله وليس من خارجه وانما قدرت ان تسدل حجاب ابتسامتها الطبيعية فوق هموم قلبها فتحجبها عن الابصار

وكان الناظر اليها يرى عينيها الجميلتين تبرقان سروراً دائماً كأنهما كوكبان في سماء صافية واسنانها اللوءلوءية تضيء من بين شفتيها العنابيتين بابتسامة دائمة وصوتها يرن بالضحك كجرس الفرح ولكنها كطير يتنقل على اغصان اشجار الحياة مغرداً وانما تغريده ندبٌ على الفه — ومع ان ظواهر فريدة كانت متقلبة متلونة فان في داخلها شيئاً ثابتاً كان ينمو بنمو ذلك القلب التعس

الذي في صدرها ويزيد نموه بعذابه

الفصل الثاني والعشرون

جنة عدن

لما رجع حبيب لعمشيت من امريكا كان اول شيء فعله هو بناء بيت جميل على الزي الامريكي وكان هذا البيت شرقي المستشفى وهو مبني على تل عالٍ في وسط بقعة واسعة من الارض جعلت بعد ذلك حديقة غناء

كانت هذه الدار من تسع غرف ارضية وعلوية على الطرز الامريكي فالغرفتان الاماميتان السفليتان واحدة منهما غرفة الاستقبال والثانية للجلوس ووراء الاولى غرفة المائدة ويليها المطبخ ووراء الثانية غرفة المؤنة والاربع غرف العلوية كلها للمنامة وامام الدار وحولها ارض واسعة قد اعدت لتكون حديقة

فلما وصلتها فريدة وجدت اهم تسلية لها في ترتيبها وزرع الازهار وغرس الاشجار حولها فلم تمضِ عليها سنة من الزمن حتى اصبحت تلك الحديقة ملاءى بانواع الازهار والرياحين ومرتبة ترتيباً جميلاً جداً

وكان بيت فريدة اكثر ترتيباً في داخله مما هو في خارجه لانها كانت بذوق فريد نفسه تعرف ان البيت يجب ان يكون „ جنة " اذا لم يكن „ بمن " „ وبما " فيه لذلك كان كل

شيء في ذلك البيت مرتباً في مكانه وكل لون من فرشه ورياشه ملائم اللون الاخر مما فيه

وكانت روحها مبثوثة في كل قرنة وزاوية من زواياه وابتساماتها الحلوة منتشرة بكل جوانبه وأشغال يديها تزينه

هناك بجانب النوفرة كنت ترى فريدة وسوسن كل مساء جالستين على كرسيين وانامل‌هما مشغولة بالتطريز وحبيب يمشي متعثرًا باذيال ,, قنبازه '' ليعد مائدة المدام والنقل لزواره فلا يمضي قليل وقت حتى تكون تلك الحديقة امتلاءت من الزوار وفريدة تنشر عليهم ابتساماتها ولطفها التي هي احلى من الازهار المحدقة بهم من كل جانب وترى حبيب فرحاً ومسرورًا بزوجته وداره وزواره فيسكر من فرحه هذا قبل سكره من الخمرة التي كان يدمنها ٠

ولما يطرد جيش الظلام بقية نور النهار يحول الجالسون انظارهم نحو مدينة بيروت وجبال كسروان فيرون الانوار كالكواكب في قبة سوريا ولبنان ٠ منظر بهج يزيد ببهجته جمال المكان ولطف اصحابه

هذا ما جعل بيت حبيب مطروقاً من زوار كثيرين حتى لقب اخيرا ,, بجنة عدن '' وكانت فريدة ملاكه

وبمثل هذه الامور انقضت سنو فريدة الاولى فكانت بنظر زوجها شمس البيت المضيئة وباعتبار ضيوفها اجمل زهرة من

ازهار حديقته وباعتقاد ,, ظريفة '' شوكة تتمنى لو حلت في عينها ذاتها حتى تعميها فلا تعود ترى جمال زوجة اخيها الباهر وتغار منه

ومن الطبع ان المرأة التي تكون باحوال فريدة وجمالها وسنها تكون هي متعرضة لاخطار كثيرة ولشكوك معظم الناس وكثيرا ما تكون هذه المعيشة التي يظنها البعض ,, مغروسة بالورد '' مغروسة باقسى الاشواك للمرأة التي كثيراً ما تزل بها القدم فتقع على اشواك الرذيلة التي تدمي جسمها كله لكن فريدة لم يكن عليها خوف من هذا القبيل لانها كانت مسلحة بسلاح قوي من ميلها الطبيعي للفضيلة ومختوما على قلبها بختم ابدي هو حبها لفريد

وربما كان هذا اهم اسباب شقائها اذ كانت تهزل وتضحك وتعاشر جميع الناس وتلاطفهم ولم تحذر في اول الامر احدا ولا شيئا ولطهارتها وتقواها تظن كل الناس اطهاراً اتقياء مثلها وكما ان شواعرها هي ميتة نحوهم تعتقد ان شواعرهم ميتة نحوها

ولكن واحسرتاه انها لم تلبث غير شهور قليلة حتى بدأت تعرف. لم يطل عليها الوقت حتى عرفت ان الناس ينظرون اليها بغير العين التي تنظر هي بها اليهم وان البشر ليسوا كلهم شخصها .

ولم تسر في طريق حياتها اشواطا قليلة حتى اضطرت الى مسك

شجاعتها بكلتا يديها فقضت عمرهـا كالمحارب في وسط المعركة لا تدري من اي جهة يأتيها رصاص اعداء الفضيلة والحشمة

بعض الرجال كان يشتهي جمالها فيطمع في لطفها الذي يتخذه وسيلة للتقرب منها وطرح بضاعة حبه وغرامه لديها فلما تحول نظرها عنه باشمئزاز وتطرده من امامها بنفور يصبح عدوًا لها .

والبعض الآخر كان يحكم عليها كما يحكم على سواها او بحسب ظواهرها فاذ تنخدع باعتباره ويلاقي منها لطفاً ثم يظهر لها منه احتقار وينقلب لطفها عليه يأخذ بمساعدة ذلك البعض الاول بالتشنيع بها لظنه انها ليس عن طهارة ما تنفر منه بل ,, لحبها سواه '' وهكذا ما زال اكثر الرجال لا يحسبون للمرأة فضلا بشيء شريف

اما النساء فقد كان لها منهن الحاسدة والمتهمة والمنافسة والغيور ولم يكن يحب فريدة من النساء الا كل فاضلة وكل من جعلها مقامها يقف عن حسدها

فتألب عليهـا من هؤلاء واولئك جيش صغير كانت قائدته ظريفة لم يكن له همّ سوى التقبيح بالمرأة التعسة وتصوير جمالها قبحاً وفضيلتها رذيلة ولم يكن لها ذنب سوى انها جميلة وذكية ولانها لم تكن تؤذي احدًا بشيء فصح فيها قول القائل

افاضل الناس اغراض لذا الزمن

يخلو من الهم اخلاهم من الفطن

فيالك دهرًا ظالماً لا تجد امرأة لطيفة لا يتلاعب الناس بتقولاتهم عليها الا اذا كان الواحد منهم ذا نفس شريفة مترفعة عن الدنايا ، وهكذا فمن مثل فريدة تتعلم ان اجمل خلة للمرأة وهي ,, البشاشة '' تجلب على رأسها اكثر البلايا واشد الرزايا

الفصل الثالث والعشرون

فيليب

ان الرجال صنـاديق مقفلة

وما مفاتيحهـا الا التجاريبُ

كثر تردد فيليب على بيت حبيب وكثر اللغط بشـأنه وكان حبيب يحب الشاب ويعزه كثيرًا ففتح له ابواب بيته وكان يرحب بهِ دائماً اما فريدة فقد كانت تسر به ايضا ولا سيما لما ظهر من ادابه في اول الامر ولخفة روحه ولطف حديثه وبالمثل سوسن

اما هو فقد كان متفننًا ولكي يكون محبوبًا من جميع اهل البيت على السواء كان يظهر اكتراثًا زائدًا لظريفة وبنوع ما رغبة في محادثتها والاختلاء بها احيانًا حتى طارت هذه فرحًا اذ ظنت ان الشاب قد وقع في شرك حبها وغره ماالها .

ولجهلها مقدار نفسها لم تشك قط في غرض الشاب الرئيسي بل كانت ترحب به كثيراً وتعامل فريدة بكل لطف وحب متظاهرة بودادها لترحب هذه بفيليب ايضاً ولم يخامرها غيرة منها مطلقاً

فبعد مرور سنة على زواج فريدة جاء فيليب مرة زائراً فلم يجد في البيت غيرها وكان الوقت صيفاً وهي مرتدية ثوباً حريرياً شفافـا زهري اللون وزهر خديها اجمل لونـاً من لونه فضلاً عن ظهور معصميها البيضاوين الى الكوع وعنقها البيضاء فيها عقد من الكورباء الصافية تكسب وجهها بهاء على بهاء

فحينما وقع نظر الشاب عليها اضطرب قلبه في داخله وفرغ صبره فدخل وسلم عليها متلعثماً ثم جلس على كرسي امامها وقد اصبح قلبه في عينه عند نظره اليها وهي على ما مرَّ بك وصفها .

فلحظت هي ما به ولكنها تجاهلت واخذت تحادثه باحاديث بعيدة حاذرة بل خائفه ومن حديث الى حديث قال الشاب بلطف :

ـ ما اجمل هذا الثوب عليك ياست فريدة فان فينيس ذاتها كانت تحسدك لو رأتك الان

فاحمرت وجنتاها خجلاً من حديثه وقالت بدلال وهي تنهض لتذهب خارجاً

— انني اشكرك كثيراً على ثنائك وان يكن اكثر مما استحق .

فقال الشاب وقد خاف ان تذهب وتضيع الفرصة الثمينة .

— الى اين انت ذاهبة اجلسي لنتحدث .

— يجب ان احضر القهوة

— دعي القهوة في هذا النهار الحارّ انني لا اشرب قهوة .

فلم يثن هذا الكلام فريدة عن عزمها وذهبت فاحضرت القهوة بعد ان ضيعت وقتاً غير قصير لعل احداً يجيء لانها خشيت البقاء مع فيليب وحدهما ولما رجعت قال الشاب وهو يتناول فنجانه :

— الا تظنين يافريدة ان النصيب ينيل كثيرين ما لا يستحقونه ويحرم غيرهم ما هو حقهم في هذه الحياة ؟

فذكرتها هذه الجملة حالها مع فريد وللحال تنهدت وقالت :

— لا اعلم اذا كانت هذه الامور ممـا يدعونه نصيباً او انها اعمال البشر ذاتهم اما انها موجودة فهذا لا ينكر .

فتنهد الشاب وقال :

— واعظم هذا التفاوت يكون في الحياة الزوجية ـ مثالك ومثال حبيب مثلاً فهل انت خلقت لتكوني زوجته ؟

فسكتت ولم تجب اما هو فاستأنف قائلاً :

— لماذا لا تجيبين ؟ أمصيب انا ام مخطىء ؟

ولما رأى انها لم تجب ايضاً قال وهو يبتسم :

ــ انا اعرف بماذا تفكرين الان انك تفكرين بفريد ومن يلومك ؟

ولم تكن فريدة تخشى من اظهار حبها الطاهر لفريد فسقطت للحال دموعها وقالت :

ــ ارجو منك الوقوف عند هذا الحد من الحديث ياصديقي فانه موءلم .

فقال الشاب ولكن الكلام به يفرج الكرب وينعش القلب ــ انا من قلبي اعرف ما بك يافريدة .

وكان جواب فريدة قولها :

ــ اذا كنت مبتلىً بالحب فارجو ان يساعدك الله ويخلصك من ايدي الظلاّم

فاحمر وجه فيليب وقال :

ــ ان حبيبي وحده هو الظالم .

ولبساطة فريدة توصلت الى ان سألته قائلة :

ــ ومن هو ذلك الحبيب ياترى ؟

فكان الجواب ان وثب ذلك الشاب عن كرسيه واقترب منها بقلب يقويه الحب واخذها حالاً بين ذراعيه قبل ان تستعد لمقاومته وهو يقول لها بلهفة وحرقة :

ــ انت هي ــ انت هي الحبيبة ياسيدة النساء

ان احوالاً كهذه كافية لان تصرع المرأة تحت اقدام الرجل ولا سيما اذا كانت صغيرة السن وضعيفة الجسم كفريدة امام رجل كفيليب ولكن المرأة الشريفة قد تجبن عند المحاماة عن نفسها اما عند المحاماة عن عرضها وشرفها فتستمد من الضعف قوة غير اعتيادية · وهكذا حدث لفريدة التي لطمت فيليب على وجهه بقوة كاد يعدم من تأثيرها بصره فللحال افلتها من بين ذراعيه فبعدت عنه بضع خطوات ونظرت اليه كاللبوءة التي جرح شبلها وقالت له بغضب :

— ما الذي جرأك على هذا العمل يالئيم ؟

وكان الشاب يرتجف من الغضب · فوجد اللطف انجح دواء من العنف وللحال خرّ ساجداً امامها وابتدأ يطلب صفحها فقالت له :

— انني اصفح عنك بامر واحد هو انني اكتم امر وقاحتك هذه عن كل انسان اما اذا عدت واريتني وجهك من الان وصاعداً فلا ترى مني صفعة بل اكثر منها اخرج من هذا الباب حالاً !

فنظر اليها شزراً وقال غاضباً وهو ينهض عن الارض ·

— انت تهدديني ؟ مسكينة انت · فسوف ترين مني ما يعرفك من انا · انني قدمت لك حباً فقدمت لي نفوراً فاستعدي لانتقامي !

فاجابت فريدة وهي ترتجف :

ــ انني لا اخشى انتقامك وانا بريئة فافعل ما تشاء .

فخرج من الباب وعند خروجه ضحك تلك الضحكة الهائلة ضحكة الانتقام وقال لها :

ــ اعلمي يافريدة ان الانتقام اشدّ فعلاً في قلب الرجل من الحب وانا الذي احببتك حباً شديداً وسوف يكون انتقامي اعظم من حبي فاستعدي .

اما فريدة فقد كانت ترتجف من الغضب فادارت له ظهرها ومشت نحو النافذة ولم تجب على كلامه .

خرج فيليب ومراجل الغضب تغلي في صدره ولما اصبح خارجاً نظر الى البيت الذي كان فيه وصرّ على اسنانه وقال متوعداً :

ــ والله اني لا أكون رجلاً اذا لم اجعلك جهنماً لفريدة انتقاماً منها .

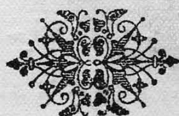
كانت الايام تمر على فريدة وكان قلبها وعقلها ينميان معها وكلما نموا نما معهما ادراكها للحالة التي هي فيها ومعرفتها للخسارة التي خسرتها بحرمانها فريد

والذي كان يمرمر حياتها اكثر من كل شيء هو وجود فيليب بذلك البيت لانه بعد ما جرى له ما جرى مع فريدة حول انتباهه كله الى ظريفة واظهر لها بطريقة واضحة انه يذهب الى بيت اخيها لاجلها وانه يحبها و يروم الاقتران بها متى استعد

لذلك فكان اعز ضيف في ذلك البيت عند ظريفة واخيها واكره ضيف لدى فريدة وسوسن

وابتدأت اساءته لفريدة حالاً بان اخذ يوغر صدر ظريفة عليها ويعلمها ان تمرمر عيشتها بطرائق مختلفة ولما كانت هذه اطوع اليه من بنانه وكان الامر يسرها جداً اقنعت اخاها بان زوجته صغيرة السن وجميلة ويخشى عليها من الوقوع في شرك الهوى لا سيما وهي لا تحبه فجعلهـا حبيب مراقبة عليها وسلمها زمام امرها فاصبحت ملازمة لها ملازمة الظل للانسان في داخل البيت وخارجه

وهكذا عاشت فريدة الست سنوات الاولى من حياتها الزوجية سجينة ضمن اسوار العبودية والظلم ولكن هذا لم يغير طبيعة نفسها لان البشاشة كانت خلة طبيعية لها والضحك حتى في وسط الاحزان من اهم اسباب معيشتها — فكم من ظواهر تخفي البواطن ٠



الفصل الرابع والعشرون

عامها العشرون

في صباح اليوم الاول من شهر آب سنة ١٩٠٧ نهضت فريدة من فراشها باكرًا جدًا وقد كانت ليلها كله تستعد لذلك النهوض فارتدت ثوبًا ابيض ولبست حذاء ابيض وجللت شعرها الخرنوبي بطرحة بيضاء فاصبحت „ بياضًا في بياض في بياض " لولا لون شعرها وحاجبيها وعينيها

وكان زوجها غائبًا عن البيت منذ ايام . فلما اتمت لبس ثيابها خرجت الى غرفة سوسن التي كانت وراء غرفتها تمامًا وفتحتها بكل هدوء بمفتاح كان معها ودخلت اليها تمشي على رؤوس اصابعها ولما اصبحت على مقربة من سوسن وضعت يدها البيضاء اللطيفة على جبينها الحنطي الجميل ففتحت هذه عينيها واذ رأت فريدة بياضها قالت لها وهي تبتسم بحب واخلاص :

ـــ ظننت انك ملاك بدون اجنحة قد هبط من السماء. فما اجملك بهذا الثوب يافريدة

فابتسمت فريدة من اطرائها ودفعت اليها ثمنه قبلة حارة ثم استعجلتها بالنهوض وكانت تساعدها بلبس ثيابها لكي تخرجا من

البيت قبل ان تستيقظ ظريفة وتتبعهما

وبعد نصف ساعة من الوقت كانت الفتاتان خارجتين من الباب بثوبيهما البيضاوين وهما تلتفتان وراءهما خوفاً من ان تراهما ظريفة

ولما اصبحتا على بعد بضع اذرع من البيت تنهدت فريدة تنهد الفرج وهي تنظر الى بيتها وتقول لرفيقتها :

— كم يوجد من المعجبين بجمال بيتي ومن الحاسدين لي عليه اما انا فلا ارى لهذا الجمال اثرًا بل افضل عليه كوخاً حقيرًا اكون فيه براحة — فآه ياسوسن الحبيبة انني اذ اخرج من هذ البنيت وحدي او برفقتك انت اشعر كأنني خارجة من سجن العبودية الى فضاء الحرية فينفرج قلبي قليلاً وأكاد انسى موقفي لولا انني ارجع لحالي حينما ارجع اليه — فكم هي قليلة دقائق السعادة في الحياة كأنها محرمة ٠

فقالت سوسن بحسرة : مـا لك غير الصبر يافريدة فلعل بعده فرجاً :

فاصعدت فريدة زفرة من صدرها وقالت :

— ولكن اتعلمين ما الذي يوءلمني في هذا اليوم ؟ ان حياتي الماضية التي ظننت انني قد تركتها وراء ظهري شبحاً مظلماً بعيدًا اراه قد اصبح امامي الان وهو يقترب مني رويدًا رويدًا ويخيم بسرادق مصائبه فوق رأسي وكلما تقدمت في الحياة يوما

تجسمت امامي صورة مصائبي فكأنني ازداد عمراً لازداد مصائب ـ وكلما اضيف الى ايام حياتي يوم جديد اضيف اليها تعس جديد فما هو هذا ؟

اجابت سوسن بهدوء : هذا دليل على ارتقاء العقل

فتأوهت فريدة قائلة — من لي بمن يبدل هذا الارتقاء بالانحطاط بل بالجنون اذا كان هذا يريحني من آلام قلبي المبرحة فان العقل كان ينفعني قبل ان رميت نفسي بوهاد الشقاء جاهلة ما بها ·

فقالت سوسن : ان الندم على ما فات من اشد الحسرات فدعي ماضيك جانباً لانه اصبح قسماً من الابدية يا اختي وحسّني حاضرك بالصبر ومستقبلك بالامل ·

فهزت فريدة رأسها بيأس وقالت لرفيقتها :

— اذا قدرنا ان نمنع نتائج الامور فلا نقدر على منع الشعور بها اما انا فالحاضر لا يهمني لانه ليس من حياتي والمستقبل لا اتطلع اليه ابداً اما الماضي — الماضي فهو كل ما لي لانه مملوء من التذكارات الحلوة التي عرفتها في حياتي ـ . المحزنة ايضاً لانني في حزني اسر بالبكاء كما اسر بالضحك وفي كليهما راحة لي·

وكانتا قد اصبحتا امام بوابة سور المستشفى الحديدية ففتحتاها ودخلتا الى الكنيسة فحضرتا قداس الصباح في ذلك اليوم الذي اتمت فيه فريدة العام العشرين من اعوام حياتها

المعذبة ٠

وبعد انتهاء القداس خرجتا من الكنيسة قبل جميع من حضر وانحدرتا من وراء المستشفى نحو خرنوبة قديمة كانت قائمة هناك وهي نفس الخرنوبة التي جلس البرت بك وفريد تحتها في ذلك اليوم المشوم ٠

ليس لمعرفة فريدة بجلوس فريد وصديقه تحت تلك الخروبة ركضت اليها بل لان قلبها كان قد طفح وارادت ان تفرغ قليلاً من مصائبه في قلب صديقتها الحميمة سوسن فلم تُرَ مكاناً اوفق من ذلك المكان المنفرد لان هذه الخرنوبة كانت في ارض مرتفعة تطل على البحر وطريق العربات الممتدة فوق الشاطىء بقليل ومدينة جبيل التي تظهر في السهل عن كثب وتحجبها عن بلدة عمشيب بناية المستشفى العظيمة القائمة على تل فوقها

جلست فريدة ورفيقتها على ذلك الصخر الذي تحت الخرنوبة وللحال ابتدأ خفقان قلبها وبريق عينيها واضطراب نفسها فهل كان هذا ياترى مسبباً عن جلوس فريد فوق ذلك الصخر وتركه اثرًا من كهربائية حبه عليه ؟ أو كان من تأثير مـا بقلبها هي من التعس والشوق والحب والافكار التي جاءت بصديقتها الى ذلك المكان بقصد بثها لها ٠

ولما استوى بهما الجلوس طوقت فريدة عنق سوسن وقالت لها :

ـــ دعينا نحتفل بعيد ولادتي منذ عشرين عاماً بل عشرين دهرًا في هذا المكان ٠

فابتسمت سوسن قائلة ـــ وكيف نحتفل به وبماذا ؟

فتنهدت فريدة قـائلة : نحتفل بالجلوس هنا صبـاح هذا النهار الاحد ننظر الى زرقة البحر تحتنـا والسماء فوقنـا والطبيعة بصخورها وعشبها وترابها واشجارها امامنا ـــ و بتذكاراتنا الماضية التي في قلبينا

فعبست سوسن قائلة :

ـــ لا تضعي التذكارات في اللائحة انها غير لازمة

ـــ بل هي الزم من سواها يا اختي لانني لاجل هذا اتيت الى هذا المكان فان قلبي قد طفح ياسوسن والقليل الذي احبه منه يريحني ـــ ولكنه يتعبك ٠

فقالت سوسن ليس لتخفيف التعب عن نفسي بل عنك احب ابعادك عن هذه الافكار اذ ما هي الفائدة ؟

فاطرقت فريدة وللحال سقطت دموعها وقالت وهي تدير حجرًا صغيرًا بين يديها :

ـــ لا شيء سوى ذرف قليل من الدموع الصافية فوق قبر السعادة ٠

اجابت سوسن بضجر :

ـــ انك تجرحين قلبي يافريدة وقد مضت مدة ست

سنوات علي وانا احاول فيها ابعاد فكرك عن الموضوع وانت تدنين منه بكل قواك فهل تريدين ان تقتلي نفسك بالهم ؟ انه يوجد يد اقوى من يدي تحرك قلبك للحزن

فاصعدت فريدة زفرة حرّى وقالت :

— انها يد الدهر ياسوسن تلك التي تكبر قلبي ليشعر بحقيقة مصيبته وترقي عقلي ليصرف مقدار الحياة التي خسرها فانظري ياسوسن تري ان الدهر قد طوى عشرين صفحة من مجلد حياتي فماذا قرأت فيها ؟ هل غير سطور العذاب وآيات الشقاء ؟

فماذا تعنين الحياة عند البشر ياسوسن ؟ هل هي نوم واكل وشرب ولبس فقط ؟ ام هي عذاب دائم وصبر ملازم وجهاد مستمر ؟ انني سجينة ضمن سجن مظلم جدرانه الاربعة هي اولاً تعستي بزوجي الذي تعرفينه وتعسي „ بظريفة " التي لو عرضت على ابليس لرفضها خوفاً من قبحها ومن اخلاقها وتعسي بذلك المنافق فيليب الذي كان يحسبني رزقاً مشاعاً وامتلاكه محللاً فلما طرد من امامي اصبح عدواً لي وهو الان يسعى لغرض واحد هو الانتقام مني بسعاياته ووشاياته مع من هم على شاكلته من الرجال ثم تعسي ببعض النساء ومنهن من كن صديقاتي فانهن يبغضنني ويفررن مني ويشنعن بحقي وانا لا ارى ان لي ذنباً سوى جمالي وباب هذا السجن الوحيد هو حبي

لفريد ولكنه واحسرتاه علي مقفل تحرسه جنود الظلم المدججة بسلاح الغدر والمكر ٠

فهل ظلم احد بما ظلمت به ؟ وهل شقي احد كما شقيت ؟ آه يا امي يا حنونة ليتك حية لاشكو لك همي ٠ والذي يقهرني اكثر من كل شيء هو نظري الى كل ما في نفسي من الفضائل اوما في جسدي من الجمال يداس باقدام الجهل وغموط النعمة امامي فانا جوهرة في مذبلة ياسوسن اصحابها لا يعرفون لها قيمة والغرباء يظنونها قذرة وسخة

هوذا زوجي كما ترينه على ابواب الشيخوخة قبيح الخلق والخلق لا آداب ولا تهذيب ولا ذوق له وهو دائمًا نشوان ومحب لذاته الى حد احتقار كل شيء لغيره عند اعتباره لما هو له وانا اظهر له الاحترام واعامله بلطف مضطرة وان كنت احتقر ادابه الوسخة جدًا لاعتقادي ان شرف المرأة باعتبارها لزوجها ولكن انظري هل ترين ان زواجي يفرق بشيء عن الزواج القديم الذي كنا نتبرأ عنه من مدة ؟ هل طريقة زواجي تختلف بشيء عن طريقة بيع الجواري عند المسلمين من قديم او عن طريقة الزواج عند البرابرة الذين يحصل الرجل منهم على المرأة اذ يضربها ضربة قوية وعندما تقع يحتملها الى كوخه ... ان حبي لفريد ذاته لا يعذبني كما يعذبني وجود حبيب في غرفتي وعلى سريري يخور كالثور اذ يكون سكران

فانني اقضي ليالي كثيرة جالسة على كرسي اندب حظي اذ يكون هو على فراش يقلب من جنب لجنب من السكر فلا اصدق ان ياتي الصباح حتى اخرج من تلك الغرفة التي احسبها قبراً ورائحة نتانة الاموات هي رائحة الخمور التي تخرج مع انفاس الرجل فتلاقيني ظريفة بوجهها المظلم قبحاً فيكون صباحي اردأ من مسائي وهكذا ارى مصائبي في الحياة آخذة بعضها برقاب بعض الى الابد

اما والدي فهو يسر بزوجي اكثر مني ويظن ان مقاومتي فضيلة فتربنه دائماً يناصره علي حتى اصبحت لا اتكل عليه بشيء وهو اصل بلائي وشقائي

وهناك الاصدقاء والصديقات فانهم كثيرون جداً ولكن قلبي يقول ان لا صديق حقيقي غيرك بينهم فالافاضل والفضليات منهم اكتم عنهم امري خجلاً واكتمه عن غيرهم خوفاً من شماتتهم .

وليس هذا فقط فان حياتي المعذبة التي ساعدت في قوة الفكر على النمو تجعلني اجد دائماً ان كل شيء في الحياة ينتصب لقهري ونكايتي وتعذيبي فان جمالي الذي تحسدني لاجله الكثيرات ويحترمني اكراماً له الكثيرون هو مسبب لاكثر بلايا نفسي كيف لا وهو الذي يبعد عني صداقة بعض بنات جنسي عفواً ويقرب مني ثقالة بعض الرجال وانتقامهم مع انني احب الجميع

ولا تسمح لي طبيعة نفسي ان ابغض احداً ولو قصدت ذلك وانا ارى نفسي قائمة بواجباتي نحو خالقي وبيتي ونفسي وكل من حولي اكثر من غيري ومع ذلك يعدني بعض الناس مذنبة ومجرمة ولماذا ؟ لانني جميلة والنساء الجميلات معرضات لخطر السقوط وان لم يسقطن ؟ ولانني محبة شقية وحبي طاهر وهو باعتقادهم شرير وان يكن اطهر من حب الملائكة ذاته ان عاملت الناس بلطف قالوا عني خفيفة وان اظهرت الرزانة قالوا متكبرة عبوسة فلا ادري كيف اسلك بينهم كأن لا يكفيني عذابي الداخلي حتى اتعذب من الخارج ايضاً

فقالت لها سوسن بتعقل واخلاص :

كل ما ذكرته اعرفه مثلما تعرفينه تماماً اما قنوطك ويأسك من كلام العالم وافكارهم فلا حق لك بهما قطعاً لان المسيح ذاته اتى لهذه الارض ولم يقدر الا على ارضاء قليل من البشر فعليك انت ان تكوني بريئة امام الله وذات مبدأ شريف وكلام الناس يزول بزوال الايام لانه طبيعة ملازمة لكل تقدم ومجد وجاه في العالم والذي يكون في الامام يكون مطمحاً للانظار وموضوعاً للالسنة · ولو قصدنا ياعزيزتي نحن البشر ان نرضي كل العالم لما قدرنا لان للانسان مبدأً يجعله محبوباً من قسم من البشر ومكروهاً من غيره سواء كان شريراً ام صالحاً ومبدأك باعتقاد الفضلاء شريفٌ فماذا تطلبين بعد ؟

فقالت فريدة بحسرة : ان هذا التقدم الذي ذكرته يقهرني اكثر مما يسرني لانه يجلب اكثر متاعبي وما السبب الا خمول زوجي وعدم مناسبته لي مما جعلني انا مطالبة بكل شيء ومسوءولة عن كل شيء فانا افضل ان يكون زوجي اعظم مني ويحكمني من ان اكون اعظم منه واحكمه انا لان الرجل الكبير تكون اعماله شبه نظارة عظيمة تري الناس فضائل امرأته اعظم مما هي والعكس بالعكس مع الرجل الخامل الذي تكون فضائل امرأته ضائعة معه وحقوقها مهضومة في نفس بيته فانا الان في قلعة واهية الحصون ياسوسن ومدفع واحد من مدافع النميمة يدك اساساتها الى الحضيض لان حاميتها ضعيفة جداً

وعدم مساواتي لحبيب بالجمال والعمر والذوق يجعل السنة العالم طويلة بحقي ظلماً وعدواناً اما حب حبيب لي فهو باعتقاده ان يشبع جوفي من الطعام ويكسو جسمي من اللباس ويقيني الحر والبرد في بيت امور نظنها كل ما في العالم ـ كأن المرأة لها معدة وليس لها قلب"



الفصل الخامس والعشرون

الحلقة الاولى من سلسلة العذاب

ولما وصلت فريدة الى هذا الحد وكان قد بلغت منها الحماسة مبلغاً شديداً وقفت عن الكلام واخذت منديلها فمسحت به دموعها وبعد ان اخذت لنفسها بعض الراحة قالت لصديقتها

ــ انني لااحسد احداً على شيء له ولكنني احسد كل مرأة على زوجها اذا كان فاضلاً شريف النفس ومحباً غيوراً ــ فآه يافريد .

وكأن هذه الكلمة الاخيرة حربة خرقت قلبها فنفذت فيه ثم ارجعتها لصوابها بعد الالم فقالت لسوسن :

ــ هل هي خطيئة مميتة . هل هي ذنب ? فاذا كانت كذلك فانا اوءكد لنفسي براءتها منها لانني اجتهدت ست سنوات متوالية ان اغلبها فغلبتني انا احبه احبه احبه . ولا اخشى ان يعرف العالم كله بهذه المحبة ــ احبه كما احب المسيح كنيسته وكما تحب الملائكة خالقها وكما يحب البشر الحياة نفسها لان حبي له انما هو حب روح لروح توءاخيها وعواطف لعواطف تساويها انني اهبه كل ما هو لي مما خلقه الله حراً ـ اهبه قلبي وعواطفي ـ اما جسدي التعس ! فقد ! قيده البشر ظلماً ويظل مقيداً الى ان

يفك قيوده الموت — انا اهب ما هو لي ولا يمكن ان اسرق ما هو لغيري واهبه اياه فآه لو كان الله خلق العالم كله ارواحاً لا اجساد لها ياسوسن . ولكن ما زالت الارواح ملازمة للاجساد كما ان الازهار الذكية تنبت في السماء فانا نحلة امتص شذا الازهار لاجعلها عسلاً واذا كانت النملة لا تقدر على امتصاص المادة السماوية مع المادة الزهرية فانا لا اقدر على خلط الروح بالجسد بحب فريد المقدس الطاهر الذي هو حقي لانني عرفته وامتلكته قبل ان عرفني ذلك الرجل وامتلكني

فقالت سوسن بصوت يرتجف وهي كأنها قاضٍ على عواطف فريدة وهذه لا ترضى الا بحكمها .

— انك باعتقادي غير مذنبة مطلقاً بل انت مصيبة بامر طاهر فوق استطاعتك التخلي عنه

فتنهدت فريدة وقالت من قلب يحترق اسفاً :

— ان دائي عياء ياعزيزتي ولا دواء لي بغير الموت فاين هو هذا الموت ؟ آه ما ابعده على من يطلبه

— لا تكفري يافريدة . ان الله قد خلق لك قلباً كبيرا ليجربه بالمصائب وعقلاً اكبر ليعلم به الناس الصبر

فابتسمت فريدة من كلام رفيقتها وهزت رأسها قائلة :

— هكذا تقولين انت ولكن البشر تصدق كل شائنة تنسب الي من اللئام لانها هكذا تعودت ان تفعل .

ــ ان الله ليس بشراً يافريدة فهو يعرف قلبك ويكافئك عن متاعبك خيراً . اما البشر فسيعرفونك بعد موتك لان البذرة الجيدة لا تعرف عندنا نحن السوريين ما لم تمت في الارض وتنبت

وهنا كانت الشمس قد ذرّت قرنها الذهبي من وراء الجبال وهي تشبه رقيباً يلقي على وجهيهما وشعريهما اشعة النور لتظهرا جيداً للمارة فقالت فريدة لسوسن

ــ لقد اشرقت الشمس تدعونا الى العودة للبيت حتى لا نجعل „ للظريفة " سبيلا الى الشك

عندئذ نهضت هذه وهي تقول:

ــ سامح الله امها ما كان ابسطها اذ سمتها بهذا الاسم المعاكس لها حتى اصبح اعلاناً على قبحها المتفرد

وبكل هدوء مشت الفتاتان بين تلك الصخور الى البيت وهما صامتتان لان فريدة ارادت ان تفتكر بعد الكلام وسوسن لم تحب ازعاجها

واذ دخلتا من الباب وجدتا ظريفة تسنده وهي غاضبة لذهابهما بدون معرفتها نظراً لظنونها السيئة فنظرت الى امرأة اخيها بغضب وقالت لها موبخة

ــ اين كنت ياست ؟

اجابت تلك بهدوء: كنت في الكنيسة

فوضعت هذه كلتا يديها على خاصرتيها وقالت بتهكم

– من غير شرّ يجي قلبك • بتروحي على الكنيسة وحدك وبدون علمي هذه موضة جديدة ياعيني

فاجابت فريدة عابسة :

– انني لم اذهب وحدي

فضحكت تلك الشيطانة الارضية بهيئة هائلة وقالت

– قه • قه • وهل سوسن غير شخصك • انها كاتمة اسرارك • • •

فبلغ غضب فريدة اخر حدوده عند كلامها هذا واقتربت منها فحملقت بها قائلة بغضب :

– ماذا تعنين بكل سوءالاتك ومغامزك ياظريفة ؟ ألست انا حرة بالذهاب وحدي ؟ وهل في ذهابي الى الكنيسة ريبة ؟ انني في هذا النهار بلغت سن الرشد واظن اني اصبحت قادرة على التحرر • • •

فصرخت تلك بصوت مزعج وقالت

– لا يهمني اي سن بلغت فما زلت تحت سلطة اخي تكونين تحت مطلق سلطتي ايضاً

فحولت جملتها هذه غضب فريدة الى حسرة عميقة اذ قالت لها:

– ان سلطة اخيك وحدها عبودية كافية ياست فلا

تقدرين ان تضيفي سلطتك الثقيلة اليها ٠٠٠ انني تزوجت اخاك وحده وليس كل عائلته ومع ذلك فقد حان لي ان اتحرر من ثقالة دمك

فهزت ظريفة رأسها بمعنى وتهكم وقالت :

ـ انا اعرف ان وجودي في هذا البيت يزعجك جداً لان اخي حمار تقدرين على سوقه اين شئت ٠ ولكن طقي وموتي فاني اقعد هنا كسراً عن رقبتك ونكاية فيك وبكل اهلك ٠

فاجابتها فريدة بحماسة وحدة

ـ ان مثلك لا تقول لمثلي هذا القول فالاوفق ان تصمتي والا طردتك من بيتي طرد الكلاب

فحملقت ظريفة في وجه فريدة وقالت بصوت عال اخافها ٠

ـ انت تطردينني ؟

اجابت بهدوء: نعم انا

ـ قه ٠ قه ٠ قه ٠ ما شاء الله رأيت حبيباً حماراً فظننت ظريفة دابة لانها اخته وما علمت يا ست انه ليس كل اللحوم توءكل ٠

فلم يسع فريدة الا الضحك من جملتها الاخيرة و بتهكم قالت لها

ـ لا توءاخذيني ياستي فقد نسيت ان لحمك لحم كلبة ٠

فجاءت هذه الجملة كحطب يابس فوق نار غضب ظريفة زادت ضرامها فهجمت عليها كالناقة الجرباء وارادت ان تلكمها ولكن سوسن كانت اسرع من البرق ارجعت لها اللكمة اثنتين وابعدتها عن فريدة ثم اخذت هذه بيدها قائلة

— عيب عليك يافريدة ان تخاطبي امرأة مثل هذه . ان مثلك لا تقف امام مثلها . ثم صعدت الفتاتان الى غرفة فريدة وتركتا ظريفة وحدها

كالنار تأكل بعضها ان لم تجد ما تأكله

لم تذكر ظريفة كلامها الرديء الفاسد كافكارها لفريدة بل ذكرت اهانتها الاخيرة لها فارغت وازبدت وبكت وندبت ولا غرو فالانسان (حتى ولو كان من نوع ظريفة) كثير الاهتمام بما يقوله عنه الناس وقليله بما يقوله هو عنهم

وبعد ان بكت فريدة من تأثرها قالت لسوسن

— ماذا فعلت لاجازى بمثل هذه العذابات ؟ هل انا مجرمة أرتكبت ذنباً عظيما اسجن هنا تكفيراً عنه ؟ او هذا التعس مكافأة الطهارة والفضيلة وطاعة الوالدين ـ آه ياربي ان هذه المرأة تجسم لي مصائبي

أما سوسن فقد سكتت لعجزها عن الكلام

مسكينة انت يافريدة المنكودة الحظ ان المجرمين انفسهم يعاملون بالرقة واللطف الان داخل سجونهم في البلاد المتمدنة

التي تأبى ان يعامل حتى المجرم بمثل بربريته فكيف وانت ملاك طاهر ؟ ـ ولكن لماذا بكاؤك وانت قد ضحيت نفسك حبا بما اعتقدته فضيلة وهوذا نار المصائب تحرقها الان والمصائب للنفوس الشريفة بمثابة النار للذهب تمحصه وتنقيه من الزغل

الفصل السادس والعشرون

تلك المباغتة

ارتمت فريدة على سريرها واوعزت الى سوسن ان تذهب وتبتاع لوازم البيت من لحوم وخضراوات وفاكهة في ذلك اليوم فذهبت هذه وابتاعت احتياجاتها وحملتها بسلة ومشت راجعة للبيت فلم تكد تخرج من تحت ,, قنطرة ‘‘ الساحة حتى رأت امام اصطبل العربات عربة وقفت وقد ترجل منها شاب طويل القامة ممتلئ الجسم عريض الاكتاف جميل الطلعة بيده قضيب فلما وقع نظر الفتاة عليه عن بعد عدة اذرع شعرت كان قلبها يدفع قدميها للاسراع نحوه فجدت في السير بقلب مضطرب

لم يكن انقلاب فريد من فتى نحيف الجسم اصفر اللون كما شاهدته سوسن اخر مرة كلمته فيها الى شاب مرتد ثوب الرجولة الحقيقي يمنعها عن معرفته من اول لحظة لانه لم يكن تغير عليها مع انه كان قد تغير عن جميع اهل بلدته فلما التقى النظران هلع

قلب الشاب وحسب ان هذه الصدفة هي باكورة سعوده

ولما رأت سوسن ان اصحاب الحوانيت ومن وجد هناك من الناس كانوا ينظرون الى فريد نظرهم الى رجل غريب عرفت انه خفي عليهم امر معرفته فنظرت فيه نظرة معنوية ثم حولت نظرها نحو الطريق ومشت فلحظ هو حالا مرادها فاستأنف مسيره في الجهة التي اتت سوسن منها ثم عكف الى الشمال واخذ طريقه القديمة بقدمين مضطربتين ولما وصل الى طريق العربات وجد سوسن بانتظاره وهي تنظر نحو الطريق انتظاراً

تحاذت اقدام الشاب والصبية في طريقهما بدون كلام الى ان قطعا البيوت ووصلا الى شعبة طريق المستشفى واذ اصبحا وراء (مدرسة الفرير العظمى وبينها و بين المستشفى) وقف فريد وقال باضطراب سببه سرعة نبضات قلبه وهو يمد لها يده

— حياك الله ياسوسن النقية فكيف حالك وحال اصحابك؟

فازداد قلب سوسن خفقانا وصافحته وهي تنظر اليه بغير العين التي كانت تنظر بها الى „ الفتى فريد" بل بعين محترمة الى شاب ذي مهابة وجلال وجمال كانت تظهر بحركته وقوامه وكلامه ثم اجابت بشيء من التكلف

— كانا بصحة ياخواجه فريد فكيف حالك انت وحال والديك .

فابتسم فريد من لهجتها وقال لها بوداد

ــ ما بالي اصبحت اليوم ,, خواجه '' عندك وقد كنت بالامس ,, فريدًا '' فقط ؟ . هل اصبحت بهذا المقدار غريبا عنك ياسوسن ؟ هل حلت الكلفة مكان الحب ؟ او هل هذه السنوات التي مرت قد محت كل تقرب من قلبك ومن ـ قلبها ؟

ففتح الورد الاحمر على وجنتي سوسن فقالت له باضطراب

ــ لا . لا ليس السنون غيرتنا يافريد وهي لا تقدر على ذلك مهما طالت بل هيئتك نفسها دعتني لذلك ـ انك قد تغيرت كما تغيرت هي

فتنهد فريد من كل قلبه الذي كان يخفق بسرعة وقال :

ــ هل فريدة تغيرت ؟ ـ وماذا تغير فيها ؟

اجابت لا شيء تغير فيها سوى انها نمت جسدًا وكبرت عقلا

فقال متمرمرا : وهل قربها نموّ عقلها او ابعدها عن الذكرى ؟ هل جعلها تلعن ساعة زواجها او تباركها ؟

كان كلام الشاب صادرًا عن قلب معذب مجروح فكان كسهام مسنونة خرقت احشاء سوسن ولا سيما بعد ما مرّ عليها وعلى فريدة في صباح ذلك النهار فجرت دموعها وكان جريها قد اصبح عادة لعينيها وقالت بحزن تمازجه الحدة :

ــ لعن الله من جعلوا حياتها كلها شقية يافريد .

فلما رأى فريد دموعها وسمع كلامها المؤثر تحقق ظنه بعذاب فريدة ولكنه لم يبك معها كما كان يفعل وهو غلام بل صرَّ على اسنانه وقال بحدة :

ـ ان الظلم قد وقع الان ياعزيزتي واللعنات والتذمر لا يفيدان ولا يجدي سوى امرين اما التخلص من الشقاء واما الصبر عليه وفيه

فقالت سوسن : انها صابرة ـ ان صبرها سلاحها الوحيد تجاه هجمات المصائب عليها

فقال هو متحسرًا :

ـ هي سلاحها الصبر فماذا يجب ان يكون سلاحي انا ؟ انها تقدر ان تصبر وتذعن لاحكام الظلم لانها امرأة ,, مطيعة '' كما كانت تقول اما انا فكيف افعل ؟ هل اتأنث فاصبح قادرًا على احتمال ظلمها وظلمي ؟

فجزعت سوسن من لهجته وقالت بوجل :

ـ لا اعرف يافريد لا اعرف . هل تستشيرني بامر انت ادرى مني به ؟

فوضع يده على كتفها وقال لها بلطف :

ـ بل احب ان استشيرك بامر انت وحدك القادرة على مساعدتي فيه

ـ وما هو ياترى ؟

ـــ هو ان غايتي الوحيدة من مجيئي الى عمشيت هي الحصول على مشاهدة فريدة ولو نصف ساعة فقط فهل اقدر عليها ؟

فاطرقت سوسن قليلاً ثم رفعت رأسها وقصت على فريد قصة مخاصمة فريدة وظريفة ذلك الصباح واردفت قائلة بحسرة :

ـ ياويل فريدة و ياحسرتي عليها ان تلك الشيطانة تترقبها لتعدّ عليها ذنباً واحداً لانها تبغضها وتحسدها وتغار منها جداً فكيف تقدر فريدة على مواجهتك وهذه حالتها ؟

فتأوه فريد من اعماق قلبه وقال :

ـ هل اصبحت النسور تحكم من الزرازير ؟ والاسود من بنات آوى ؟ فآه يافريدة ما اشقاك واشقاني ياحبيبتي وما اقل حظنا من هذه الحياة ـ ولكن لماذا التذمر من الدهر وهي بلت نفسها و بلتني والآن دعينا من ذكر هذه الامور الماضية وساعديني ياسوسن على مشاهدتها اذ لا بد لي من ذلك ولو ضحيت لاجل هذه المشاهدة حياتي نفسها

اجابت سوسن ـــ وهب انني ساعدتك فمن يكفل لي رضاها عن الامر ؟

ـ يجب ان لا تخبريها انت بالامر بل احتالي عليها وخذيها الى تلك الخرنوبة التي جلستما تحتهـا اليوم وانا اكون هناك بانتظاركما .

فقالت بخوف واذا غضب علي بعد ذلك ؟ او اذا عرف زوجها وحدثت لها متاعب جديدة ؟ فكيف افعل ؟

فقال فريد موبخًا متنهدًا :

ــ انني اطلب مشاهدتها وسوف احصل عليها تحت اي الاحوال فدعيها تكون على هذه الطريقة خير من سواها .

ــ انك تحملني مسوءولية عظيمة يافريد .

ــ هذا اعرفه ولكن الا تعلمين انه متى عزت التضحية اضمحلت الصداقة ؟

فسكتت سوسن هنيهة قالت بعدها بكل تفكر وحذر :

ــ وكلام الناس اذا انتشر الخبر ؟

اذ ذاك غضب فريد وقال بحدة :

ــ دعي الناس وكلامهم يذهبان الى جهنم . فهل يموت الانسان من ظلم الناس ولا يتجرع دواء حلالاً خوفاً من الناس ؟ فما في اجتماعي بها وانت معها من العار وهو طاهر كاجتماع الملائكة ؟ فالان دعي كل هذه الامور جانباً وكفري عن ذنبك الماضي ياسوسن بان تسعي الى اجتماعنا انك لو سلمتني ذلك المكتوب لكنت خلصت نفسي ونفسها من كل ما يجري عليهما الان فلا تدعي ,, قداستك " المتناهية تحول بين انعاش قلبين قتلهما الظلام غدرًا ومكرًا

فقالت بحسرة :

ـــ وهل انا قصدت ضرركما اذ ذاك ان عملي الاول روح شريرة تحاربني دائماً اذ اشاهد عذاب فريدة ولكن يعلم الله انني قصدت ان افعل خيراً

ـــ انا لا الومك الان ايتها العزيزة فان جهلنا هو سبب انقلاب اكثر الامور علينا واصل اكثر بلايانا ولكن يجب ان تكفري عن ذنبك بهذا الامر الان

فاصعدت زفرة وقالت :

ـــ تجدني اكثر ارتباكاً بهذا الامر الان مما كنت قبلاً .

اذ ذاك فرغ صبر فريد فامسك ذراعيها بيديه القويتين وهزها هزّة عنيفة ثم قال لها بين اللطف والغضب :

ـــ انا اتخذ كل مسوءولية على نفسي واقسم لك بالله وشرفي ان عملك هو عين العدل والرحمة لقلبين انت اكثر من سواك معرفةً بمقدار حرقتهما .

فقالت الفتاة وكأن الهزة التي هزها اياها فريد اثرت بها اكثر من الكلام !

ـــ انني افعل ذلك ولو كان جزائي الموت ـــ فمتى تكون هناك

ففتح فريد ساعته وقال مسروراً :

ـــ هوذا الساعة الخامسة الان (عربية) فهل الساعة العاشرة توافق

— اظن ذلك .

فمد الشاب يداً مرتجفة وابتسم لها باخلاص فناولته هي يدا اكثر ارتجافاً صافحته بها فقال :

— جزاك الله عن الحب والمحبين خيراً ياسوسن .

الفصل السابع والعشرون

اللقاء

ولمّا تلاقينا على سفح رامةٍ
وجدتُ بنان العامرية احمرا
فقلتُ خضبتِ الكفّ بعد فراقنا
فقالت معاذ الله ذلك ما جرى

قضت فريدة نهارها ذلك مضطربة متأثرة مما جرى لها مع ظريفة فلم تذق طعاماً ولم تخرج من غرفتها طول ذلك النهار وقد جرت عادتها انها متى كانت مغتاظة لا تظهر بين الناس الا اذا قدرت على التظاهر بغير ما بها اما في ذلك النهار فكان غيظها بالغاً حداً لا تقدر معه على التظاهر فسجنت نفسها في غرفتها حتى لا تعرض نفسها لسوءالات العالم وتأويلاتهم

وعند دنو الساعة العاشرة وهو موعد التقائها لفريد على غير علم منها جاءت اليها سوسن متوسلة ان تخرجا من ذلك البيت

لطرد الهموم واستنشاق الهواء النقي فابت في اول الامر مفضلة البقاء بالوحدة على الاختلاط بالناس ولكن حصون قلعة قلبها وهت اخيراً امام هجمات توسلات سوسن فنهضت من فراشها وارتدت ثوبها الابيض الذي كان عليها في الصباح اجابة لرغائب سوسن وخرجت مع رفيقتها مدفوعة برغبة اجبار خاطرها

لم تشاهدا ظريفة عند خروجهما فسرتا بذلك ولما بعدتا عن البيت قالت فريدة لسوسن :

ــ الى اين ذاهبة بي ايتها العزيزة ؟

فقالت هذه بدلال ــ واحتيال :

ــ دعينا نذهب الى طريق العربات ــ او الى المستشفى

فهزت فريدة رأسها قائلة :

ــ كلا . كلا . ابعديني عن الناس ما قدرت لانني لا اقدر على النظر الى احد والليلة هي ليلة الاحد و بهذين المحلين جماهير من البشر .

ــ اذن نذهب الى تلك الخرنوبة العزيزة

فلما ذكرت ,, الخرنوبة '' شعرت فريدة بارتعاش لم تعرف سببه ولكنها قالت :

ــ حسن . لانني افضل الانفراد

فخرقتا ذلك الحرج الذي امامهما بصخوره اتخاذاً للطريق الاقرب الى ان وصلتا الى الخرنوبة فقالت سوسن وهي تتقدم

رفيقتها :

— دعينا نجلس بظل الصخر لا فوقه لانه يحجبنا عن انظار المارة .

قالت هذا وهي ترفع حجراً قدمته لفريدة لتجلس عليه ثم احضرت حجراً آخر لها وذهبت في طلب حجر ثالث وضعته مقابلهما فدهشت فريدة من عملها هذا وقالت لها :

— لمن يكون هذا الحجر وليس معنا ثالث ؟

فقالت سوسن وهي تبتسم وتنظر في عيني فريدة :

— انه لروح فريد التي تبسم الينا في وحدتنا .

فانتشرت هيئة الحزن على وجه فريدة الجميل وقالت لرفيقتها بصوت ضعيف :

— بالله ياسوسن لا تهزلي باجدّ الامور واهمها .

فاجابت الفتاة مداعبة :

— ولكن لنفرض ان فريداً موجود في هذا المكان فهل تسمحين له بالجلوس على هذا الحجر معنا ؟

فنظرت فريدة اليها بارتياب كأنها تفحص عينيها ثم قالت وقد صعد قلبها الى شفتيها :

— انني اتمنى مشاهدة فريد لساعة فقط وذلك لكي استغفر منه على ظلمي له ولنفسي بجهلي وقلة عقلي .

قالت سوسن :

ـ اذا كان كلامك صادقاً فقد خدعتني كل تلك المدة الماضية ٠

فتنهدت فريدة قائلة :

ـ وخدعت نفسي ايضاً ٠ اما في هذا اليوم فلا ادري ما هو الدافع الذي يدفعني لمشاهدته ان قلبي مفعم حزناً وغماً وقد اصبحت ارى حياتي نفسها على وجه الارض اوهاماً وخداعاً وكذباً ومظاهرة ولا يوجد سوى حقيقة واحدة امام نظري هي حبي لفريد الذي هو طبيعي لا رياء يمازجه فانا التي بعد أن ضحيت السعادة للابتعاد عنه بالامس لاعتقادي ان في الامر واجباً اصبحت اليوم اعتقد ان هذا الواجب هو في الاقتراب منه ولو بتضحية كل شيء ما عدا الشرف ـ احب ان اشاهده واخاطبه و بعد ذلك اموت ٠

ولم تكد تتم كلمتها حتى سمعت وقع اقدام وراء ذلك الصخر تتقدم نحوهما فبغتت ونظرت في وجه سوسن فوجدته لم يتغير قطعاً فقالت لها بلهفة :

ـ قفي وانظري من القادم ياسوسن

ولكن سوسن بقيت مكانها لانه في تلك الدقيقة نفسها ظهر فريد من وراء ذلك الصخر وهو مرتد ثوباً رمادي اللون وعلى صدره لهجة الشمال فوق قلبه زنبقة كأنها رمز لطهارة نيته وقلبه في ذلك الاجتماع فلما رأته فريدة تدافعت على قلبها جيوش

العواطف فصرعته وللحال ارتمت بين ذراعي سوسن مغمى عليها وظلت على تلك الحال نحو عشر دقائق استفاقت بعدها ونظرت حولها بدهش قائلة :

— هل انا في حلم ؟ وهل من رأيته كان فريدًا ؟

فقالت سوسن وقد اصفر لونها كالموتى خوفاً واضطراباً :

— انه فريد ياعزيزتي فماذا اصابك

فنظرت فريدة اليها بعينين جامدتين وقالت معاتبة :

— آواه ما ابلدك في بعض الاحيان ياسوسن ... اتسأليني عما حل بي انك ياعفريتة كنت على انتظار من مقابلته ولذلك فانك تضحكين مني ...

ومن يلومك ؟ هل انت فريدة .. ولكن اين ذهب .. اين هو الان ...

فقالت سوسن ضاحكة :

— ومن قال لك انني فريدة ...

وكان فريد قد سمع كلام فريدة فوقف امامها الان ينظر اليها وكما ان حرارة الشمس تقع على الزهرة فتذبلها حالاً هكذا حرارة حب فريد التي خرجت من قلبه الى عينيه ووقفت فوق وجه فريدة اذبلتها فطأطأ رأسها من امام نور عينيه بذبول ووضعت يدها على قلبها لتهدئه من الخفقان او تمنعه عن الطيران

اما هو فقد كان اقوى منها واكثر تجلدًا لانه وقف ينظر

اليها باعجاب صامتاً وكان قد تركها برعوماً مطبقاً فوجدها وردة نضرة لكنها واأسفاه — ذابلة

وكانت هي قد فارقته شبلاً فنظرته اسداً

وظل الحبيبان في مكانيهما صامتين وسوسن صامتة معهما كأن قد وقع على الجميع خبل وخيم السكون مع ظل تلك الخرنوبة على روءوسهم الا ما كان من تخاطب القلبين وبعد مضي فترة من الزمن مد فريد يده لمصافحة فريدة ولما رأى ضعف تلك اليد الملقاة على ركبتها وارتجافها وقصورها عن الوصول الى يده جثا امام صاحبتها على ركبة واحدة وتناولها عن ركبتها بكلتا يديه ولبث ينظر فيها وهو كأنه جاثٍ امام تمثال الطهارة والآلام ٠

فبماذا شعر فريد اذ ذاك ؟ شعر ان الحب يدفعه لان يأخذ حبيبته بين ذراعيه ويهرب بها من تلك الارض كما يهرب اللص الذي يسرق جوهرة ثمينة من بيت صاحبها — شعر ان يضمها بتينك الذراعين ولا يحلها عن عنقها الا اذ حلهما الموت - شعر انه يقدر ان يأكلها ويضمها في داخل احشائه حتى لا يعود حتى النسيم يراها ويمر بجانب وجهها — ولكنه حتى في ابان هذا الشعور نظر الحاجز العظيم الكثيف الذي وضعه البشر ظلماً بينه وبينها ٠

فتراجعت عواطف قلبه الى الوراء خوفاً من خرقه وان يكن من وضع البشر وليس من وضع الله - احترمه اكراماً لمن

يحب وصوناً لشرفها من العار وليس لامر آخر — وللحال رمى رأسه ووجهه فوق تلك اليد والقى عليها شفتيه الناريتين واخذ يغسلها بدموعه ويشرق بتلك الدموع ارواء بلاً لظمأ قلبه —

اما فريدة فقد مات شعورها بالكلية — وهنت قوتها امام قوة حبه واحست بان دموعه نار تذيب قلبها وعواطفها ونفسها ·

هذه هي الساعة التي تجري فيها عظائم الامور بين البشر — هذه هي الدقيقة التي يصبح فيها الانسان لهيباً من العواطف يحرق كل ما حوله — وهذه هي الثانية التي يستلم قلب الانسان زمام عقله بالكلية فيصبح مجنوناً ويأتي جميع الجرائم التي يقف عندها عقل الانسان الرائق الذي لا يكون في صدره قلب ينبض بالحب متعجباً ذاهلاً حائراً من صدورها عن البشر ·

وهذا هو الموقف الذي يقدم الانسان بعده على كل عمل يعمله — فهنيئاً لمن يتجاوزه وينظر الى الامور بعد ذلك ·

وقفت سوسن كالصنم تجاه هذا الموقف ولما رأت هيئة فريد وضعف ووهن فريدة خافت وهزت الشاب بكتفه هزة عنيفة ثم قومت رأس المرأة عن كتفها هي وقالت لهما بصوت ضعيف جداً ·

— يافريد — يافريدة — افتحا عينيكما وتكلما — تكلما — امان تكلما ·

ثم اخذت في البكاء وكانت دموعها صلوات حارة وبخوراً

محرقاً لله كي ينجي الانسانية من داء الظلم القتال

وانتبه فريد لذاته من كلام سوسن وكان قلبه الان قد افرغ قليلاً من عواطفه فعرف غلطه من تعريضه فريدة للضعف وربما للضرر او الموت فقال بعد ان ترك يدها ووقف وهو لا يدري ما يقول :

ــ كيف حالك يافريدة ؟

فردت هذه عليه بصوت كأنه خارج من بين القبور وقالت

ـ حالي كما تشتهي العواذل ٠

فصرّ على اسنانه وقال متمرمرًا :

ـ دعينا من الهموم ٠ ان الحياة كلها مظلمة فلا تحسدي نفسك ونفسي على وجود هذه الدقيقة من النور فيها ـــ اجعلي للنور من كلامك نورًا واتركي الظلمة لاوقات الظلام ٠

فنظرت اليه نظرها الذابل ولكنها عجزت عن اشباعه منه لامتلاء عينيها بالدموع ثم تبسمت من خلال دموعها قائلة :

ـ اجلس على هذا الحجر ـ انك قد تعبت وسوسن وضعته هنا على اسمك ٠

فقال باعجاب :

ـــ بل انني افضل الوقوف لانني اقدر فيه على مشاهدة جمالك تاماً ٠

فابتسمت فريدة وقالت بلهجة المرأة المحبة التي تعرف انها

لم تزل محبوبة .

ـ لقد مهرت بفن الخطابة في الكلية .

فقال عابساً قليلاً :

ـ انني ابرع خطيب متى اتيت اصف محاسنك وعذابي بحبك .

ـ بالله عليك يافريد لا تتكلم مثل هذا الكلام

ـ ولماذا ياحبيبتي ؟

فتنهدت قائلة :

ـ لان محاسني بعدك ضائعة وعذابك بحبك هو وحده سبب شقائي والمي

فقال الشاب بهدوء وهو ينظر فيها :

ـ هل دعواك صادقة يافريدة ؟

ـ انني لم اكن بكل حياتي اصدق من هذا اليوم الذي دخلت فيه بحياة جديدة ارتني الحياة القديمة كما هي

ـ وهل عرفت انك كنت بها مخطئة باعتقادك ان الطاعة اوجب من الحب ؟

ـ نعم . نعم . انني اخطأت نحوك ونحو نفسي ونحو الحب المقدس ولكن عن غير معرفة فهل تبغضني من اجل عملي ؟

فنفخ فريد نفخة قوية وقال لها :

ـ كفى . كفى . كلاماً عن الماضي انه كلام موءلم عن ماض.

مظلم وما انت سوى امرأة تشعر بالظلم ولا تقدر على محاربته والانتصار عليه وتدعين التوبة عن امر لا تزالين تفعلينه

فنظرت فيه نظرة خرقت قلبه وقالت بحزن :

ـ لماذا توبخني يافريد الحبيب ؟ لماذا تجعل كلامك حراباً تطعن قلبي لا بلسماً تدمل جراحه ؟ انك اذا كنت تحبني تشفق علي بصفحك عن ذنبي مهما كان عظيماً لان جهلي يشفع بي لديك

وكان كلامها الان حراباً ايضاً صوبتها نحو قلبه فخرّ امامها جاثياً وهو يقول :

ـ اذا كنت احبك ؟ فآواه منك ياقاسية ياظالمة يامتكبرة يامستبدة . انني لو فعلت انا كما فعلتِ وتزوجت لقلت عني انني خائن اما انت فقد دعوت نفسك امينة اذ ذاك فقولي لي الان من الذي تزوج بحبيب . أأنت ام والدك ؟ ومن ذا الذي يتقطع قلبه بالحب الان . والدك ام انت ؟ انني افسخ شرط المبيع اذا اشترى لي احد دابة وخدعني بها فهل الدابة افضل من المرأة في بلادنا هذه المباركة ؟

فارتجفت فريدة من كلامه ولهجته وخافت مما وراءها لان قصده من كلامه كان يظهر بجلاء تام في عينيه فغيرت الحديث قائلة بشيء من الدلال :

ـ لم تخبرني عن دروسك شيئاً

فقال الشاب معاتباً !

ـ وماذا يهمك من دروسي انك لم تسألي عنها كل تلك المدة .

اذ ذاك دنت اليه كما يدنو الغزال الشارد وقالت :

ـ ومن قال لك ذلك ؟ فقد كنت دائماً اتنشق اخبارك وارقص فرحاً عندما اعلم عن فوزك وشاهدت مرة صديقك البرت بك في احد البيوت فدار حديثنا كله عليك وقال لي انك عقد الماس العلوم يحلي جيد الكلية وانك تدرس علم الفقه

فقال مفتخراً ان البرت بك هو مثال الاصدقاء المخلصين وله الفضل الاكبر علي بما انه كان اعظم منشط لي فهو احب رجل الي كما انك انت احب امرأة وفي هذه السنة نلت الشهادة النهائية به

فابتسمت من كلامه فرحاً وللحال رمت كل مصائبها جانباً اذ ذكرت ايامها الاولى حينما كانا لا يجدان لذة بغير التحدث عن المدرسة والعلوم وكان من عادتهما الجلوس جنباً لجنب ووضع رأسيهما متلاحقين يقرآن معاً في كتاب يكون في يد فريد وكل هنيهة واخرى يتبادلان النظرات الطاهرة فيقرآن سور السرور والسعادة بلغة القلوب من فوق قراطيس العيون

وحينما ضحكت فريدة تلك الضحكة التي كانت موسيقى اذنيه الوحيدة رنت لهجة „ فريدة القديمة " في قلبه قبل اذنيه

اذ قالت له مداعبة :

ـ اذن انت محام الان ؟

فقال هو مبتسماً ايضاً :

ـ نعم انا محام

فعضت على شفتها السفلى وقالت ضاحكة :

ـ اعوذ بالله · ان الشيطان جلس بين محاميين وقال ,, الفضيلة في الوسط :

فقال فريد هازلاً :

ـ انك غلطانة بل جلس بين كاهنين وقال ذلك الكلام ·

اجابت · الشيطان افضل بكثير جداً من كثيرين من شياطين البشرية من كل طبقة من البشر يافريد ومن الكهنة من يعد الشيطان ملاكاً عندهم · · · ولكن من المحامين اكثر · · · · وانت تعرف ذلك من نفسك · · ·

فضحك فريد من كلامها ضحكة ارجعته سنين عديدة الى الوراء وقال لها :

ــ ان اخلاقك لم تزل على حالها يافريدة فانك تقابلين اشد المصائب باسمة الثغر واجد الامور هازلة

هنا رجعت اليها هيئة الحزن وقالت بأسف وحسرة :

ــ نعم يافريد ولهاتين الخلتين فضل كبير علينا · اذ لولا هما لكنت واقفاً على قبري وليس امامي الان · فان ابتساماتي

كانت لي صحواً بعد مطر المصائب على رأسي وهزلي صابوناً يغسل عن هذا القلب النفس اوساخ الهموم فان هاتين الخلتين ساعدتا جسدي وان كانتا اتعبتا روحي وسببتا لي بلايا كثيرة

فقال الشاب هازًا برأسه :

ــ هذا ما كنت احذرك منه دائماً ان هزلك يطمع البلداء بك وابتسامتك تحمل اليك مصائب كثيرة من عالم يظنها غير ما هي ويؤولها تأويلاً فاسداً

فتنهدت قائلة :

ــ لقد وصلت الى كل كلمة من كلامك . ولكن من المستحيل ان اغير طبيعة نفسي بالكلية لانني مع كل اجتهادي لم اقدر على الوصول الى الدرجة التي كنت تريد مني ان اصل اليها ــ لم اقدر ان اصير مثلك تماماً

ــ ان مثلك من يعيش بالروح دون الجسد يافريدة

ــ نعم ولكن الاثنين في اشد حالات العذاب

فنظر فيها مستفهماً وقال مداعباً :

ــ وهل كان عذابك كله من اجلي ايتها الحبيبة

فنظرت فريدة في سوسن لاول مرة من حين ابتداء الحديث وقالت لها :

ــ اخبريه الحقيقة ياسوسن فلربما لا يصدقها مني

فقالت سوسن :

ـ لقد اخبرته كل شيء وهو يداعبك الان مع انه يعلم انك دفعت ثمن جهلك من دم قلبك وحياتك ·

فقال فريد معاتباً :

ـ اذا تكلمت فريدة تقول انها تعيدني ولكنها لم تظهر لي غير القول فقد ضنّت علي حتى بجواب كتابي الاول الذي ارسلته اليها من المدرسة ولم يكن فيه سوى العبارات الطاهرة والجمل الادبية وكان بوسعها ان تريه حتى لزوجها وان تجاوبني عنه

فطفقت فريدة في البكاء وقالت بصوت ضعيف :

ـ لما وصلني كتابك الاول كنت قد اقسمت قسما ونويت الثبات عليه للموت

ـ وما هو ذلك القسم ؟

ـ هو انني بعد ذهابك اقسمت بجنبنا الشريف الطاهر انني امتنع عن مخاطبتك او مكاتبتك الى الابد ولم يكن ذلك لشيء سوى لاجلك فقد عزمت على تضحية سعادتي لاجل سعادتك · ونويت التظاهر باني سلوتك لكي تسلوني · لانني بعد ان أفقت لنفسي ووجدت ان جهلي افقدني السعادة لم احب ان افقدك اياها وسعادتك اعزّ عندي من سعادتي · وكنت كلما تقدمت في الحياة خطوة قربت من الحقيقة التي هي معرفتي بان حبك هو قسمي الوحيد من هذا العالم ـ وقسم عظيم هو ـ ومع ظلام حياتي فقد كان فيها كوكبٌ منير هو

كوكب الامل بانك لاتشقى انت كما شقيت انا · وانني فعلت واجبي المقدس اذ حدت عن طريق حياتك لأوسع لك هذه الطريق ·

فاصعد من صدره زفرة حارة وقال لها متلجلجاً :

ــ انك يافريدة خلقت لكي تكوني شمعة تذوبين لتضيئي على غيرك وهذا هو اعتقادك بنفسك من الاول انك · ,, للتضحية وجدت '' وهو الذي جرّ علينا كل هذا البلاء فلماذا انت بهذا المقدار ضعيفة ياحبيبة قلبي ؟ وما الذي يدعوك للاعتقاد انك ,, يجب ان تعطي بدون أن تأخذي '' الا تعلمين ان ما تعطينه لي هو ثمين جداً لديَّ ولا يشترى بغير حياتي نفسها ؟ فاي شيء هو الحب اذا لم يكن مبادلة ؟ وما هو فضله اذا لم يكن اقوى من كل شيء واعظم من كل شيء واثمن من كل شيء وكل شيء دونه ويخدمه لانه سيد الاشياء ؟ فاخبريني ماذا رأيت مني حتى الان ؟

فغطت عينيها بيديها وقالت بكلمات متقطعة :

ـ لا ـ اعلم لا ـ اعلم ·

فقال برجولة واخلاص :

ــ انا اعلم · واحب ان اعلمك الان عن كل وقت انني للابد باق على عهدي الذي اتخذته امام تلك النجوم وذلك القمر في ليلة وداعنا الاخير فهل تذكرين ؟ ــ هل تذكرين ؟ ـ

فكان جوابها زفرة قوية قال فريد بعدها :

— اذن اعلمي ايتها الحبيبة الوحيدة ان سعادتي هي في شهادتي .

وعند هذا الحد دار الحديث بين الثلاثة فكانوا تارة يبكون واخرى يمسحون دموعهم لان فريدة كانت تسرد على فريد سيرة حياتها المحزنة من حين مفارقتها لهم وهكذا بقي الثلاثة في امكنتهم وهم يظنون العالم بعيداً عنهم كما انهم بعيدون بافكارهم عنه بل يتصورون انهم وحدهم في هذا العالم وانه خالٍ الا منهم ولم يستفيقوا لانفسهم حتى نشرت الغزالة حبالها الذهبية فوق البحر فقالت فريدة لفريد :

— اذا مت هذه الليلة اموت شبعانة من السعادة فانا مديونة لك يافريد في كل دقيقة من دقائق حياتي السعيدة وزيارتك هذه جاءت لقلبي كالقطر على نبتة كادت تجف من العطش فهل انا مستحقة حبك هذا — آه يافريد اسمح لي الان بالهبوط من سماء السعادة الى جحيم الشقاء

ثم شهقت فريدة وقالت بلهفة :

— لقد نسينا كل احد ما عدا نفوسنا . دخيلك فريد اخبرني عن والدتك ووالدتي الحبيبة وعن والدك وهل سيدتي والدتك غضبى علي او هي تحبني

فاجابها فريد قائلاً :

ـــ ان والدتي تحبك كما لو كنت ابنتها وهي دائماً تذكرك وتبكي بكاء مراً عند ذكرك وحين تضم صورتك الى قلبها وتقبلها وتبكي تشق صدري ببكائها اما والدي فانه يذكرك دائماً ولا يجري حديث بيننا الا وتكونين انت موضوعه ·

فصرخت فريدة عند سماعها كلامه ورفعت يديهـــا الى السماء قائلة :

ـــ الله يجازي من حرموني هذا البيت الذي كان سمائي ووضعوني بدلاً عنه بجهنم ارضية ـــ الله يحرق قلوبهم كما احرقوا قلبي ويحرمهم سعادتهم كما حرموني سعادتي و يعدمهم حياتهم كما اعدموني حياتي ·

ثم افاقت لحالها فاخذت نفسها لأنها كانت تدعو على والدها وزوجها فندمت في قلبها ولكنها لم تظهر ندمها ثم نهضت من مكانها ومدت لفريد يداً بيضاء صغيرة مرتجفة فاخذها بين يديه ولكنها سحبتها من بينهما حالاً وركضت من وجهه وتبعتها سوسن فلبث هو في مكانه ينظر اليهما بعينين حمراوين من البكاء وهما تقفزان بين تلك الصخور كغزالتين خائفتين ·



الفصل الثامن والعشرون

واذا تآلفت القلوبُ مع الهوى
فالناس تضرب في حديد بارد

رسول الوشاية

لم يرَ اولئك الاصدقاء الثلاثة لاستغراقهم في الحديث شخصاً رابعاً كان مختبئاً بين تلك الصخور القريبة منهم وهو يلاحظهم ويسمع احاديثهم ثم انسل قبل ان يتفرقوا وقفل راجعاً نحو بيت حبيب وهو يحمل سلاح الانتقام من فريدة

كان ذلك الشخص فيليب الذي عند خروج المرأتين من البيت رآهما بدون ان ترياه وهو داخلٌ غرفة ظريفة وقد وقف في النافذة يراقبهما الى ان اتجهتا نحو تلك الخرنوبة فاخبر ظريفة بالامر واتفق معها على ان يذهب في اثرهما واذ كان على مقربة منهما رأى ان شخصاً ثالثاً اجتمع بهما فاقترب حتى عرفه وعند ذلك اضطرمت نار الغيرة في قلبه فاختبأ بين تلك الصخور ليستمع احاديثهم

لا شك ان ,, الانتقام انذ فعلاً من الحب " كما قال فيليب لفريدة يوم طردته من امامها وهذا الانتقام يشبه فرساً جموحاً يركض بالمنتقم من طريق قلة الدين والذمة الى هاوية

الشر الا اذا كان له لجام متين من صوت الضمير الحي

وكانت هذه الفرصة نادرة عند فيليب لبث خمس سنوات يتوقعها فلما حصل عليها صرّ على اسنانه وقال في سره وهو يسمع احاديث الحبيبين التي كانت شبه الحراب التي يطعن بها الاسبانيون الثور في ساعة البراز لكي يحمله الألم على الهيجان

— انك تدعين الطهارة ياست فريدة اليس كذلك — انا لا تحبينني لانك طاهرة امافريد ففي حبه الطهارة — فوالله لاجعلنّ حلاوة هذا اللقاء علقماً في قلبك . انني لم احتمل ما احتملت من التظاهر بحب ظريفة التي كانت حينما اطوقها بذراعي لكي اقبلها اشعر كأن حية التفت على عنقي وريحاً سامة هبت بوجهي وجيفة منتنة وقعت علي — لم احتمل كل هذه الضربات الا لأكون في مقام اقدر معه على الانتقام منك — فالانتقام — الانتقام — ياما احلاه في هذا المقام!

وكان وهو ذاهب الى منزل حبيب يردد قلبه كلمة الانتقام كولد يردد كلمة قالتها له امه حتى لا ينساها فلما وصل وجد حبيباً قد عاد للبيت من مدينة البترون وهو مشتغل بالحديث مع ظريفة فلما دخل فيليب قالت ظريفة لاخيها :

— دع هذا الابن الحلال يخبرك اذا كنت لا تصدقني فقد كلّ لساني من الكلام وانا اشكو لك اعمالك تلك الخائنة الفاجرة وانت لا تصدقني وتصدقها هي فدع فيليب يخبرك الان

عما رأى ٠

فقال فيليب بمكر ماذا اعرف انا انني لا اعرف شيئاً

فصرخت ظريفة بصوت كأنه خارج من جهنم وقالت لفيليب :

ــ هل تنكر انك لا تعرف شيئاً ٠ هل تقول انك لم تنظر فريدة اجتمعت برجل مقدار ثلاث ساعات تحت تلك الخرنوبة ٠ انني كنت اراقبهم تحتها واراقبك وانت قريب منهم فقل الصحيح عما شاهدت وسمعت

فاجاب فيليب مرغباً حبيباً في الاطلاع على السر من جهة ومتظاهراً ببغض الوشاية من جهة اخرى

ــ ان الوشاية للزوج بزوجته تعد اعظم خطيئة ٠ فانا لا اقدر على قول ما سمعت ورأيت

اذ ذاك لعبت نار الغيرة بقلب حبيب فقال لفيليب متوسلاً :

ــ انني استحلفك بحق الصداقة ان تخبرني بكل شيء

فنفض الشاب طوقه وقال بخداع :

ــ دعني من هذه المسألة ياصديقي انا لا احب ان اكون سبب خلاف بينك وبين زوجتك ٠

فاستشاط الرجل غضباً وقال لمن يدعوه صديقه :

ــ اذا كنت لا تخبرني فلا تكون تحبني فان الذمة تفرض عليك ان تخبرني بما تعرفه عن امرأتي

واذ ذاك نفخ فيليب واظهر كدره وغمه من اضطراره الى افشاء اسرار ,, رغماً عنه '' وهز برأسه وتنهد وقال لحبيب :

— انك ادخلتني في هذه المسألة رغماً عني فانا والشرف والصدق وحق مريم العذراء لو اعرف انك هنا لما جئت لانني رجل شريف النفس ولا احب ان يعرف الناس عني مثل هذه الامور ولكن صداقتك عزيزة عليّ انما ارجو ان تأخذ المسألة بالتعقل والصبر وتغفر لفريدة لانها صغيرة السن وهكذا فيما بين هذه الكلمات التي وصفها وصفاً محكماً اخبر فيليب حبيباً بالمسألة ولكن على غير حقيقتها وبكل دقة واحتيال حول صورة ذلك الاجتماع الطاهر من الجمال الى القبح الذي قدر على تصويره بفكره

وكانت ظريفة بين كل جملة وجملة من حديث فيليب تقول لاخيها ,, شفت ما قلت لكش الله يخرب بيتهسا بنت الكلب خانتك وجرصتنا بين الناس الله يقصف عمرها ايش ناقص عليها حتى تحب وتعشق الله ينزل على رأسها صاعقة تحرقها حريق هالمقصوفة العمر ''

فغضب اخوها وقال لها بغضب بعدما سمع كلام فيليب

— ,, انقبري من هوني حاجي تقعّي مثل البومي الله يلعن شوفتك كله منك ''

ثم اخذ يخطر في الغرفة ويعج كالثور ويقول غاضباً :

ــ ساعلمها بنت الحرام كيف تكون الخيانة .

وكانت فريدة وسوسن تمشيان على مهل الى ان وصلتا الى البيت فلما دخلتاه سمعتا صوت ظريفة خارجاً من الغرفة يرن كجرس الحزن فالتفتت الاولى الى الثانية وقالت لها باضطراب :

ــ آه ياسوسن لقد انفضح امرنا فان تلك الشريرة كانت تراقبنا هل سمعت ؟

فوقفت الاثنتان مضطربتين واذ ذاك سمعتا صوت حبيب الاخير فقالت سوسن بقلق :

ــ كيف نفعل الان ؟

فقالت فريدة وهي تفتكر :

ــ تعالي نذهب الى غرفتي ويفعل الله ما يشاء .

وكان حبيب قد سمع وقع خطواتهما وفتح باب فريدة فهجم على غرفتها حالاً وهجمت ظريفة وراءه اما فيليب فانسل من ذلك البيت انسلال الافعوان بعد ان نفث سم وشايته فيه .

دخل حبيب غرفة زوجته واتى الى امامها ونظر فيها والشرر يتطاير من عينيه قائلاً :

ــ اين كنت ياست ؟

فنظرت فيه بشجاعة وقالت له ببساطة كلية :

ــ كنت في النزهة انا وسوسن

ــ في اي مكان ؟

— حوالى المستشفى

فاقترب منها خطوة وقال بغضب كلي :

— ومن القيت هناك ؟

اجابت بصوت منخفض — القيت فريداً ولم اكن اعلم بوجوده هناك

فحملق فيها قائلاً :

— صدفة بغير ميعاد ... فما اشدّ حيلك ولكن هل محادثتك معه كانت „ صدفة " ايضاً كلقائك اياه .

— كلا . بل انه كان برغبة وشوق مني

فهجم عليها ولطمها على رأسها قائلاً :

— انك تقرين بذنبك بغير خوف ياخائنة ؟

فاجابت فريدة وهي تبكي من الالم

— حاشاي من الخيانة — انني غير مذنبة

— أليس في مخاطبتك لمعشوقك ذنبٌ

— كلا . كلا . فاذا ساغ لي مخاطبة كل الناس افتسوغ لي مخاطبته بشرف وبغير ذنب

— اذن انت للان تحبين ذلك المنافق ؟

فقالت بحدة: لاتتهمه بالنفاق انه ارفع من التهمة . اما انني احبه فقد كان يجب ان تعرف ذلك لان حبي له خلق في قلبي وهو طفل وكبر بكبره ولما اشتريت انت جسدي اشتريته

بدون قلبه فما لك حق بالمطالبة بغير ما هو لك ·

فنزل كلامها على رأس زوجها كالصواعق لانه كان يعتقد ان كل الحقوق له ولا حق واحد لها كأنها غير بشرية

وبكل قسوة وبدون عدل هجم عليها كالذئب الضاري وابتدأ يلطمها على وجهها ورأسها فانطرحت على الارض من الالم واخذ يعركها برجليه عركاً حتى تفتت قلب سوسن التي كانت تنظر اليه وتلعن نفسها التي كانت سبب هذه البربرية التي تحتملها صديقتها فهجمت على الرجل كاللبوءة ووقفت امامه ووضعت رأسها في صدره ثم امسكت ذراعيه بكلتا يديها ورفعته عن فريدة بكل قوتها ثم صاحت بها قائلة :

— انهضي أيتها الحمل الطاهر وانا احارب هذا الوحش الذي يجور على ضعفك

وبعد ان جال حبيب وصال هو وفريدة فوق ارض تلك الغرفة فكان تارة يقوى عليها وتارة تقوى هي عليه تغلب اخيراً على الفتاة ورماها الى جانب رفيقتها وخرج غاضباً شاتماً

في تلك الساعة وصل حنا والد فريدة الذي ذهبت ,, ملاك الشر '' ظريفة فاستحضرته فابتدأ باخراج الشتائم والمسبات من جعبة ضميره على ابنته التي هجم عليها واخذ يرفسها برجليه مجهزاً بعمله على بقية القوة التي فيها

عند ذاك استجمعت سوسن قواها ونهضت تريد رده عنها

وتتقي ضرباته بنفسها فنالت نصيبها منها ثم اجتمع الثلاثة عليها واخرجوها خارج الغرفة واوصدوا الباب دونها.

الفصل التاسع والعشرون

هجمة الاسد

لما وجدت سوسن نفسها خارج الباب وفريدة حبيبتها بين ايدي القساة كاد الغيظ يقتلها فعالجت باب الغرفة طويلاً فلم تقدر على فتحه فسقط في يدها ولم تعد تدري ما تفعل هل تنادي الجيران وتستغيث بهم على خلاص فريدة ؟ كلا ان هذا يفضحها فلربما يؤوّل الناس الخبر تأويلاً قبيحاً و يظلمون فريدة بافكارهم وهي بريئة ثم انها كانت لم تزل تسمع صوت انين فريدة من الداخل وصوت والدها وزوجها ينتهرانها و يقولان انها جلبت على اسميهما عارًا لا يمحى ثم سمعت صوت فريدة الخارج من بين اضالع موجعة كأنه خارجٌ من بين القبور تقول:

— اغثني يافريد وخلصني من بين ايديهم انهم كادوا يقتلونني .

فجاءت هذه الكلمة قوة دافعة لسوسن فوثبت حالاً من مكانها وثباً واسرعت الى الخرنوبة كأنها تطير طيرانا فوجدت فريداً لم يزل جالسا تحتها ورأسه فوق يديه يفتكر فلما وصلت اليه

ارتمت على الارض خورا وضعفا وتعبا وهي تلهث وتقول له :

— اسرع اليها يافريد انهم قتلوها — اماتوها ضربا .

فاذ سمع الشاب كلامها زمجر ووثب من مكانه وثبة الاسد واخذ يقفز على تلك الصخور من صخر لصخر وسوسن تركض وراءه وهي تقع حينا وتنهض آخر الى ان وصلا الى بيت فريدة فاصعدته توا الى غرفتها وهنا سمعا من الداخل صوت فريدة يتخلله البكاء وهي تقول :

— لماذا انتم تضربونني هذا الضرب الشديد ؟ ماذا فعلت بكم . ماذا جنيت عليكم . اهذه نتيجة طاعتي لك ياابي الظالم ؟ . اهذه ثمرة اكرامي وصبري عليك يازوجي المجرم ؟ الأنني صادقة تضربونني ؟ او لانني شقية مظلومة مأسورة تجلدونني الا تخافون الله . انت ياابي ياظالم — استغثت بك وقلت لك انني افضل الموت على التزوج بهذا الرجل اجبرتني على الاقتران به فوافقتك واطعتك حتى الموت فهل هذا جزائي ؟ . لماذا لا يكون لي حق عليك كما كان لك حق علي . انت وهو جعلتماني الآن لتنفيذ مآربكما وسروركما فهل خلقت انا بدون حق وخلقت الحقوق كلها لكما . حاكماني اذا كنت مذنبة . اشهرا امري امام افاضل وفاضلات عمشيت ودعوهم يحكمون بامري اذا كنت مجرمة فانني فعلت ما اعتقدته غير ذنب وفعلته صدفة ليس قصداً

فكان جواب الاثنين معاً .

— ,,اصمتي - سدي نيعك ياخائنة ياقليلة الحياء والدين‘‘
ثم رفسها والدها برجله وقال لها :

— اين عدت اقدر ان اخبىء شيبتي من العار الذي جلبته عليها. الله يقصف عمرك و يريحني منك ياخائنة

وكانت فريدة قد تألمت فصاحت بصوت خرق جدران تلك الغرفة ودخل احشاء فريد كالسهم فصرخ هو من الخارج قائلاً :

— لا تخافي ياحبيبتي لقد جئتك — فويل الظلاّم

ثم رفس ذلك الباب برجله فالقاه امامه حالاً ومشى عليه وسوسن من ورائه ودخلا تلك الغرفة التي كانت فريدة مرمية بارضها بلا حراك والدم يسيل من فمها وانفها ووالدها وزوجها واخته واقفون حولها ينظرون بحيرة الى فريسة قسوتهم و بربريتهم

لما وقعت عين فريد المحبة على هذا المنظر لم يعد يبالي بأخذ ثأر الحبيبة بل اصبح اهتمامه الاعتناء بها فجثا بجانبها يناديها بالاسماء الحبية الحلوة ثم احتملها بين ذراعيه ووضعها على سريرها واخذ يجس نبضها و ينصت لنبضات قلبها فعرف انها لم تزل حية ولكنها مغمىً عليها واخذ يعتني بها مع سوسن برش الماء فوق وجهها لتفيق

أما الظلاّم الثلاثة فاذ رأوا باعينهم منظر الاحباء الثلاثة وقع عليهم الخجل فكانوا ينظرون بخشونة الظلم والانتقام الى لطف الحب والصداقة ساكتين وكان اشدهم تأثراً والد فريدة

المسكين لانه في تلك الساعة فقط عرف خطأه وتمثل لديه وامام عينيه مشهد الظلم الذي اوقع به ابنته بأجلى صورة فنظر الى جمال فريد وسوسن وحبهما لفريدة المتجلي فوق ذلك السرير ثم الى ظريفة وحبيب وشرر الحقد يتطاير من عينيهما ثم اخذ يلطم رأسه وصدره بشدة كالمجنون ووقع على الارض يختبط ويختلج كالطائر المذبوح فلم يكترث احدٌ له لان فريداً وسوسن كانا مشغولين بفريدة وحبيب واخته كانا كالتمثالين من حجر لا يتحركان ·

وبعد ان مسح فريد الدم عن فم فريدة وانفها وغسل لها وجهها بالماء البارد احست بلطف يده فوق وجهها ففتحت عينيها ثم اطبقتهما حالاً لظنها انها في حلم ولا تريد ان تستيقظ منه وقالت هامسة ,, اطبق يارب لي عيني الى الابد لاستريح من الظلم ‘‘ ·

وبعد انتهاء فريد من الاعتناء بحبيبته التفت الى من حوله ,, ليعتني بهم ‘‘ ايضاً فاول ما وقع نظره على حنا وكان ملقى على الارض فاقترب منه وهز كتفه بعنف قائلاً :

ــ لا تتظاهر بالاغماء ياحنا · قم وأعطِ حساباً عن اعمالك البربرية · ولكن كلام فريد ذهب عبثاً ولم يسمعه حنا الذي كان جثة هامدة اذ انه وقع للارض ميتاً من ساعته لاعتلاله بعلة القلب منذ زمن مديد فلما اصابته هذه النوبة قتلته حالاً

وارتاب فريد في امره فجلس بجانبه القرفصاء وابتدأ ينصت لنبضات قلبه فعرف انه ميت فوقف شعر رأسه واصطكت ركبتاه اضطراباً لانه مع كل ما صدر منه كان يحبه اذ انه ،، والد فريدة ،، ثم نظر الى حبيب بعين تحترق بنار الغضب وقال متوعداً :

— هل نظرت افعال يدك ياايها الشرير ؟ انك قتلت الوالد ولا يبعد ان تقتل ابنته اذا لم يكن الان فبعده — هو ذهب الى المحكمة العليا حيث يحاكم الان اما انت فسوف يكون قاضيك هنا — انا هو الذي يحاكمك ولكن ليس الان — لا . لا . ليس الان اكراماً لها فقط

الفصل الثلاثون

الحنو النسائي

كانت فريدة بعد ان صحت تسمع كلام فريد فعرفت انها ليست في حلٍ ففتحت عينيها ثانية ووجدت جثة والدها على الارض وفريد بجانبها يهدد حبيباً فتدهورت عن سريرها وصرخت بصوت عالٍ وارتمت فوق تلك الجثة التي كانت لم تزل ساخنة

اخذت المسكينة تقلب وجهه الذي كان لا يزال عابساً بها . وتفتح عينيه اللتين نظرتا اليها نظرات الغضب والحقد . وتقبل يديه

اللتين لكمتاها على وجهها ولما رأت انه قد مات حقيقة انطرحت فوق عنقه تبكي بكاء مرًا وللحال راجعها اغماؤها

وبعد قليل من الوقت صحت فأخذت تناديه بكلام يفتت الاكباد كقولها - يقتلني الله ياابي انا التي قتلتك - آه ما اشقاني. آه ما اتعسني انا التي سببت لك الموت فمت لاعناً اياي الى الابد!

وكان فريد يسمع كلامها ويكاد يموت حزناً لحزنها فامسك يدها محاولاً انهاضها وهو يقول :

- اذا كان والدك قد مات فلا تقدرين على الموت معه

فانتزعت يدها من يده بنزق وصاحت به قائلة :

- بل دعني اموت معه انا الشريرة التي قتلته فلا استحق الحياة بعده

فغضب فريد وقال :

- هل انت سببت موته ؟ لماذا تحملين الذنب وانت بريئة ؟ هذه نتيجة اعماله معك .

فاجابت غاضبة :

- لا تقل هكذا عن ابي - انه بحق فعل بي ما فعل .

فعبس فريد وقد أثر فيه كلامها لحد الحقد وقال لها موبخاً :

- هل انت غير امرأة ؟ ان المرأة تبرهن للرجل عن ضعفها وقلة عقلها اذ تدعي ذنبه لنفسها ارضاء له وضعفاً منها فيصير هو يذنب ويلقي تبعة ذنوبه على رأسها - فاذا كنت

عاقلة الان فدبري امرك بالحكمة حتى لا ترتاب الحكومة بامر موت والدك وتجركم الى المحاكم جرًا

فايقظها كلامه حالاً ونهضت وهي تقول له مسترحمة :

ـ ارحمني يافريد واكتم الخبر عن كل انسان

فابتسم الشاب ابتسامة مرة متعجباً من احتقارها لاخلاصه العظيم وقال :

ـ ألا تزالين طفلة ... انا ذاهب من عمشيت في هذه الدقيقة ولن تريني بعدُ

ثم نظر الى حبيب وقال له حاقدًا غاضباً :

ـ انني لم اقصد تكدير راحتك يارجل وانما قصدت مشاهدة من احببتها قبل ان عرفتها انت واحبها للابد مشاهدة نقية طاهرة شريفة وقد جازيتها انت عن تضحيتها نفسها لك وشرفها بالبربرية فانا اصفح عنك اكراماً لها هذه المرة ولكن اعلم انني اينما كنت بعيدًا عنها فانا قريب لنجدتها وانك ان مسستها مساً بعد الان موتاً تموت!

ثم حول وجهه نحو سوسن وقال لها بلطف :

ـ اما انت فلا تتركي فريدة دقيقة واحدة ايتها العزيزة اذ لا معين لها سواك .

وهكذا خرج بدون ان يكلم فريدة من ذلك البيت وقلبه مفعم حزناً على من يحبها اكثر من نفسه

وفي اليوم الثاني من وفاة حنا مشت الناس بجنازته بكل اكرام والجميع يظنونه مات فجأة

ومن الخوف فقط بقي سر فريدة مكتوماً لان ظريفة وفيليب وحبيباً ارتضوا بما فعلوه ووقفوا عند ذلك الحد ٠

الفصل الواحد والثلاثون

الخطوة الاولى نحو الاستقلال

سجنت فريدة نفسها في غرفتها بعد موت والدها حتى لا تعرض نفسها لانظار الناس فكانت تدعي انها مريضة ولا تقدر على مواجهة احد حتى خلّص اصدقائها الا لبعد خمسة عشر يوماً

وكان الناس يتساءلون عن سبب عملها هذا واكثرهم يقدر على قراءة كتاب ضميرها وان كان مغلقاً ولما عرفوا حقيقة ظلمها رحمها من يعرف الرحمة منهم وكانوا يهمسون بآيات الرحمة همساً فيما بينهم لظنهم انهم ,,يُحرَمون'' ان هم جاهروا بها

وبعد اسبوع من دفن والدها ارسلت فريدة تطلب مواجهة زوجها في غرفتها وكانت لم تكلمه منذ ذلك اليوم الرهيب

وكان الوقت صباحاً وهي جالسة بثوبها الاسود كالراهبة على كرسي امام النافذة ووجهها فوق كفها تنظر نحو الحديقة وتجمع قوى نفسها المتشتتة لمخاطبة زوجها بامر مهم جداً فلما

فتح الباب ودخل منه حبيب نهضت وجاءَت بكرسي فقدمته له فجلس عليه .

لبث الاثنان صامتين لم يتجرأ احدهما على مباداة الآخر بالحديث وكان حبيب قد ندم في قلبه على عمله مع فريدة ولكنه اتباعاً لنصيحة فيليب وظريفة لم يظهر لها ندماً بل جفاء وعبوسة لكي ,, يخيفها " وتظن نفسها انها المذنبة فتنطرح على قدميه طالبة عفوه

وهذه خلة اكثر رجال بلادنا حتى ومن كان منهم مهذباً مرتقياً يعتقد ان المرأة ,, لم يخلق لها اللطف " بل العنف وكثيراً ما يعلي الرجال نساءهم الخشونة من خشونتهم لهن لان المرأة تدفع للرجل من عملته دائماً ورحم الله من قال فيها

انما المرأة مرآة بهــا
كل ما تنظره فيك ولك
فهي شيطان اذا افسدتها
واذا اصلحتها فهي ملك

وجرأتها هيئة حبيب الغضوبة على الكلام بعكس مـــا لو كان لطيفاً فقالت له بحزن يظهر على وجهها كما في ثوبها

ــ لقد طلبتك ياسيدي لاقول لك كلاماً جاء وقته

فاجاب بنفرة :

ــ قولي ما بدا لكــ ,,شو بتريدي ؟"

فترددت قليلاً في الكلام ثم قالت بصوت منخفض وهي تنظر في الارض :

ـ احب ان اطلب منك امراً سقتني الى طلبه باعمالك الاخيرة معي

فاجابها بعبوسة

ـ لا تخافي . قولي . قولي ما تريدين قوله

فتنهدت قليلاً ثم رفعت اليه نظراً ذابلاً وقالت بهدوء :

ـ احب ان اقول لك ـ ان اطلب منك امراً ـ هو ان اكون في هذا البيت شبه اخت لك .

فاجاب بجدة واستهزاء :

ـ ومن يسأل عن واحدة خائنة مثلك . افعلي ما يسرك

فتجاوزت فريدة عن جملته الاولى بكل صبر واجابته عن الثانية قائلة :

ـ لا يسرني مطلقاً ان اكدر غيري ولكنني اقول لك اليوم منذ ست سنوات انني لا احبك ولا اقدر ان احبك وقد قلت لك هذا الكلام مراراً قبل زواجك بي فلم تعتبره وتزوجتني رغما عني وانا غير رشيدة ولا مدركة اما الان فقد وعيت لنفسي وعرفت حقوقها واذ عرفت ذلك عرفت ان لا حق لك بجسدي الذي اشتريته من والدي بالمال اذ كان حقه اما الان فقد صار حقي انا وانا ارى ان بيعه على هذه الصورة عار عليّ لا يمحى فان

رضيت باقتراحي بقيت في بيتك اخدم اوامرك واطيعك اكراما لذكر والدي والا فاني اذهب الى دير للراهبات واعيش فيه بقية حياتي

وكان صوتها يرتجف من التأثر والحزن ولو كان غير حبيب يسمعه لعرف كم هو تأثرها من اضطرارها الى هذا الامر الذي اعتقدته واجباً وضرورياً اما هو فاجابها وهو يرتجف من الغضب والحقد :

— احب ان اعرف من علمك كل هذا الاستقلال ·

فاجابت بحدة :

— انت علمتني بقسوتك الاخيرة واحتقارك العظيم لي واتهامك اياي بالخيانة

ـ انني ضربتك بحق وضربي لك كان قصاصا على خيانتك

فابتسمت غضبا وقالت :

— لقد اخطأت فانا امينة اكثر من كل امرأة تعرفها لانني اعرف معنى الامانة الحقيقي واما حب فريد في قلبي فهو طاهر كما ولد و يبقى طاهراً الى الابد بل انه استاذ لي يعلمني الطهارة والشرف باسمى معانيهما

فاجابها قائلاً :

ـ الا تعلمين ان المرأة متى تزوجت لا يعود لها حق في الاجتماع باحد دون علم زوجها ·

فضحكت ضحكة مرة وقالت له مستخفة :

ـ انت لا تعرف الواجب من غير الواجب . فانك تسمح لدخول الارذال لبيتك ولا تخاف منهم على عرضك اما الاشراف فترتجف منهم خوفا . ولكن هل لك حق انت بقلب لم تمسكه قط ؟ وهل خدعتك انا مرة بان قلت لك انني احبك ؟ انك اشتريت جسدي وقدرت ان تنتزعه من فريد ظلماً وغدراً اما قلبي بعواطفه فبقي له الى الابد وانت يارجل لم تذق طعم الحب الحقيقي لتعرف ما هو ولو ذقته لعاملتني بالعدل اذ ترى شقائي معك وتعرف انني لم اسلبك شيئـاً يخصك بل عشت لك وحدك بالجسد ولفريد وحده بالروح ـ اما الان فاني استرجع جسدي منك ليكون لي وحدي ولكي اجعله مستحقا ان يكون غلافا للروح بطهارته . فلا تخف من شيء بعد الان لان فريداً ذهب عني للابد ولك أن تتركني في بيتك او تطردني منه .

فصرّ حبيب على اسنانه وامتلأ قلبه بغضـاً وحقدا على فريدة ولكنه لم يشأ ان يهينها او يضربها طمعا منه في رضاها القريب وبعد ان سكت مليّاً قال وهو يقف و يرتجف من الغضب :

ـ ستندمين على ما فعلت فاعملي ما تريدين ولكن اعلمي ان لي عليك حق الزوج بشريعة الكنيسة .

فقالت هي بعبوسة :

ـ وانا انيلك كل حق عادل وسترى مني امرأة تذعن

للعدل وتحارب الظلم من الان وصاعداً ولكن قبل ان تذهب اعلم ان لا سلطة لاختك علي مهما كانت

الفصل الثاني والثلاثون

بعد العمل

خرج حبيب من غرفة زوجته وهو يقسم بقلبه ان ينتقم منها اذا ظلت على تصلبها وعنادها وكان يحسب عمل فريدة الوحيد من نوعه في العالم وهي تستحق لاجله ان تقطع ارباً ارباً وترمى لكلاب الازقة

ولم يكن بغضه لسوسن اقل من بغضه لفريدة لان هذه تحبها وتأتمنها على اسرارها ولكنه كتم امره عن جميع الناس وعزم ان يصابر فريدة ظناً منه ان توبتها قريبة

وهكذا بدأ هذا الرجل يشعر بمرارة الكأس التي اذاقها هو لفريدة ظلماً واذاقته هي اياها عدلاً ولكنه لم يقل انه مذنب بل الذنب كله على فريدة وحدها

اما فريدة فبعد ذهاب زوجها سرّت بانزال ذلك العبء الثقيل عن قلبها سرور من يأتي امراً بعد خوف طويل من اتيانه

ثم نهضت عن كرسيها وجثت امام مصلوب معلق فوق سريرها فتلت صلوة حارة وفيما هي غارقة بالصلاة دخلت سوسن

فاومأت اليها بالجلوس فجلست ولما انتهت من الصلاة قامت لصديقتها وعانقتها قائلة :

— انني لم اصلِّ لله في كل حياتي بحرارة مثل هذا اليوم ولم اشعر ان الله قبل صلاتي في وقت مثل هذا الوقت

— ولماذا ياعزيزتي

— لانني صادقة ياسوسن

ثم سردت قصتها مع حبيب على سوسن وعند انتهائها نظرت اليها وقالت لها بلطف :

— هل اخطأت او اصبت بعملي ؟

فقالت هذه بارتباك — لا اعلم

— انا اعلم . لانه اوحي الي من السماء ان افعل ما فعلت لان احوالي شاذة وامري مستثنى وظلمي لا يوازيه ظلم وقد عرفت أن تظاهري الكاذب جريمة احاسب عليها عند من قال ،، ما لم تكونوا كالاطفال لا تدخلون ملكوت السماء '' وهو يعني ان لا يكون في قلوبنا غش وان نقول لكل شيء ان نعم . فنعم . وان لا . فلا .

فتنهدت سوسن وقالت لها :

— وماذا يقول الناس لو عرفوا ؟

— لا ادري وكل ما اقدر ان اقوله انا لهم هو انني خدعت وانا صغيرة فلما كبرت رأيت نفسي اخدع غيري فابطلت هذا

الخداع لاعتقادي انه غير جائز ٠

— وما هو بروغرام حياتنا المقبلة ؟

— هو ان نحول مجاري قلبينا الى عمل الخير المجرد وان نخدم حبيباً بما لا يمسنا بكل امانة وان نبتعد عن مشاهدة فريد ما امكننا ٠

فقالت سوسن بتفكر :

— وهبي ان فريداً سعى للامر بنفسه ؟

— نحبط مساعيه ياسوسن فاحذري انت منه

اجابت هذه وهي تنفض طوقها

— انني تبت ٠ تبت الى الابد فقد كفى ما جرى بسببي اولاً وآخراً ولكن يعلم الله انني قصدت في الحالين ان اعمل لاجل خيركما فانقلبت النتائج على رأسي ورأسيكما معاً

فتنهدت فريدة وقالت :

— يقولون ان التعس اذا ركب الجمل عضه كلب الشمعة ٠ ولكن دعينا نعيش بالعقل دون القلب من الان وصاعداً ياعزيزتي دعينا نعيش كراهبتين ضمن هذا البيت



الفصل الثالث والثلاثون

افكار الرجل بالمرأة

لبث فريد بعد مغادرته عمشيت في مدينة جبيل انتظارًا لما يجد عليه من امر فريدة فلم يعرف عنها شيئًا مهمًا ولم يحب الصعود الى عمشيت لئلا يسبب لها انزعاجًا جديدًا

وكان يشعر من نفسه ان لحاقه بهذه المرأة لا يجلب عليه سوى التعب له ولها فضلاً عن شكوك العالم وتأويلاتهم الفاسدة ولكنه عبثًا حاول نزعها من افكاره لانه كان مقيدًا بها بسلاسل قوية لا يقدر على فكها وبعد ان شاهد ظلمها وعذابها اصبح همه وعذابه من اجلها فقط وقد نسي الحب المسبب هذه الامور ولم يذكر غيرها ٠

ولم يكن له شغل يسكنه في مدينة جبيل سوى استطلاع اخبارها من معارفه واهله العمشيتيين الذين يراهم في هذه (المدينة التي هي شبه ميناء لبلدة عمشيت واكثر مخازنها واملاكها تخصها)

ولكن هذه الاخبار التي يسمعها عن حبيبته كانت تزيد قلقه وارتباكه لانه باستماعه اخبار فريدة من افواه مختلفة يراها بهيئات شتى ايضًا فالرجل الطائش الذي يبغض فريدة لأمر من الامور كان يصورها لحبيبها بصورة المرأة الطائشة الخفيفة كما تراها

او كما „ تحب " ان تراها عينه ويحكم عليها فكره

والرجل العاقل — وقليل هو — كان يضعها في مقام المرأة الحقيقية لجمال وجهها ونفسها وقلبها ولا يفتأ يتأسف على حالتها لانها زنبقة نبتت فيما بين الاقذار ولكن كم ترى يوجد بين البشر من هؤلاء الرجال او النساء الذين يحكمون على اعمق اعماق قلب الشخص عن معرفة حقيقية وبعدل مجرد عن كل غاية سوى غاية اعطاء ذي الحق حقه ؟

لذلك كان اكثر البشر بحكمهم على فريدة من النوع الاول هذا يبغضها فيذمها وذاك يكرهها لسبب ما فيشنع بها والحقيقة تضيع دائمًا فيما بين اراء الناس المتشعبة ولا تظهر الا في الاجيال المقبلة اذ يقوم من يعرفها و يظهرها ولكن فريدة لم تكن امرأة عظيمة لتعيش في الآتي اذا لم تعش في الحاضر فلذلك كان كل ما لها هو الحاضر فقط

وكان جمال فريدة الجسدي متفقاً عليه من الجميع بخلاف جمالها الروحي الذي لم يكن منظورًا بابصار العيون بل بابصار القلوب والنفوس ولم يكن لفريدة اسواء كثيرون ينظرون اليها بعين نفوسهم التي تشبه عين نفسها

وبما ان الايمان الثابت بضعف المرأة امر طبيعي في كل رجل تقريباً باستثناء القليل وكان فريد احد اولئك الرجال فقد كان اعتقاده بضعف فريدة ثابتاً واكيداً وقد برهنت عليه بحبها

له كما زعم ٠

لذلك مع وفرة عقله وادبه كان حتى ذلك الوقت يحسب فريدة ,, ابنة اربعة عشر عاماً ‘‘ باخلاقها الحاضرة او انها في تلك السن قد فعلت ما فعلت عن ادراك تام فكان بحسب زعمه الاول يحسبها قابلة السقوط وضعيفة وجاهلة وبحسب زعمه الثاني يذنبها لاقترانها بحبيب ٠ واكبر ظلم نقدر ان نظلمه شخصاً هو ان نحكم بثبات عقله بدرجة واحدة لا يتغير ونحسب ان الاحوال التي دعته الى فعل هذا الامر تدعوه لفعل سواه من نوعه ولو تغيرت

فكان دائماً ينظر اليها من الجهة المظلمة في الحياة فكانت بفكره معرضة لكل انواع الشرور وقابلة السقوط بكل الزلات وربما كان اعتقاده هذا منبثقاً من اعتقاد اكثر الرجال بان عقل المرأة غير قابل النمو وضعفها لا يزول فهي بزعمهم في الطفولية والشباب والكهولة والشيخوخة ضعيفة خاملة تغلب على امرها بكل شيء كأنها اتخذت قسم الشرور في العالم ,, على حسابها ‘‘

فكان ان رآها بالحلم يراها طائشة خفيفة كفراشة الحقل الجميلة بطيرانها وقابلة الوقوع بكل شرك ينصب لها وان تصورها بعين فكره تظهر له ضاحكة لرجل ما دائماً

كان يعتقد باخلاصها له ولكن يقول ان هذا الاخلاص يوهيه ضعفها النسائي ٠ يعرف انها كانت طاهرة نقية كزنبقة الوادي

ولكنه يهز رأسه خائفاً اذ يفتكر ان كرات التجارب والاغواء تدك اركان تلك الطهارة والنقاوة دكاً

والخلاصة انه كان يحسب فريدة قوية ,, وحدها '' وضعيفة ,, بين البشر '' وكأنه لم يكن بحسبانه هذا يحسبها ذات قوة مطلقاً لان اي فضل يعرف للمرأة اذا لم تقوَ على التجارب وتنتصر على الفساد بالجهاد ؟

ولكثرة افتكار فريد بحبيبته واشتغاله بامرها عن كل امر آخر اصبحت هي وحدها موضوع افكاره وصورتها كانت امامه في كل دقيقة فكانها في بؤبؤ عينيه لا يقدر على نزعها منه ومع ذلك فقد كان يحاول ان ينصفها احياناً بطرد هذه الافكار التي تحاربه عن قلبه ولكنه يعود حالاً فيصدق مخاوفه اذ يقول لنفسه ان فريدة ذات جمال بارع يجعلها في موقف خطر لان الناس تطلبها من كل جانب وهي هازلة بشوشة والهزل زيت يصب على آلة عقل المرأة فيسهل حركتها بيد الرجل فضلاً عن انها محاطة بالقبح والشقاء من الداخل وهي ترى الجمال في الخارج فلا بد لها من طلبه اندفاعاً بالعاطفة وزوجها نفسه يدفعها الى السقوط بخموله وسكره فمن يكفل لي ان فريدة وان تكن شريفة معي هي شريفة مع غيري من الرجال وليس كل الرجال يغارون على طهارتها وشرفها مثلي ؟

هذا هو الباب الذي فتحه فريد لافكاره المخطئة فريدة

ولم يكلف نفسه منعها من دخوله ولو كان اعطى لفريدة فضلاً بالقوة لكانت بطلت كل هذه الافكار لأن المرأة القوية انما تحافظ على شرفها حباً بالشرف ذاته وليس حباً بزوجها او رهبة منه ومتى لم تنشد المرأة الشرف لاعتقادها انه جوهر حياتها وانها بدونه تعد مماتاً فباطلاً تدعي المحافظة عليه لان محافظة الانسان على شيء لاجل شيء آخر لا تعد حقيقية وثابتة ولم تكن فريدة من اللواتي يطلبن الهناء من نفس الشقاء ولا ,, الشرف '' من وسط العار ٠

ولو كان فكر فريد بفريدة كفكرها هي فيه لما خاف عليها شرًا ولو وضعت في وسط الشر فانها تخرج منه سالمة غير ممسوسة كما خرج دانيال النبي من جب الاسود لان ما لا يطلبه الانسان من داخله ويميل اليه قلبه لا توءثر به العوامل الخارجية مهما كانت قوية ٠ ان القوة لا تغلب القوة بل تغلب الضعف ٠

فهي كانت تظن وتثق ان فريدًا يعرفها كما هي تماماً بافكارها ومقاصدها واعمالها وتعتقد ان روحها التي كانت تحب الشرف وتسعى للحصول عليه بدافع حبه كانت توحي اليه تلك المقاصد بواسطة ,, لاسلكية الحب '' مهما بعد بينهما المجال لذلك كانت مهما وفرت متاعبها تجد لنفسها راحة من هذا القبيل

وهذا ما جعلها تنظر اليه بغير العين التي ينظر هو بها اليها فكانت تراه دائمًا شريفًا طاهرًا صادقًا مخلصاً شجاعاً بل هو

ملاك ارضي حاوٍ لكل الصفات الشريفة واطالما باحت باسرار قلبها هذه لصديقتها سوسن بقولها

— اذا العالم كله ظلمني فان فريداً وحده يرحمني — واذا الناس كلها جهلت حقيقة مبادئي وشرف نفسي فهو وحده يعرفها. وما دام هو كل العالم عندي فاني احسب العالم كله معي ويناصرني ويحبني و يرحمني

ولكن واأسفاه ان الخليج الذي كان فاصلاً بين افكارهما الحبية هوان فريداً كان ينظر اليها بعين ,, الروح والجسد " فيحسب شرفها في الحب فتوراً ومحافظتها على رونقه نفوراً اما هي فقد كانت تنظر اليه بعين الروح وحدها فتجده ملاكاً وحبها له من السماء .

الفصل الرابع والثلاثون

الجريمة الفظيعة

في صباح اليوم الخامس من شهر كانون الثاني سنة ١٩٠٧ استيقظ فريد من نومه مذعوراً مضطرباً من تأثير احلام مزعجة اذ رأى في نومه انه كان في عمشيت هو وجمهور كبير من الناس وفيهم الكهنة والقسيسون فخاف على فريدة وحدها من بين اهل بلدته كلهم ولخوفه هذا كان وجلاً من النزول الى السوق لئلا يسمع خبراً مكدراً فلبث في غرفته الى المساء وهو يكاد

يجن قلقاً فلما أعياه الصبر ارتدى ثيابه ومضى الى السوق وحين وصوله لاقاه احد اصدقائه بما حمق احلامه اذ بادره بالكلام قائلاً :

— هل بلغك خبر ما حدث في عمشيت الليلة الفائتة ؟

فارتجف فريد من هذه المباغتة وانتصب امامه شخص فريدة وحدها ملتفاً برداء الخطر فلحظ رفيقه يوسف عليه ذلك وقال له مبتسماً :

— ما بالك اصفر كالموتى ؟ ان فريدة خارجة عن حديثنا وهي بخير فلا تخف عليها فانقشعت حالاً غيوم الهموم عن وجه فريد كأن العالم كله يسلم متى سلمت فريدة فيه وقال ليوسف :

— اخبرني ماذا حدث

— حدث (ان ثلاثة اشخاص ملثمين دخلوا بيت فارس جبور كرم وهو مريض فاوثقوه بالحبال وسرقوا من جيبه مفاتيح مكتبه وانتشلوا منه خمسمائة ليرة وهي كل ما عثروا عليه من النقود وبما ان الرجل مسنّ ومريض فقد خيف من موته ولا سيما وهو قد بقي موثقاً الى الصباح الى ان افاق على صراخه الجيران)

فعبس فريد وقال :

— يالها من بربرية فظيعة اذا مات الرجل فهل عرف اللصوص ؟

— لم يُعرف شيء للان فمن قائل ان اصحاب الفعلة من

اقارب الرجل الفقراء ومن قائل انهم لصوص وغايتهم سلب المال فقط

— ولكن ما الداعي لاتهام اقارب الرجل وهم ورثته بعد موته ؟

فنظر يوسف فيه متعجباً وقال :

— اظنك لا تعرف قصة هذه التركة التي شغلت عمشيت عدة سنوات ؟

— كلا

— اذن انت لست عمشيتياً ؟

— انت تعرف انني ,, اميركي '' المولد وقد دخلت عمشيت طفلاً وخرجت منها غلاماً ولم اعرف شيئاً عن هذه القصة لكنني اعرف الرجل جيداً

قال يوسف :

— اذن اسمع لاسرد لك القصة (ان فارس جبور كرم رجل غنيّ غير متزوج وتركته كلها من عقار ومال تبلغ نحو اربعين الف ليرة كما يقدرها البعض ومن مدة طويلة وهب فارس جبور تركته كلها الى الكرسي البطريركي بموجب حجة شرعية وذلك على عهد السعيد الذكر البطريرك يوحنا مراد ومن الناس من يقول انه اوصى بان يصرف هذا المال في سبيل بناء كرسي مطرنية ودير مكان داره في عمشيت وبما ان للرجل اقارب

كثيرين ومنهم فقراء جدا وقد حرمهم هذا المال فالبعض يقدرون بان اصحاب الفعلة من اقاربه لاعتقادهم ان ماله حلالٌ لهم وخوفهم من قرب حلول اجله فتذهب كل هذه الاموال من بين ايديهم ظلما والناس كما تعرف يحللون لنفوسهم امورا كثيرة بحسب اعتقادهم .)

ففكر فريد في الامر قليلاً ثم قال لصديقه :

ــ قد يكون اقارب الرجل فعلوا تلك الفعلة الشنيعة وقد يكونون لم يعلموا بها واتهموا زورًا والامر الآخر اقرب الى الصواب باعتقادي لان كثيرًا ما يقع الابرياء بغائلة شبهة تثبتها عليهم الاحوال والدلائل وهم براء منها وكثيرون من ,, ضحايا الزمان " يملأون سجون العالم فعسى ان تتعاون الحكومة مع الكرسي يدًا واحدة على معاقبة المجرم وعدم الحاق الاذية بالبريء

فهز يوسف كتفيه كأنه يعرف من امور العالم ما يجهله فريد وقال :

ــ لا نعلم ما يأتي به الغد .

اجاب فريد متأسفًا

ــ ان للمسألة وجوهاً كثيرة للبحث الذي لا تساعدني عليه شواغلي الان

فقال صديقه :

ــ لا اعلم متى اشاهدك مسرورًا يافريد فانك دائماً مشغول

الفكر تائه القلب

فاصعد فريد زفرة وقال لصديقه :

— ولا انا اعرف اذا كان يرجع اليَّ سروري ياعزيزي يوسف .

ثم ودعه ومضى لان قلبه كان ابتدأ ان يقطر دماً ولم يكد يخطو بضع خطوات حتى رأى غلاماً يركض نحوه فلما رآه سأله

— هل حضرتك فريد افندى جرجس ؟

اجاب فريد انا هو فماذا تريد ؟

— ان الخواجا في تلك العربة يريد مواجهتك

فذهب فريد نحو العربة الواقفة على الطريق امامه ولم يكد يدنو منها حتى شهق شهقة الفرح وجدَّ في سيره نحو صديقه الحميم البرت بك الذي كان داخلها

الفصل الخامس والثلاثون

امام تلك المشاهد

لا تخفِ ما صنعت بك الاشواق
واشرح هواك فكلنا عشاقُ

مد البرت بك يده الى فريد وجذبه الى داخل العربة فدرجت هذه بهما بدون ان يقدر فريد على ابداء اقل اعتراض او سوءال ولمـــا اصبح بجانب رفيقه طوقه هذا بذراعيه وتعانقا معانقة حبيبين قد الهب قلبيهما الشوق مع انه لم يكن قد مضى على اجتماعهما سابقاً اكثر من شهر وبعد ذلك نظر البرت بك الى فريد نظرة معنوية وابتسم قائلاً :

ـ لا اظنك تعتذر عن الذهاب الى عمشيت ? ...

وكانت في صوت البك رقة اختلج لهـا قلب رفيقه داخل صدره فقال له بحزن :

ـ وهل انت ذاهب الى عمشيت الان ? انني لم اكن احب الذهاب لولاك . فقد صار لي هنا من اول شهر آب ولم امضِ الى بلدتي

ـ ولماذا هل طردت منها طرداً ?

ـ لا تمزح بامر جدّي محزن ياعزيزي

فتغير لون البرت بك وظهرت عليه علامات التفكر فسأل

ـ ولماذا · هل حدث لك حادث مزعج في هذه المدة يافريد ؟

فقص فريد قصة سفره الى عمشيت واجتماعه بفريدة ونتائج ذلك الاجتماع على صديقه ثم اردف بقوله :

ـ لقد حملتني عواطفي الهائجة على مشاهدتها لمدة قصيرة فقط ومتى هاجت عواطف الانسان في نفسه لا يقدر العواقب ولا سيما متى كان محبا هائما تعسا مثلي فجررت بذلك من احبها اكثر من نفسي الى العذاب والألم ولا ادري ماذا حل بها الان مع انها بريئة وانا المذنب بالامر الا باعتقاد نفسي

فعبس البرت بك وتحسر وقال :

ـ مسكينة تلك المرأة المظلومة مسكينة انها وجدت عرضة لكل عذابات الارض

فسكت فريد ولم يجب انما تجمعت عواطف قلبه المظلمة كلها في تلك الساعة فارخت على وجهه حجابا مظلما فكان صديقه ينظر اليه صامتا وقلبه يتفطر غما على حالته الى ان وصلا الى شعبة طريق عمشيت واصبحا على مقربة من المستشفى فللحال تذكر البرت بك مروره في هذه الطريق منذ ست سنوات مع رفيقه الشيخ يوسف وحديثهما عن مخايل بك طوبيا وفارس جبور كرم وفريد وفريدة · فنظر الى جهة فريد بقصد تغيير

الحديث وقال له :

— هل تعلم كيف هو شعوري الان وفي هذا المكان ؟

— كلا .

— انني اشبه رجلا قد رأى حلما في ليله وهو يُفسّر له في نهاره .

— وكيف ذلك ؟

— ذلك انني منذ ست سنوات كنت مارا من هنا مع صديق لي من المشايخ كان كل حديثنا في الطريق عن فارس جبور كرم الرجل الذي انا ذاهب بدعواه الى عمشيت الان ولم يوقفنا عن الحديث هذا سوى نظرنا اليكما — انت وفريدة — تترجحان ألم اخبرك هذه القصة قبلا تحت تلك الخرنوبة التي تظهر امامنا — انظر !

فنظر فريد نحو الخرنوبة التي كانت انفاسه مع عواطف قلبه تتصاعد اليها وقال بحزن :

ـ ان تلك الخرنوبة ذات فضل جزيل علي فانها مع جمودها شهدت ـ ولربما تأثرت ـ كل عواطف حياتي ففي زمان طفوليتي كنت العب مع فريدة والاولاد تحتها وكثيرا ما انفردنا انا وهي عن رفاقنا وجلسنا في ظلها نبني بيتا صغيرا من الحجارة وندعوه ,, بيتنا " ولم نكن ندري اذ ذاك انه يوجد في العالم ايدٍ ظالمة ستدكه الى الحضيض ولما كنت غلاما شهدت ابرام عهد صداقتنا

الشريفة ـ انت وانا ـ هذه الصداقة التي جاءت لي سندا متينا اتكأت عليه فظللت واقفا بعد ان كدت اسقط

اما في ايام شبابي فقد كان اجتماعي بفريدة تحتها ختما ابديا على آمالي المدفونة في قبر اليأس الان ـــ فياليتني دفنت تحتها طفلاً فتأتي فريدة وتنشر فوق قبري ازهار الحقل الجميلة مثلها .

فقطر قلب صديقه دم الحزن على حالته ولكنه اراد ان يقسي قلبه فقال له موبخاً :

ـــ انك اضعف من النساء قلباً واوهى منهن عزماً يافريد فعيب عليك ان تكون جباناً .

ـــ لا قويّ في الحب ياصديقي وكل عاشق جبان

ـــ انا لا اقبل هذا العذر اذ ان القوة متى وجدت تكون عامة .

ـــ ربما كنت كذلك لانك غير مجرب وقد قيل ,, اسأل مجرباً ولا تسأل حكيماً ''

فاصعد البرت بك زفرة من صدره كادت تشقه ـــ لانه هو ايضا كان على ابواب الحب فان هذا الرجل الاديب الكبير بعقله وفضله كان في نحو الخامسة والثلاثين من عمره ولم يفتح باب قلبه لامرأة ليدخلها اليه ظناً منه ان السياسة تشغله عن الزواج وان حب الوطن يغني عن كل حب سواه ولم يكن يفتكر قبل ذلك الوقت ان في قلب الرجل قرنة قد خصصت لسكن

امرأة ما فاذا لم تملأهـا تظل الى الابد فارغة ولا يقدر على شغلها شيء ما سواها فلما قرعت ابواب قلبه يد الحب لم يبطىء دقيقة عن فتحه فدخلته فتاة بارعة الجمال ذات نفس كبيرة كنفسه وعقل سام كعقله ووجه جميل كوجهه

وكان قد اجتمع بهـا حتى تلك الساعة ثلاث مرات ابرما فيها العهد الابدي الغير منفصم وبادل كل واحد منهما الآخر قلبه على غير امل الاسترجاع

فاخبر فريداً بقصته وهو يبتسم فرحاً مع انه حاول كثيرا ان لا يفعل لان الصديق الوفي لا يبتسم امام بكاء صديقه ولكن عواطف قلبه السعيدة كانت تنشر هيئة السعادة على وجهه رغماً عنه

سمع فريد قصة حبه ففرح معه وتكاف الابتسام حين هناه ليبادله واجب شعوره معه ٠

فانظر مشاهد الحياة المختلفة بكل شيء ٠ ان حب هذين الصديقين كان بعظمته وطهارته وحرارته واحدا ـ ولكن فريد كان حبه لحنا محزنا يغنيه على اوتار عود الشقآء بينما البرت بك يوقعه على مفاتيح ـ اورغن السعادة ـ وللقلوب اهتزازات مختلفة عند استماع هذين اللحنين من الصديقين فسبحان من جعل في اختلاف الامور كمالها ٠

الفصل السادس والثلاثون

تناقض الرأيين

واراد البرت بك تحويل افكار فريد عن محور الحزن والهمّ فقال له :

ـــ انت محام يافريد فأتنا بما عندك من الاراء في دعوى ابن بلدتك ؟

اجاب هذا بحزن ـــ هل المحامي نبي ياصديقي ؟

ـــ ولكنك سمعت بالقصة فهل تظن ان اقارب الرجل فعلوا هذا الامر ام هم لصوص ؟ ان الدعوى مزدوجة لان فارس جبور في حالة النزع وربما مات من تأثير تلك الحادثة فيجب ان يحاكم اولئك الاشرار كقتلة ولصوص معاً

ففكر فريد وقال :

ـــ انا لا اظن ان اقاربه فعلوا ما فعلوا وعلى كل حال يجب البحث الشديد عن المسألة فهل تظن ان العدل يضرب اطنابه هذه المرة ام تذهب هذه القضية في محاكمنا „ العادلة“ كما ذهب وتذهب كل قضية سواها ؟

ـــ من يعلم ـــ اما انا فلا ادري

ـــ اذا كنت انت من رجال الحكومة „ لا تدري“ فهل

انا ,, ادري ''

فتنهد البرت بك من قلب تكويه نار الظلم وقال بحدة واخلاص :

— انت ياصديقي تعلم مثلي ان آفة محاكمنا اللبنانية هي ان اكثر من في هذه المحاكم آلات تديرها يد واحدة هي , يد المال ' لها مساعدة اخرى قوية ايضاً هي يد ,, مراعاة الخواطر '' لان هذه تجر تلك كما تعلم . . . فغداً ترى انه اذا مات الرجل تأمر الحكومة بالقاء القبض على كل اقاربه وجيرانه ومعارفه وخدمه وكل من تقع عليهم الشبهة وتزجهم في السجون وتكون غاية الحكومة الظاهرة في اكثر الاحيان ,, العدل '' ومعرفة المجرم من الاستنطاق ولكن — وصاحب البيت ادرى بالذي فيه — الغاية الحقيقية من اكثر ارباب الحكومة تكون ,, التشديد '' على هؤلاء المسجونين ,, لترتخي '' بذلك براغي جيوبهم فلا يعود يشددها غير ,, الرشوة '' التي تهر في احضان الحكام والمتوظفين والمعاونين والخدم حتى كلابهم التي لا تسمح بدخول المدعى عليهم في باب المحكمة ما لم ,, يبرطلوها '' بعظم يلقون به اليها . . . .

ولا تكاد تطأ اقدام المقبوض عليهم اعتاب سجونهم حتى تكون ايدي الحكام من كبيرهم الى صغيرهم قد امتلأت برسائل الترجي والاسترحام والوعد والوعيد فيخرج حالاً من السجن

من يكونون قد قبضوا ,, مجعوله " بدعوى انه بريء ....
ويبقى الآخر ممن تكون واسطته ضعيفة هزيلة , قيد التوقيف ' استدرارًا لاكثر من ماله ... او من مال غيره ممن يغار عليه فيأخذ اهل الدعوى بالصياح والاستغاثة بعدل الحكومة والحكومة تدعي التفتيش عن الفاعل ولكنها لا تجده ... واهل الضيعة واصحابهم من الضياع الاخرى ولا سيما ذوو المقامات الدينية والمدنية ترسل رسائل الترجي! والتوسط بهم ,, كزخ المطر " ... فمن اين يعرف العدل المسكين طريقه ليدخل الى صدور المحاكم وهذا هو ازدحامها ؟

— أليس من دواء لهذا الداء ؟

— نعم ان له ادوية كثيرة لا دواء واحدًا منها تنزه الحكومة عن قبول الرشوة لان هذه تعني ثمن الحق متى قبضها المتوظف يفلت العدل من يده حالاً لانها لا تسع اثنين ومنها ان ينتخب الشعب صاحب الوظيفة لان هذه الوظيفة تطلبه وليس هو يطلبها لا ان يتوظف فلان اكرامًا لخاطر سيادة المطران فلان وفليتان بامر الوجيه فلان وهلم جرًا لان المطران والوجيه اللذين يسعيان لوضع رجل ما في وظيفة يكونان يبيعانه اياها بيعًا وثمنها ,, طاعته لارادتهما واستعباده لاوامرهما " وانت تعلم مثلي ان ,, مراعاة الخواطر " في جبلنا العزيز سلسلة تقيد اعناق اهله كلهم ببعضها فمن ضغط على عنق تتأثر كل الاعناق ... ومنها ايضًا مساعدة

الشعب للحكومة على اظهار العدل لا على اخفائه بتعقب الجاني كائناً من كان وايقافه امام القضاء ليقدم حساباً عن اعماله. لان المجرم الذي لا تناله يد القصاص العادلة يبقى في بلدته وبين قومه كجرثومة المرض التي اذا لم تقطع يتزايد ضررها في جسم المجتمع الانساني كل يوم عن يوم حتى يميته ولماذا وجدت الحكومة اذا لم يكن لتحصيل حق المظلوم من ظالمه ومعاقبة المجرم على اذيته للبريء ورد الذئب عن الحظيرة ؟

فهل تعلم ياصديقي كم اتألم انا من هذه الامور التي اراها تجري ولا اقدر على قطع شأفتها ؟ ان جريمة كهذه ثانوية لا يهم فيها الترجي بامر المجرم كما يهم في غيرها فان في الجبل وسوريا جريمة هي اعظم جريمة يمكن ان يأتيها بشر هي جريمة ,, الحماية '' حماية المجرم — فريد . فريد . ان بعض الاشرار اصحاب الجنايات السابقة الرديئة ممن سفكوا انهراً من الدماء في حياتهم الشقية في بعض اديرة الجبل من كل الطوائف وبيوت بعض وجهائه الان . نعم وفي هذه الساعة. وحجتهم في حمايتهم من وجه الحكومة هو انهم ,, عضد الدين '' فالمسيحيون يحمون المجرمين من ,, المعتدين '' لكي يحاربوا ,, معتدي '' المسلمين والمسلمون يفعلون ذلك وهذا ما يجعل سيادة دولة الاشرار التي تدمي القلوب الحرة الان لان الاثيم الذي يذهب في ظلام الليل يقتل ويأتي فيمسح يديه بفروة ,, الوجيه '' لا

يرده عن اعماله البربرية الا الموت لانه يظل متعطشاً لشرب الدماء مشتاقاً الى القتل والسلب والنهب ٠

فنفخ فريد نفخة الضجر والحدة وقال لرفيقه :

ـــ انت زهرة من ازهار حكامنا العادلين ياصديقي فعسى ان يتم العدل في هذا الامر عن يدك ٠ لانه يهمني كثيراً ان يعاقب الجاني الذي سبب مرض فارس جبور وربما موته

ـــ هذا مستحيل يافريد فان رجلاً واحداً ورجالاً قليلين لا يقدرون على اقامة العدل التام في وسط كهذا الوسط والجسم متى كان كله سقيماً لا تفيد به بعض اعضاء سليمة كما يضرّهو بها لان القوة غالبة ـــ فغداً ترى انني ارفض انا قبول الرشوة فيقبلها غيري واشدد انا بالعمل فيرتخي به من هو اعلى يداً مني فتضيع الفائدة

ان الرجل الحر المصلح في حكومتنا لا بل في دولتنا كلهـــا الان يشبه محتضراً بين القتلى فكلما رفع رأسه يرى القتلة بايديهم السيوف المشهورة فيخاف ان يجهزوا عليه ولذلك تراه يفضل التماوت على التظاهر بالحياة لئلا يفقدها

ـــ وهل انت من جملة هؤلاء ياصديقي ؟

ـــ نعم لامر واحد فقط ٠

ـــ وما هو ؟

ـــ هو انه خير للوطن ولي ان ابقى في وظيفتي صامتاً من

ان اتكلم واعزل منها

— وما هو برهانك على صلاح هذا الرأي ؟

— برهاني ان الوظيفة بيدي سلاح اذا لم اقدر على استعماله بالمدافعة عن الشعب كل الوقت استعملته بعض الوقت فاذا عزلت منها اخسر هذا السلاح واصبح اعزل . ان الجاسوس في الحرب لا يقدر ان يكتشف اخبار العدو و يعرف مواقعه ومواقفه ما لم يختلط به و يخرق بنفسه صفوفه .

فقال فريد باخلاص :

— اما انا فاخالف هذا المبدأ مع احترامي له . لأنني متى رأيت الظلم سائداً ارفع صوتي منادياً بسحقه مهما جنى علي عملي ومن طبيعة نفسي ان ادخل في كل امر من الباب كصاحب البيت وليس من النافذة كاللص

فضحك البرت بك من لهجة صديقه الحرة وتذكر ان لهجته هو كانت مثلها حينما كان بسنه وقال له بلطف :

— ان مبدأك هو ان تكون اما حاراً كالنـار واما بارداً كالثلج في السياسة كما في الحب وقد كان هذا نفس مبدأي حينما كنت بسنك اما الان فقد عهدت يد العمر ان تأخذ قسماً من الحرارة وتضعه فوق البرودة ثم تنقل من هذه الى تلك فوقع الاعتدال في الامرين ولهذا فانا ياصديقي انظر الى الامور بعين العمل لا بعين الامل فارى اني ان ناديت باعلى صوتي .

ليسحق الظلم ·ليمت الاستبداد·لتحيَ الحرية · يرجع صدى صوتي بقوة هائلة على مقاصدي فيسحقها ويخفت هذا الصوت الى الابد ولكن هب انني على كل حال انادي فبأي واسطة اوصل صوتي الى آذان الشعب ؟ انه يوجد واسطتان تنقلان تموجات الحرية الى آذان الشعب همـا صوت الجرائد وصوت الخطابة فأيهما اتخذ ؟ ان الاحرار لا واسطة لهم لرفع اصواتهم الا بهجران اوطانهم والا فالظلام هنا تخنقها قبل ان تسمع ·

فقال فريد بجدته المعروفة :

— اما انا فسيكون نصيبي الهجر لانني اقصد ان انادي باعلى صوتي : لتحيَ الحرية التي هي حياة الامم ! وافضل ان اهرب من الظلم لا ان اصبر عليه

فابتسم البرت بك وقال :

— حسن ياصديقي العزيز ولكن لو قال كل المصلحين الاحرار قولك فماذا ترى تكون النتيجة ؟ ان يهجر الوطن كل ابنائه المخلصين وينادوا باصلاحه من الخارج ويكون الفساد يتأكل قلبه ولا يقدر احد منهم على انعاشه بشيء وعندما يصلون اليه يجدونه قد مات فيكون عملهم هذا يشبه عمل رفاق ثلاثة لاقاهم اللصوص فاثخنوا احدهم جراحاً مميتة فتركه رفيقاه وذهبا في طلب طبيب له ولكن دمه نزف كله بغيابهما فعند رجوعهما وجده ميتاً وقد كان من الرأي الصائب ان يبقى واحد لمساعدته

وضمد جراحه و يذهب الاخر لاستحضار الطبيب له

قال فريد لكل عقل طريقة ولكل طريقة وجهة في مثل هذه الاحوال قد تكون انت مصيباً بسكوتك وانا على صواب في مناداتي لان الامرين واجبان في الاصلاح

اجاب البرت بك:

ـ بل هما قاعدتاه الاوليان ولا غنى لواحدة منهما عن الاخرى اذ لا يغني السكوت مكان الكلام ولا الكلام موضع السكوت ·

ـ اذن ابقَ انت هنا اهمس آيات الاصلاح في آذان الشعب همساً ودعني اذهب فانادي بها على رؤوس الاشهاد حيث لاتخنق اشواك الظلم ورود الحرية ولا تبتلع حيتان الاستبداد اصوات الاستقلال ·

فاكمد لون صديقه وقال متأسفا :

ـ وهل اعتمدت على السفر الى اميركا يافريد ؟

ـ نعم ان اراد الله · ـ اذ لم يبقَ من حياة لي هنا

ـ ان فراقك يؤلمني · ولكن على امل الرجوع القريب اقول لك اذهب بحراسة الله ومدّ لي من فوق الاوقيانوسين يداً مساعدة في جهادي الوطني

ـ انني بكايتي للوطن ياعزيزي ـــ بل يا اعز الاعزاء واشرف الاحباء ـ من الرجال ··· فهل تظن اننا ننفخ في

رماد او في زناد ؟

– في زناد ياعزيزي فان الشعب السوري اليوم هو غيره بالامس لان المهاجرة ادخلت في اوداجه دماً جديداً من الحرية وحركت في قلوبه شواعر الوطنية وقد وصلت الى اكثر قلوبه باسلاك كهربائية الحرية وهي بانتظار يد قوية تقبض على مفتاح هذه الاسلاك فتنير القلوب حالاً بشعاعها البهي اذ ذاك تعلم انه حتى في شعبنا المحبوب تجد اولئك الرجال الذين يقولون انها كالصواعق لا تعرف الا وقت انقضاضها

– عسى ان تتحقق الاوهام وتتفسر الاحلام

وهنا كانا قد اقبلا على بيت فريد الذي ربي فيه وشبَّ تحت سقفه وامام بابه وفي ظله ذاق لذة حبه الطاهر لفريدة وقضى معها اسعد واهنأ ايامه . فلما نظر فريد اليه شعر كأن حجارته كلها اصبحت فوق قلبه فعصرت دمه وللحال مرت في مخيلته تذكاراته الحلوة كلها فهمرت دموعه واتكأ على جانب العربة واصعد زفرة حارة احرقت قلب رفيقه على حالته

نظر فريد بعين فكره الى كأس الحنظل التي ناوله اياها الحب وهي في يده الان وافتكر بتلك الكأس الحلوة التي كانت على شفتيه منذ سنوات فقال لنفسه يائساً ,, لقد ذهب كل شيء الى الابدية المظلمة الان ! ‘‘

ولما وصلا الى مفرق الطرق قال البرت بك لفريد :

ـ هل تذهب معي ياعزيزي ؟

فاجاب فريد بحسرة :

ـ انني ضيفك ياصديقي لانني اصبحت غريباً شريداً حتى في نفس بلدتي هذه

فاستأنف الحوذي مسيره بامر البرت بك الى دار صديقه صاحب الوجاهة الكافليار سليم بك وهبه التي كانت مقراً له مدة وجوده في عمشيت

الفصل السابع والثلاثون

موت فارس جبور كرم

بعد وصول البرت بك قائم مقام كسروان الذي حضر لاستقصاء الحادثة بنفسه ورفيق ابن ,, عمشيت المظلوم " فريد بيوم واحد توفي (المرحوم فارس جبور كرم متأثراً من تلك البربرية التي لاقاها على يد ثلاثة من الاشرار) .

هذا الرجل الذي وهب عشرات الوف الليرات للكرسي البطريركي لاعتقاده انه عمل بها خيراً عمومياً والذي حافظ على ذلك المال الى ان مات بكل امانة ودقة ـــ كان جزاؤه القتل بيد غادرة اثيمة اية كانت وما هو الدافع لها .

واحدثت ميتة الرجل على هذه الصورة الفظيعة تأثيرا شديدا

على اهالي عمشيت وجوارها من البلدان والمدن والقرى ولا سيما انها كانت الاولى من نوعها في بلدة ترى الجرائم التي مثل هذه نوعاً من المدهشات لعدم تعود مرآها في البلدة او صدورها عن اهلها فكان الناس على اختلاف نزعاتهم واخلاقهم مجمعين على التأسف (على رجل فاضل صالح اشتهر عنه انه لم يؤذ احداً في حياته ولم تدخل ذمته بارة بطرق الحرام)

وتضاربت الاقوال بشأن موته فمنهم من اتهم اقارب الرجل الفقراء لاعتقادهم انهم فعلوا ما فعلوا نكاية به لحرمانهم تركة يحسبونها ارثهم ولهم الحق المطلق فيها ومنهم من قال بل اللصوص غرباء وقصدهم سلب المال فقط اما الحكومة فارسلت والقت القبض كعادتها على كل الجيران والاقارب من نساء ورجال وزجتهم في السجن

وفي اليوم الثاني من وفاة المرحوم فارس كنت ترى طرقات عمشيت غاصة بالناس المتقاطرة من كل حدب وصوب من القرى والبلدان المجاورة واكثرهم من اصحاب الجباب السوداء الذين تراهم في مثل هذه الاحوال اما هابطين من الجرود العالية واما صاعدين من السواحل المنخفضة بهمة لا تعرف الملل وعزم لا يخامره كلل ·

ومن عادات اهالي عمشيت في مآتم اغنيائهم ان ينعوا فقيدهم الى سائر سكان جبيل والبترون وكهنتها واكثر مدن

وقرى كسروان مما يكون لهم معارف فيها وكثيرين ممن يكون بينهم وبينهم نسب او صداقة من امكنة كثيرة في لبنان وسوريا فيجتمع في البلدة الوف من الناس ومن الكهنة مئات واحياناً يتجاوز عدد الكهنة الالف واكثرهم يرغبون في الحضور ليس رحمة لنفس الميت وخوفهم ان حضورهم قد يعوقها في بلوغ طريق السماء بل رحمة لجيوبهم وبيوتهم اذ ان الكاهن منهم يقبض ,, معلوماً '' لا ينقص عن الريالين والممتازين ليرة والمطارنة ليرات عديدة ورب كاهن يكون مريضاً فيطلب ,, معلومه '' مع كاهن آخر من بلدته كأن هذه ضريبة يجب اداؤها ... كما حدث وفعل كثيرون منهم)

وبعد الدفن تنقسم الجماهير قسمين النساء وحدهن يأكلن في بيت الميت (١) والكهنة والرجال يتفرقون على بيوت القرية كلها ضيوفاً عزازاً .

وعشيرتي مؤلفة من ثلاث عشائر العشيرة العُبيدية . والعشيرة الكلاّبية . والعشيرة الكرميّة . ,, التي تتشرف هذه المؤلفة بالانتساب اليها '' فمتى كان الميت من العشيرة الكرمية

---

(١) وكم اتمنى ان تكون عادة افتراق النساء عن الرجال قد ابطلت الان لانني لا ارى من العدل ان يفترق الجنسان وتنفرد المرأة عن زوجها واخيها وابنها في محفل كهذا ولا يتم جمال المائدة ما لم تكن محاطة بالاقمار وعليها ابتسامات كالازهار

مثلاً يكون المنعى اليهم ضيوفاً للعشيرتين الاخريين ولا تشارك عشيرة المتوفى بالضيافة لان الحزن لها ·

ففي يوم كهذا اليوم ترى كل سيدة من سيدات عمشيت مشغولة باعداد الطعام من المثرية التي تكون حول مائدتها مئات المدعوين الى الفقيرة التي لا يكون لها مائدة اذ تكون الاولى تشتغل في بيتها والثانية تساعدها بالشغل

وقد كانت فريدة من جملة المشغولات ايضاً (وان يكن زوجها غير عمشيتي الاصل فقد كانت هي عمشيتية) فان حبيباً خرج اميالاً عن البلدة ودعا فوق الخمسين رجلاً وكاهناً ليكونوا في ضيافته وكثيرون من الرجال يفعلون ذلك لكي يحصلوا على اكثر من سواهم من الضيوف

ولما دنا وقت الدفن تركت كل اشغالها بيد سوسن وظريفة وذهبت لكي تصب قليلاً من دموعها فتفرج بذلك قلبها وهي تجهل وجود فريد في عمشيت

كانت فريدة الان و بعد مقابلتها الاخيرة لفريد قد تغيرت بالكلية من حزنها على والدها ومصيبتها هي فبعد ان كانت تجد سرورها في حفلات السرور اصبحت تجده في المآتم لان في الدمعة وليس في الابتسامة سلواها ·

وحينما دخلت الغرفة التي فيها النعش اصبحت احدى حلقات تلك الدائرة النسائية الملتفة حوله فتحولت اليها انظار

النادبات وابتدأن يندبن لها والدها وهي تشهق وتبكي الى ان تقطع قلبها واغمي عليها وكان الاغماء اصبح لها عادة لضعف قلبها فاحتملتها صديقة لها وخرجت بها من ذلك المكان

ولم يمر بخلدها وهي خارجة من تلك الدار متكئة على ذراع صديقتها كأنها وردة ذابلة انها ترى فريدًا الذي كان واقفاً بجانب الباب وعينه تفحص مفتشة في الداخلين والخارجين عنها

فلما رأته تجددت احزانها وغلبتها عواطفها فوهنت عن المسير واذ رآهـا هو بهذه الحالة اختفى من امامهـا بين تلك الجموع المتألبة لخوفه من حدوث حادث جديد يزيد في حسرته وحزنه ولزيادة تأثره في تلك الساعة تمنى لو كان قادرًا على حملها من بين تلك الجموع والطيران بها او على افراغ مسدسه في قلبها وقلبه فيوقف نبضاتهما ويريحهما من هذا العذاب الاليم

ولكن لو كانت كل الناس تأتي افعالها في اوقات كهذه لكان العالم فوضى لا نظام له ولا عدل ولا فضيلة او صبر فيه — اذ ان الذي يبلغ به القنوط حد الجنون يأتي افعال المجانين فيضر نفسه والعالم معها

فسبحان من جعل عقل هذا الانسان ماسكاً لزمام ارادته في اكثر الاحيان فيوءخر اعمالها لحين هدوء الفكر وصفاء الرأس

الفصل الثامن والثلاثون

الاجتماع

في تلك الليلة التي وصل فيها البرت بك الى عمشيت وفد عليه وجهاء البلدة مع نسائهم للسلام وكان من جملتهم اولئك الوجهاء الذين يمثل كل منهم هيئة خيرية منهم الخواجا فارس شاهين كرم وكيل كنيسة النبي اليشاع التي هي احدى كنائس عمشيت الكبرى للاسرة الكرمية ومدرستها للبنات والصبيان المجانية التي لها فضل قديم على الناشئة ثم وقفية اخيه المرحوم بطرس التي اوقفت لاجل انشاء مدرسة ودير وخصصت لهـا الوف الليرات والى جانبه حضرة شيخ صلح القرية يوسف عبدالله لحود الذي بيده ادارة وقفية كنيسة السيدة ومدرستها للبنات التي لهـا فضل ليس على بنات البلدة باجمعهن فقط بل على بنات القرى المجاورة اللواتي يردنها لارتشاف معين العلوم الصافية منها يليهما حضرة الوجيه طوبيا افندي زخيا وكيل المستشفى العمومي المجاني الشهير الذي بني من مال مخايل بك طوبيا ولم يزل للان اعظم مستشفى في لبنان وبجانبه حضرة الشهم ابن اخيه نخله افندي زخيا المتولي ادارة وقفية كنيسة الرسولين بطرس وبولس لخالته المرحومة مريم وهي كنيسة بديعة الهندسة حسنة الترتيب والبناء

ومن ابدع كنائس لبنان واغناها

وربّ الدار حضرة الكريم الكافليار سليم وهبه صـاحب المأوى اللبناني للعجزة (١)

وكان بجانب القائم مقام حضرة الهمام صاحب السعادة اسعد بك كرم قائم مقام جزين الذي اتى لتلك الغاية ايضاً

ثم عشرات من الوجهاء الذين تفاخر عمشيت بهم ولم اذكر الا من يمثلون هيئة عمومية منهم سواء كانت خيرية او سياسية مع ان عدم ذكر من بقي لا ينقص من اهميتهم وفضلهم شيئاً .

عرف القارىء مبدأ البرت بك الاصلاحي وانه كان لا يدع فرصة الاّ وينتهزها لبث هذا المبدا الشعبي الشريف في صدور قومه فلما اجتمع بهؤلاء الافاضل جعل مدار الحديث على امور اصلاحية متشتتة ومعلوم ان نقطة البحث كانت عن مسألة المرحوم فارس جبور فقال له احد الحاضرين :

ـ اننا نرجو بهذه المسألة عدلاً على يدك ياحضرة القائم مقام فاجاب البرت بك باخلاص

ـــ انني لهذه الغاية اتيت ياسيدي ويجب ان تتيقنوا جميعكم ان قصدي من هذه الدعوى هو ،، ان احصل حقوق المظلوم بدون ان اظلم البريء '' وعلى هذه الجملة تتوقف صعوبة لا يعرفها

(١) هو صاحب جريدة الحكمة التي صدرت في مدينة جبيل مؤخراً .

الا من عانى مشقاتها مثلي في بلادنا العزيزة

قال واشنطون العظيم ,, احب الي ان يتبرر تسعة وتسعون مذنباً ولا يُذَنَّب بريء واحد ‘‘ . وهذه الجملة لا تعني ان لا يستنطق الحاكم احداً تقع عليه الشبهة او لا يبحث عنها بجزم بل ان يدقق ويتمعن ويتحقق قبل اصدار الحكم حتى لا يؤخذ البريء بجريرة المذنب بينما هذا بعيد عن مجازاة الشريعة العادلة

وانا قد وضعت هذه الجملة المتقدمة انفاً امام ناظري في هذه الدعوى فان اعتقادي الخاص هو ان اولئك اللئام قد اتوا فظاعة بربرية يجب ان يجازوا عليها عبرة لسواهم مهما يكن شأنهم وبصفة كوني خادماً للشعب على كرسي الحكم فانا ساتخذ الحذر الكلي ببحثي عن المجرم حتى يعاقب هو ولا سواه على عمله. لان الزيّ المتبع في محاكمنا الان هو ان الحكام يهتمون بامور تافهة في الدعوى فيسهلون للمجرم الحقيقي سبيل الهرب ويتشبثون بسواه من الابرياء الذين اما ان تخلصهم اموالهم واما ان تقع عليهم طائلة القصاص ظلماً اذا لم يكن من ورائهم قوة ... وانما قوتي هي منكم وحدكم .

فقال احد الوجهاء مدهوشاً :

— وكيف ذلك ياحضرة القائم مقام ؟

— ذلك انه اذا ظهر الفاعل وكان صديقاً او قريباً او خادماً لاحد منكم مثلاً فلا تكاد يد العدالة تمسه حتى تدعوكم

لنصرته النعرة الذاتية وتأخذكم عليه الشفقة فتبذلوا الجهد لتخليصه بكل واسطة ممكنة وتضيعوا بذلك العدل والتعب وحقوق المقتول ·

انتم ياسادتي مثلي تعرفون ان حكومتنا اللبنانية الحاضرة قائمة على ركنين قويين هما ,, الرشوة والخاطر شان '' وهذان الامران هما ولا سواهما سبب ضياع العدل في بلادنا هذه وفقدان الاستقلال الذي اهرقنا للحصول عليه اذكى دمائنا فاذا كنتم مع كل فضلكم لا تريدون مساعدة المظلوم بالاقتصاص من ظالمه فمن يريد ؟ واذا اردتموها فما الذي يمنعكم عن اظهار العدل حالاً وانتم ياأصحاب عمشيت من اقدر رجال الجبل ؟

انا لا انكر عليكم انه اذا ظهر المجرم وكان من بلدتكم تستفزكم العصبية للشفقة عليه ورحمته ولكنني انكر عليكم هذين الامرين في مثل هذا الوقت الذي يطالبكم فيه الحق بتحصيل حق المظلوم وانتم عاجزون عن مساعدة الاثنين بوقت واحد فلذلك اتوسل اليكم اذا ظهر قاتل المرحوم فارس ان لا ترحموه لان المجرم لا يستحق رحمة بل عدلاً تأديباً له وعبرة لسواه ·

فقال آخر ورنة الرحمة في صوته

— ولكن الحي افضل من الميت فاذا نحن ساعدنا المجرم نكون نحاول رده للتوبة بنفس مساعدتنا له ·

اجاب البرت بك هازًا برأسه

— هذا هو عين الغلط ياسيدي لانه على رأي ذاك العالم الكبير اميل زولا ,, في كل رجل خنزير نائم '' فاذا استيقظ هذا الخنزير في الرجل اول مرة يتخذها عادة ولا يعود لنومه ما لم تجبره يد العدالة بالقصاص والعقوبة . فالذي يساعد المجرم على نية توبته يكون يساعده على متابعة الذنوب بـاكثر قوة من الاول . اما ان الحي افضل من الميت فلا ارى ان هذا المثل ينطبق على المجرمين ولا سيما القتلة منهم فهل نعد السفاك الحي افضل من الفاضل الميت ؟ اذا فعلنا ذلك نكون ليس فقط نجيز القتل بل نسهل الطريق للقتلة اذ يهون عليهم بدعوى انهم احياء ولذلك هم افضل من الذين اذاقوهم كؤوس الموت بيد غادرة اثيمة . وعندي ان كل رجل يسـاعد على الجريمة ,, بقصد '' يكون مجرماً والذي يساعد عليها بغير قصد سوى الرحمة وعمل الخير يكون عن غير معرفة منه يساعد على انتشارها

اذ ذاك ضج المجلس بالهتاف للرجل الحرّ وأمنوا كلهم على كلامه ثم تنوع الحديث بين اهل المجلس وكان معظمه عن المرحوم فارس جبور كرم فقال احد انسبائه من اهل المجلس

— اذا لم يكن الذين دخلوا على المرحوم واوثقوه لصوصاً حقيقيين فان ثروته تكون قد سببت موته على هذه الصورة الفظيعة ألا تظن كذلك ياحضرة البك ؟

اجاب البك بجرأته المعهودة وقد ادار وجهه الى الحضور

— انني رجل حكومة ولكلامي صبغة رسمية ولكنني رجل حرّ لا اخاف في الحق رجلاً آخر فهل تسمحون لي ببث افكاري لكم هذه الليلة ولا تعدونني متطفلاً على شؤونكم الخصوصية ان فعلت ؟ انا احب لبنان لانه وطني واحب عمشيت لانها تستحق محبتي ولأن لي فيها احباء عديدين لذلك اجاهر بافكاري الحرة لعلمي ان جميع الموجودين اصدقاء ولا جاسوس بينهم فهل تلومونني ؟

فاجاب اكثر الموجودين بصوت واحد

— ان كلامك كالدر ينثر بيننا يابك وما انت بغريب اذا تكلمت في شؤوننا بل قريبٌ باخلاصك وحريتك .

فاستوى البك في مجلسه ونفض دخان سيكارته ثم مصها مصة ووضعها في صحن فضي امامه على المائدة وقال والاخلاص يقطر من كلامه وان كان يمازجه قليل من الحدة .

— كم انا سعيد بوجودي بين صفوة اكارم عمشيت ونخبة رجالهم في احوال كهذه — فاذا انا كلمتكم الان بشأن وطني مهم احسب نفسي مكلماً شطرًا مهماً من اشطار رجال لبنان الذين يلقي عليهم هذا الجبل التعس اتكاله في ايام شيخوخته وفي آذان مثلهم يصرخ مستغيثاً قائلاً بصوت خنقه الظلم ,, لقد داس الظلام باقدام استبدادهم هامتي التي بيضتها الاعمال الشريفة لا السنون وهم يسوّدون باعمالهم الدنيئة هذا البياض الناصع لقد امتهن الاشرار حرمة هذه الشيخوخة فطار صيتي في الآفاق انني

فاسد الاحكام مختل النظام قليل الحركة عادم البركة لا يشبع جوفي غير الرشوة ولا يملأ فراغ قلبي سوى الاستبداد والظلم فاهانوا بذلك كرامة شيخوختي وانسوا الناس قوة شبابي وشرف كهولتي بسترهم اياها بحجب اعمالهم الحاضرة فمنكم ومنكم وحدكم يامن تعرفون الحق والعدل اطلب حقاً وعدلاً منكم انتم ,, يارجال الشعب " اطلب استرجاع عزي الغابر ومجدي الداثر وعلى مناكب وطنيتكم وحميتكم القي اعباء قلبي الثقيلة انا الشيخ الذي ادركني الهرم وهل ظني انني لا اراه ابداً لاعتقادي ان شبابي يتجدد كالنسر من اعمال اولادي واولادهم واحفادهم . فهل تخيبون فيكم ظني ؟ هل تتركون الخراف للذئاب او تساعدونهم في اكلها او تردون تلك الذئاب البشرية عن الحظيرة ؟ اذا كان اصحاب البيت انفسهم لا يهتمون بادارة واصلاح بيتهم فعلى من يتكلون ؟ أعلى الغريب ؟ ان هذا الغريب متى دخل بيتك ووجد جواهركم مطروحة على الارض وانتم لاهون عنها بالعابكم الصبيانية وتهافتكم على الوظائف ونكاية وحسد بعضكم بعضاً ومماحكتكم العدائية وتعصباتكم الدينية التي تدعونها ,, وطنية " يغافلكم ويسرق ما في ذلك البيت من الجواهر ويذهب ضاحكاً منكم ,, وعلى ذقونكم " فيخبر اصحابه بالامر ويرسلهم ليفعلوا كما فعل فلا يزال الواحد منهم يتلو الاخر وكل يسلب ما يجد حتى يفرغ ذلك البيت من نفائسه فتأخذوا في الصياح

حيث لا يعود ينفع الصياح ـ استفيقوا ـ استيقظوا وكونوا رجالا فالرجل الذي يقدم نفسه „ للبط " يظل في هذا العالم ملبوطاً الى الابد اشفقوا على نفوسكم اذا لم تشفقوا علي لانني اوجدت لكم ارضاً لتكونوا بها احراراً فاذا ظللتم على غفولكم تصبحون فيها عبيداً فاحذروا ! "

هذا هو صوت لبنان ابينا الشيخ ياصدقائي فهل سمعتموه من فم هذا العاجز ؟ نعم سمعتموه ولكنني اخال كثيرين منكم يقولون الان : وبماذا نقدر ان نجيبه نحن ؟ وماذا نقدر ان نفعل لجبر خاطره ؟ اننا عاجزون . اننا عاجزون . لان الفساد متأصل وانتزاع جرثومته من اصلها يعدّ من المستحيل

فمهلاً ياحبائي . اذا قلت لكم ان الوطن ليس بحجارته ولا بترابه ولا بمائه وهوائه وشمسه وقمره . لان هذه الامور هي في كل بلاد الله متساوية فبمَ هو اذن ؟ انه بشيء اسمى كثيراً من هذه ـ انه بامور تتفاوت بقوتها وضعفها فتتفاوت بها اوطانها بخمولها وضعفها ـ انه „ بالرجال والنساء " الذين يسكنونه .

الوطنية دار ونحن سكانها ـ نحن العاملون على بنائها فكل منا يقدر ان يعمل شيئاً ليتم البناء ويكون له الفضل انه ساعد فيه وان تفاوت هذا الفضل باعتبار ان „ المهندس " الذي اشتغل بدماغه فضله اكثر من „ العامل " الذي اشتغل بيده فقط

ومن هم المهندسون والنقاشون والبناؤن . هم الممتازون من

رجال الوطن ونسائه — هم انتم وامثالكم من ابنائه

نعم انتم وامثالكم يا اهل عمشيت الوارثين النهضة الوطنية من طارف وتليد فانه من الوجب عليكم مداومة اشعال نار تلك الغيرة المشهورة عنكم نحو الحرية الشعبية فهل نسيتم ذلك العهد الذي جاء فيه داود باشا الى مدينة جبيل وطلب مواجهة وجهائكم فلما مثلوا بين يديه قال لهم ما هو بهذا المعنى !

أحقيق ما بلغني عنكم من انكم ترسلون المؤن والذخائر ليوسف بك كرم وهو خارج على الدولة ويحارب جنودها ؟

فانبرى اكبرهم سناً ومن اكبرهم فضلاً اذ ذاك المرحوم فارس الحود جد الاسرة اللحودية الكريمة واجابه بكل جرأة :

نعم ياافندينا نحن نرسل موءونة الى يوسف بك كرم لانه يطلبها منا ولأننا نعتقد انه مصيب بعمله وليس خائناً للدولة كما ظننتم دولتكم فاذا كنا نحن اهالي عمشيت القادرين لا نساعد رجلاً كيوسف بك فمن يساعده ؟ ثم اننا مستعدون في كل وقت لأن نساعد دولتك اذا طلبت المساعدة منا بامر وطني .

فعجب داود باشا من هذه الجراة واثنى على اللجنة ولم يعد يطلبها منذ ذلك الوقت بما كان يعتقده „ حقه " ....

ثم هل سها عن بالكم عمل ذلك الذي مات وخلف آثاره بعد المرحوم فارس الخوري كرم ؟ فلم يخدم هذا الرجل الفرد الدولة نحواً من ربع قرن كان فيها مثال العدالة التي قدرت ان

تبرزها تلك الايام ٠٠٠ او ليس هو الذي عارض وحده في ارسال مبعوثين من لبنان سنة ١٨٧٧ ووقف في وجه المجلس والمتصرف تلك الوقفة الجريئة فاستمال المجلس كله نحوه بعد ان كان معارضاً له ثم عرض الامر على غبطة البطريرك بولس مسعد وهذا ساعده فلم يرسل مبعوثين من لبنان ولم يفقد لبنان استقلاله كما كانت النية من جانب القوة ٠٠٠ وكان الفضل في هذا لرجل عمشيتي يحق لاهله الافتخار به وبكل عمشيتي خدم الدولة بوظائف كبيرة فان المرحوم فارس الخوري والصديق الكريم صاحب السعادة اسعد بك خود قائم مقام جزين الحالي قد برهنا عن عفة نفسيهما ببرهان قاطع هو انهما رجعا من الوظائف التي تقلداها وهما افقر من يوم دخولهما اليها لانهما باعا اكثر ارزاقهما لكي يطعما من عودهم الحكام ان يُطعموا ٠٠٠٠ وهذا دليل صحة قلبيهما من داء الرشوة المتفشي تفشياً هائلاً بين متوظفي حكومتنا الان

انكم بنيتم البناية – واراكم تسكنونها – فالدقة الان هي في جعلها كبنايات الغير جميلة من الداخل فخمة من الخارج قوية حتى لا تزعزعها العواصف وكيف يتم لها ذلك ؟ يتم لهـا اذا كثرت فيها المدارس – الوطنية – لتقلّ السجون اذا عرف الشعب ان له قوة وكيف يستعملها ليخفف بديموقراطيته اروستقراطية الرؤساء من مدنيين وروحيين – اذا تهذبت نساؤه كرجاله تماماً

ليقدرن على تهذيب الرجال واذا عرف كل رجل من ابنائه انه مطالب نحو هذا الوطن بالخدمة الصادقة

فهل تقولون لي الآن اين هو ذلك المال الذي قال عنه نابوليون انه سبب كل شيء · ؟ اجيبكم ·

انه عندكم · انه في كل بلدة في لبنان · ولكنه ذاهب بغير طرقه فيا سادتي الاعزاء انا قادر ان ادلكم على نحو مائة الف ليرة من عمشيت بهذه الساعة لا حاجة لاحد بها مع ان الحاجة الوطنية اليها عظيمة

فهل تتعجبون وتقولون واين هو هذا المال الذي تعنيه ؟

اذا قلتم اقول لكم انه مال الوقفيات ومنها وقفية المرحوم فارس جبور كرم · ان هذا المال لو جمع لبعضه الان لكان ريعه وحده كافياً لانشاء مدارس وطنية عظيمة تتهذب بها الناشئة · ولاقامة مستشفيات ومياتم تضمد بها جروح الانسانية المعذبة ومكاتب تستنير بواسطتها اذهان الشعب · وجمعيات تصون حق الوطن وحق كل واحد من ابنائه والف امر خيري مفيد ليس للبلدة وحدها بل للبنان عموماً

فبحقكم قولوا لي ياأحبائي ما هي حاجة المعابد الى هذا المال؟ مال الوقفيات — وفوق ذلك كله ما هي حاجة بكركي الى مال فارس جبور كرم ؟ ألكي يصرف على السادة المطارين او على ولائم الوجهاء والحكام والمتصرفين ؟

انا أخرّ ساجداً امام ارواح اولئك العمشيتيين الافاضل الذين وهبوا اموالهم للوقفيات لانهم ارادوا بذلك ان يصنعوا خيراً وكان العصر عصر كنائس واديرة لا عصر مدارس ومعاهد خيرية وادبية وعلمية ولا اتوقف دقيقة واحدة عن القول انهم وضعوا هذه الاموال في ايدٍ سوف تصرفها في الوطن لاجل خير الوطن ولكن على امور مثمرة لا عقيمة لان الذين وهبوا والموكلين مسيحيون وهم لا شك يفعلون بامر المسيح الذي لم يقل لهم ,, اعطوا كل ما تقدرون عليه للرسل والمبشرين باسمي لانهم ورثتي من بعدي '' بل قال لهم بكل عمل من اعماله : اقتدوا بي · واوصاهم قائلاً : اكسوا العراة · اسقوا العطاش · اطعموا الجياع · ومهما فعلتموه مع اخوتي اولئك الصغار فمعي فعلتموه ·

هذه كلمتي يا سادتي ويعلم الله ان الدافع اليها هو اخلاصي للوطن ولابنائه الذين انتم من خاصتهم بل من صفوة الخاصة كما اعتقد واعرف

الفصل التاسع والثلاثون

التمارض

أسخن صدور القوم في تلك الليلة حديث البرت بك بشأن حادثة المرحوم فارس جبور كرم ولكن اذ لم يكن بد من ,, رد

الفعل " في اكثر امورنا نحن السوريين لم يطل الوقت على تلك القلوب حتى ,, بردت " او ان اليأس من عدل الحكومة ابردها وهي لم تزل باردة للان ... فلنترك الجمهور يتفرق شمله وكل واحد منهم يردد قول الرجل ونرجع الى فريد .

ان هذا صرف شهراً كاملاً في عمشيت بالنيابة عن صديقه القائم مقام وكان ينظر بعين واحدة الى حادثة المقتول وبعين ثانية يفتش عن فريدة لعله يراها وكان كله قلوباً تشعر بالشوق الى مشاهدتها وعيوناً تفتش عنها واذاناً تصغي الى كل ما يحكى بشأنها فكانت كل دقيقة من تلك المدة التي صرفها تعد عنده شهراً بل دهراً فيئس اخيراً من حصوله على تلك السعادة لانه عرف ان فريدة مريضة

ولكن هذه لم تكن مريضة بل متمارضة لانها حينما عرفت بوجوده في عمشيت احبت اتقاء الاسباب وكانت بقية القوة التي لها في نزع الموت من جراء المصائب ويد الحب القوية تقبض عليها بكل قوتها فخافت ان تجهز عليها هذه المرة مشاهدته فضلاً عن خوفها ان تعبث بالقسم الذي اقسمته

وكان زوجها قد اصبح بعد معاملتها الاخيرة يظهر لها الحقد والغضب والبغض عوضاً عن المحبة واللطف ويمرمر حياتها بشتائمه ووعيده وتهديده ومعاملته القاسية وهي صابرة ساكتة لا تبدي حراكاً ولم يكن يرضيه عملٌ منها مهما كان شريفاً لانه

كان يحسبها مجرمة بحبها لفريد كأن قيد عواطفها بيدها

اما بغضه لفريد فقد كان لحد الرغبة في قتله لو قدر على ذلك لكي يبعده عن طريقه ولم يعلم انه لو فعل ذلك لازدادت تلك الطريق وعورة .

وماذا كان ذنب فريدة عند اصحاب العدل ؟ ألأنها لم تهدم بنيان قلبها ونفسها من جديد فتنزع منهما حب فريد وتضع مكانه حب زوجها تعد مذنبة ؟ انها اخبرته قبل ان يتزوجها انها لا تحبه ولا تحب غير فريد . توسلت الى والدها ان لا يزوجها به . طردته من امامها وودت الموت على رؤيته فازوجوها ظلماً وهي على حالها فمن الملام ؟ ان حبيباً جلب على نفسه العذاب بنفسه لانه اغتصب ملك غيره وهذا الغير يطلب استرجاعه الان . انه تجرّأ على مقام لم يكن اهلاً له لا بجماله ولا بسنه ولا بتهذيبه فطرد منه وهذا نصيب كل متطاول يجلبه مختاراً

اما حبيب فلم يكن يحسب نفسه انه مذنب ولو كان يعرف كل ذلك ولهذا السبب تراكمت عليه الهموم فاستنجد على دفعها بصديقته الحميمة ,, الخمرة '' واكثر ادمانها لاعتقاده انها مفرجة الكروب فكانت مجلبة الخطوب غدا هو يسكر وفريدة المسكينة تتحمل مضض البلوى من نتائج السكر .

وفي ذات يومٍ حينما كان فريد في عمشيت دخل حبيب غرفة زوجته يترنح سكرًا واخذ يهذي ويتكلم كلاماً قبيحاً خشناً

امام سيدتين من صديقاتها فكادت المسكينة تذوب كمداً ولم تتجرأ على قول كلمة لخوفها من انفجار بركان غضبه فينتهي الامر الى اعظم ولم تكد السيدتان تذهبان حتى اقترب من سريرها وقال لها مستهزئاً :

— يامسكينة انك تكادين تموتين من المرض

فتساقطت دموعها وقالت :

— انني لا اعلم بما ارضيك فلو كنت كعادتي اخرج من البيت الان لقلت انها تلاقي حبيبها وتجتمع به واذقتني مر العذاب من اجل ذلك فتمارضت بغية ارضائك وابعاد الغيرة والشك عن قلبك فاراك تتهكم عليّ وتستهزئ بي فهل خلقك الله يارجل لتتولى تعذيبي ظلماً

فضحك ضحكة هائلة وقال :

— ما زلت لا تحبينني لا اتحول عن تعذيبك

— انني انا لا اقدر ان احبك لان شعوري لا يطاوعني وقد قلت لك ذلك بوقته فما بالك تعذبني لاجل امر هو من الله وليس مني

— كل امرأة مجبرة ان تحب زوجها الا اذا كانت خائنة مثلك .

فتحرك ألم فريدة وقالت بحدة :

— كل امرأة تقدر ان ,, تحترم '' زوجها ولكنها لا تقدر

ان تحبه اذا كان الله لم يخلق بقلبها حبه لان الحب ليس من صنع الايدي بل هو شرارة من روح الله يرسلها الى القلوب ٠

فهاجت بالرجل اشواقه الحيوانية واقترب من زوجته يريد معانقتها ولزيادة سكره وقع فوق وجهها فكاد يخنقها من ثقل جسمه ودمه ورائحة المسكر المنبعثة من فمه فصاحت بهِ وهي تدفعه عنها قائلة :

— لا تعانقني معانقة الذئب للنعجة — ابعد عني لقد فطستني ٠ انك قد زرعت في قلبي بذور القسوة والخشونة فلا يحق لك ان تحصد غلال اللطف والحب

ارجع كلام فريدة زوجها لصوابه فانهض رأسه عن وجهها ونظر اليها بغضب ثم ابدل تلك القبلة التي كان يريدها بلطمة شديدة على وجه المسكينة صرخت لاجلها بصوت عالٍ من الالم وخرج هو من الغرفة ساخطاً

الفصل الاربعون

ذلك الاخلاص النادر

سمعت سوسن صراخ فريدة وكانت خارج الغرفة فدخلتها مسرعة لعلمها ان نتيجة اجتماع الزوجين كانت دائماً الضرب واللكم يعقبهما البكاء والالم فعانقت صديقتها قائلة وهي تبكي كبكائها :

— انك تسيرين نحو القبر بخطوات بطيئة ياعزيزتي

فاجابت تلك وهي تشرق بدمعها

— ياليتها كانت حثيثة ياسوسن لعلي اجد في ظلام القبر راحة لا اجدها في ضياء هذا العالم ·

— ولكنك جريئة يافريدة وقد تعودت مثل هذه الامور فيجب ان تتغاضي عنها ولا تسمحي لها ان توءثر بك لهذا الحد

— وانت ايضاً توبخينني ؟ فهل انا من غير الطينة البشرية ؟ آه ما اهون القول عند العمل · فحتى انت — ومن هي انت — تقدرين على زجري ياعزيزتي لانك تشعرين معي ولا تشعرين بقلبي · فقولي لي بحقك هل رأيت في منامك من ذاقت مثل عذاباتي ؟ ان قلبي في (صندوق) حديد ودمه يقطر امامي نقطة فنقطة وهذه النُقَط هي قوته الذاهبة فهل بامكاني ارجاعها ؟ تقولين لي الصبر · الصبر · الصبر · وانا اعرف هذا الامر ولكن هل الصبر على شيء يعني عدم وجوده وعدم الشعور به ؟ ان فادينا ذاته طلب من ابيه السماوي ان يبعد عنه تلك الكأس ولكنه عاد فتجرعها بكل شجاعة وهذا يدلنا على ان الانسان مهما كانت فضيلته سامية وصبره عظيماً لا بد له من الشعور ولكنه يصبر على ألمه · فدعيني اذن من اولئك الناس الذين لا يحسبون لاحد فضيلة بشيء لانهم يضعون على العالم احمالاً ثقيلة جداً ولا يلمسونها باطراف اصابعهم · انهم يرون ولا يشعرون والفرق

بين الامرين عظيم وقد قيل ,, الذي يأكل العصي ما هو مثل الذي يعدها '' فآه ثم آه .

اجابت سوسن بحسرة

— انا اعرف ما بك ياحبيبة قلبي واقدر فضلك وصبرك حق قدرهما ولكن اذا رأيتك في مثل هذه الحالة فماذا اقول لك؟

— لا شيء قطعياً — ارحميني بقلبك وضعي رأسك ازاء رأسي صامتة وساعديني في البكاء فان دموعك الحلوة تحلي مرارة دموعي

— لقد بكينا نحو ست سنوات ولم يجدنا البكاء نفعاً

— وربما بقينا على بكائنا للابد بدون جدوى ولكن الدموع هي دم القلب تصفيها العينان كما يصفي الغمام ماء البحر ويصيره حلو المذاق فاذا سكبناها تخفف عن القلب قليلاً مما بهِ

— آه يافريدة لا اعلم لماذا بليتِ بهذا الشقاء وبليت انا بهِ معك

فنظرت اليها فريدة بيأس وشك وقد خارت قواها من خوفها وقالت لها بحزن :

— هل بدأت تتضجرين ؟ وهل يبلوني الدهر بكل شيء. فارى اصدقائي كازهار الربيع تذبل الواحدة منها تلو الاخرى؟ آه ياسوسن هل يصح فيَّ قول ذلك المثل . ,, ابكي والعالم يضحك منكِ . اضحكي والعالم يضحك معكِ ''

ولم يدرُ في خلد سوسن حين لفظت كلامها ان فريدة تؤوله هذا التأويل البعيد عن قلبها المحب المخلص فلما سمعت كلام صديقتها عضت على شفتها السفلى حتى كادت تدميها ثم قامت اليها فعانقتها قائلة بحنو الام لولدها:

— تقبريني يافريدة . انني وحياتك لا اعني بتذمري ضجري منك لان سعادتي هي في مرافقتك — في مشاطرتك احزانك وافراحك — فاذا تذمرت من العذاب لا يكون تذمري منه لانه عذاب" بل لانه يمرمر حياتك . انت الا تصدقين كلامي ايتها الحبيبة ؟

فكان جواب فريدة ان بادلتها قبلاتها الحارة وقالت لها :

— هل اشك في اخلاصك ياأشرف الاصدقاء والصديقات فوق الارض وعليها ؟

هل اشك فيك انت التي تركت اهلك وبيتك وتبعتني لتساعديني بحمل صليبي — لتقبري معي حية — انت التي فضلت العذاب معي على الراحة بعيدة عني ؟ فمن مثلك بين البشر ؟ من مثلك ؟ يامن هي افضل من الام والاب والاخت والاخ وكل العالم .

فاجابت سوسن بكل هدوء وهي متعجبة من شكر صديقتها لها على امر تراه هي ,, واجباً محتماً " عليها وقالت :

— لا شكر على الواجب يافريدة فانا معك لانني احب

ان اكون معك وليس لانني ،، مرغمة ‟ على الامر انا سعيدة بصداقتك لان اعظم سعادة لقلبي هي في الافتكار بانني سلوى وعون للمرأة التي احبها في اوقات مصائبها اذ ما هي فائدة الصداقة الحقيقية اذا لم تكن بلسماً لجروح القلوب في اوقات احزانها كما تكون موسيقى لانعاشها في اوقات افراحها ؟

فنظرت اليها فريدة من خلال دموعها وقالت برقة :

— وهل استحق انا هذا الاخلاص السماوي آه يا ربي . لماذا لا تنقلني اليك وتريح سوسن الحبيبة من التعذب معي .

— كفى . كفى . يافريدة . انك الان تزيدين عذابي ولست تخففينه فاذا اردت انقاصه حقيقة فخففي عذاب نفسك . اجتهدي ان تبتسمي امامي . ان تبشي بوجهي ولو تظاهراً لاقول انك مسرورة — لماذا تهزلين وتضحكين وتسرين مع كل الناس ولا تتعذبين الا امامي فقط لتفطري قلبي بعذابك فهل انا وحدي المستحقة مرأى عذاباتك

— نعم لانك انت وحدك التي ترين صورة حياتي الحقيقية اما الناس فيرون الوهمية فقط

— عامليني كغيري من الناس مرة واحدة في الشهر

— هل تصدقين تظاهري وانت السامعة والناظرة والمختبرة

— اجتهد في ان اصدق .

فابتسمت فريدة من قلب يتصدع حزناً ونزلت من سريرها

واخذت ترقص امام سوسن بقدها الاهيف وتقول لها ضاحكة هازلة :

ــ غني لي لارقص ·

فضحكت سوسن ايضاً وجلست على كرسي واخذت تصفق بكفيها بهدوء وتغني بصوتها الرخيم بصوت منخفض جداً

عا الكركبي · عا الكركبي · والدب هدّ المصطبي

ثم غسلتا قليلاً من هم قلبيهما بضحكة طويلة ــ ولكنها متكلّفة ·

الفصل الواحد والاربعون

المبادىء الاصلاحية

مكث فريد في عمشيت شهراً كاملاً يبحث في قضية المرحوم فارس جبور فكانت تزيد تعقداً يوماً عن يوم ولما رجع صديقه القائم مقام ثانية قال له بيأس حين مقابلته :

ــ ان هذه المسألة اعقد من ذنب الضب ولا اخالها محلولة ابداً

فهز ذاك رأسه قائلاً :

ــ هذا ما كنت احسبه ·

ولم يمكث البرت بك هذه المرة اكثر من يومين وفي اليوم

الثالث كانت عربة تطوي بيوت عمشيت بخروجها منها طي السجل داخلها البرت بك وصديقه ووجهتهما مدينة بيروت ولما بعدت بهما العربة عن عمشيت واصبحت هذه وراءهما نظر البرت بك الى صديقه قائلاً :

— يتهمني البعض يافريد بالتطرف بالحرية ومقاومة الرؤساء الروحيين والمدنيين بغضاً في شخصياتهم او وظائفهم لا في اعمالهم ويظنني غيرهم فوضوياً او اشتراكياً متطرفاً اعمل على تقويض اركان الدين والحكومة والحقيقة التي لا يجهلها رجل عاقل هي انني اكثر الاحرار اعتدالاً بمبادئي التي هي ان يحتك التطرف والتعصب ليصدر عنهما شيء ثالث هو ,, الاعتدال '' الذي اطلبه واعمل كل اعمالي باسمه كما رايت مني

فانني رجل تعلمت في كلية الاباء اليسوعيين واحب الاكليروس الصالح الى حد الوله واحترمه الى حد التقديس ولا يقل حبي واعتباري لرجال الحكومة المنزهين المصلحين العادلين عنه لرجال الدين الاطهار لاعتقادي ان الدين واجب للبشر وجوب الروح للجسد وان المجتمع الانساني بدون دين كالجسد بدون روح ميت الاداب والفضائل السامية لان الدين هو منبه لشواعر الانسان الخية ورادع له عن الفساد وبكلمة مختصرة وعامة هو عصا التأديب للخنزير الذي في داخله لا يردعه عن اعماله سواها . ولم ازل اذكر مقالة لي نشرت في احدى الجرائد الوطنية

قلت فيها مخاطباً الكفرة ,, لنفرض ان الدين لم يكن وحياً ولا هو منزل ومقدس فهل تقدرون على نكران كونه اشرف واسمى واقوى الشرائع الادبية المفيدة والضرورية لبني البشر '' وما يقال عن ضرورة الدين للروح يقال عن ضرورة الحكومة للجسد لان الانسان لولا الشريعتان المدنية والدينية لكان وباءً فاتكاً باعماله على وجه الارض

وان ما يؤلمني كثيرًا هو ان ارى اكثر رجال هاتين الفئتين ذوي استبداد وظلم وفساد وشر يضعون على اعناق ومناكب الشعب اثقالاً عظيمة ولا يحركونها هم باصابعهم على حين انهم وجدوا لكي يخففوا عنه حمل هذه الاثقال

فهؤلاء الذين جعلهم المسيح ,, رعاة القطعان '' يأكل أكثرهم الخراف وينعمون بصوفها ويمتصون دماءها فيبعدون بعضها عن الحظيرة باعمالهم هذه ويعلمونها الشرور ويسحقون البعض الاخر ضغطاً . تحت صلبان اثقالهم ومظالمهم ونير استبدادهم لان عامة اهل بلادنا ياصديقي تحسب الدين الحقيقي هو في شخص خادمه

واولئك الذين جعلهم العالم ,, ملح الارض '' من رجال الحكومة تراهم فاسدين باعمالهم ويفسدون بفسادهم طعام هذا الشعب التعس الذي وقع بين شرين الان ولا يعرف ايهما الاهون ليتبعه

فلهذا ترى ان مبادئي الاولى هي صيانة جوهرة الدين النفيسة من الاطمار البالية — اطمار التقاليد والجهل والخرافات والمظالم — الملتفة عليها واظهار بهائها للعالم كما هي حقيقة لا كما يريد الظلام اظهارها لهذا ترى ان اكثر رجال الدين الاشرار اعدائي لانهم لا يريدون الاصلاح بنفوسهم ولا يسمحون ان يتم على يد غيرهم وهم في لبنان „ يحكموننا " الان كما كان اخوانهم في فرنسا واسبانيا في القرون الوسطى · وليس رجال الدين الاشرار وحدهم اعدائي بل اكثر عامة الشعب التي تصدق تعليمهم انني كافر مارق ·

هذا حالي في الدين · اما في الدنيا فلست اسعد حظاً لان القوم يحسبون حريتي تمرداً وعدلي فوضى اذ ان اللبنانيين لم يذوقوا طعم الحرية الحلو للان فهم يظنونه حنظلاً وجمهور الشعب اللبناني الحاضر يفتكرون بعقول غيرهم فان قال لهم هذا الرئيس، او ذاك الوجيه يصغون اليه ويعتقدون بصوابيته كأنهم درسوه درساً مدققاً من زمان وعرفوا صوابيته واهل الزعامة والرئاسة بينهم من نوع الآلهة باعتقادهم وهم معصومون عن الغلط ... فكأن عقولهم واراداتهم وعواطفهم آلات تديرها ايدي تينك الفئتين بحسب مشتهاهما ولا قوة لها على الاعتراض · فما هو هذا الموت وما يسمى ذلك الخمول

اجاب فريد قائلاً

ـــ انك ياصديقي تظلم عامة الشعب وهم على جهلهم اذ توجب عليهم الافتكار بدماغك والشعور بقلبك مع انك تعلم ان الحرية المقدسة التي تضحى على مذبحها نفوس الاحرار وتتعمد بدمائهم الذكية لا اعتبار لها عند اكثر الشعب اللبناني الحاضر لانه يقسم الى قسمين واحد يريد ابقاء الشعب في ظلمة العبودية حتى لا يظهر هو واعماله للنور.... وآخر راقد بخموله ولم يفرق طعم الحرية ليقابلها بحالته الحاضرة لذلك هو يجهلها ومن جهل امراً عاداه

فهز البك رأسه قائلاً :

ـــ حقيقة ما تقول ياعزيزي وقد رأيت كيف ان سيادة المطران ... قد جاء عمشيت واخذ المال الذي وجده وراء المرحوم فارس جبور واقفل داره ورجع كأن ليس لعمشيت حق بالمطالبة بحق .

ـــ ولكن ياصديقي . الرجل قد وهب ماله للكرسي وللكرسي الحق المطلق بالتسلط عليه

ـــ انا لا انكر عليه هذا الحق من هذه الوجهة اما لو كنت عمشيتياً ولي حق بهذا الامر فهل تدري ما كنت افعله ؟

ـــ كلا .

ـ كنت احث ابناء بلدتي جميعهم على القيام قومة واحدة وارسال لجنة من وجهاء البلدة تطلب الاطلاع على وصية المرحوم فارس

جبور فان كانت موافقة لروح العصر وينتج منها ,,خير عمومي ''
تقدم اللجنة رجاءها لغبطة البطريرك الذي لا اشك مطلقاً في
فضله وعدله ومحبته لرعيته وتطالب الى غبطته اجراء العمل حالاً
وتستميح منه ان تؤلف هيئة من افاضل عمشيت تكون مناظرة
على العمل مع اللجنة الاكليريكية ولا شك في ان غبطة بطريركنا
المبجل وهو رجل علم وتقى وفضل متى رأى من اهالي عمشيت
هذا الاتحاد والهمة يساعدهم على ما به نفع البلدة والوطن اجمع
الا تظن انت كذلك ؟

— انا اشكر غيرتك ياصديقي واري كلامك دراً بهذا
الشأن ولكن هل كلامك وكلامي وحدهما يتممان العمل ؟ وهب
ان اهالي عمشيت فعلوا ما ذكرت فهل تضمن لهم الفوز والحق
الظاهر كله بيد الكرسي ؟

— انا لا اظن ان غبطة البطريرك يمانع كما قلت لك اولا
لفضله وثانياً لكونه هو ذاته من غير هذا الرأي فقد سمعت من
وجهاء عمشيت غير مرة انه حينما كان غبطته كاهناً قال لفارس
جبور اذ عرف بعزمه على هبة ماله للكرسي ,, ابقِ مالك لخير
بلدتك '' فهل تخاله وهو صاحب العقد والحل يمانع باجراء العدل
الذي يحبه قلبه الشريف ? كلا . كلا .

فسكت فريد يفكر وسكت رفيقه لسكوت صديقه ثم
تكلم الاول قائلاً وهو يبتسم :

— ذكرت كل شيء ياصديقي ونسيت ان تذكر اهتمام الاكليروس بالسياسة فهل تظنه من حقهم ؟

— كلا ياعزيزي الا بشرط واحد فقط هو اذا كانت طائفتهم كطائفة مظلومة من الحكومة فان تداخلهم يفيد كثيراً كقوة تجاه قوة . اما في تدبيرهم الوظائف نفلان وفليتان وتداخلهم بالحكم على هذا وتخليص هذا وغير هذه الامور السياسية فلا اعتقد ان لهم الحق بذلك لان للسياسة رجالاً كما ان للدين رجالاً وكل من هاتين الوظيفتين لا يجب الشرك في خدمتها .

هذا ما تعرفه الشعوب المتمدنة الحرة تجاه روسائها من الهيئتين اما شعبنا اللبناني المحبوب فقد تعود حني ظهره للحكومة لتعتليه وفتح خزائنه لها لتحشد منها المال وخنوع عنقه للاكليروس واعتقاده ان كل ما يقوله مقدس لا يجوز مسه ولو كان يعلم بالقتل مثلاً

اما مقدار الاخلاص في هذا الخنوع وذاك الخضوع فلا دريه او اعتقد ان الشعب يدفع للحكومة والاكليروس من عملتها

هذا كان حديث الصديقين وقد اختتماه بزفرة حارة صعدت من صدر كل منهما تأسفاً على حالة وطنهما التعسة وآله الى ان وصلت العربة بهما الى مدينة جبيل فترجل فريد ونزل منها وتابع هذا مسيره الى مقره .

الفصل الثاني والاربعون

الحيلة

,, ان المحبَّ كثير الصبر والحِيَلِ ''

في الاسبوع الثاني من مغادرة فريد لعمشيت كانت فريدة جالسة الى نافذة غرفتها ووجهها شاحب اللون وبيدها قطعة نسيج ترسم فوقها آيات الصناعة اليدوية وعلى بعد اذرع منها سوسن جالسة الى آلة الخياطة (الماكنة) تنهي ثوباً تخيطه لاحد اولاد الفقراء وكان السكوت سائداً على الرفيقتين وكل منهما مشغولة بعملها .

في وسط هذا الهدوء سمعت سوسن ضجة وصوت اقدام تصعد السلم فقامت لترى من القادم اما فريدة فظلت في عملها فلم يحركها سوى صوت سوسن المرتفع بالتأهيل والترحيب فنظرت بغتة لترى واذا بها تنظر الى وجه صديقتها هند وهي داخلة من باب غرفتها ووراءها سيدة ,, ملثمة '' وملتفة بازار ابيض يجللها من اعلى رأسها الى اخمص قدمها

وضعت شغلها من يدها حالاً ونهضت لملاقاة رفيقتها في المدرسة هند وهي فاتحة لها ذراعيها فتعانقتا وقبلت كل منهما الاخرى بحرارة ثم عرفت هند فريدة برفيقتها السيدة الملثمة قائلة :

ـ هذه هي صديقتي السيدة خديجة وقد اصطحبتها معي لعلمي انك تحبين مصادقة كل اصحاب الذوق

فمدت فريدة يدها للسيدة الملثمة تصافحها واذ فعلت احست بان قلبها يضطرب فعزت الامر الى ضعفها وقالت :

ـ تفضلا نذهب الى قاعة الاستقبال

اجابت هند بلطفها المعهود هازلة

ـ اننا نعرف ان عندك ,, قاعة استقبال " ولكننا صعدنا الى غرفتك رأساً لنعد نفوسنا من ,, اصحاب البيت " ولكي نكون بمأمن من دخول الرجال لان .....

فابتسمت فريدة قائلة :

ـ اذن نبقى هنا . فقد سها بالي عن وجود السيدة خديجة ....

كانت هند هذه رفيقة مدرسية لفريدة وهي عمشيتية تزوجت في مدينة جبيل ففرحت فريدة بوجودها جداً لا سيا ومعها تلك السيدة المسلمة التي قالت هند عنها انها من احب صديقاتها اليها ولكن شيئاً في تلك السيدة كان يدعو فريدة للارتعاش كلما نظرت اليها وهي لا تعلم السبب

ابت خديجة نزع لثامها خوفاً من دخول احد الرجال بغتة وكان كلامها قليلاً وبكل هدوء وتحذر وانخفاض

ولما رأت ظريفة دخول السيدتين تبعتهما على الاثر لتعرف

الخبر فلاقتها هند على غير عادتها وقبلتها بحرارة وعرفتها بخديجة وهي تهزل معها وتُرحب بها مما عجبت منه فريدة وسوسن جداً لعلمهما بكرهها لها

وبعد ان استقر بالنساء المقـام وشعرنَ بالفة جرهـا الحديث نحو المرأة الملثمة اصبح هم رفيقاتها بلثامها ليرين ما تحته من قبح او جمال ... وتطلع المرأة الى وجه المرأة طبيعي فاخذت كل واحدة منهن ترجو السيدة خديجة بدورها ان تنزع حجابها وهذه تعتذر وتقول انها لا تقدر على ذلك .

وعند الظهر تناول النساء طعامهن في غرفة فريدة وحبيب تناول طعامه وحده اذ عرف بوجود سيدة مسلمة في بيته وذهب الى مدينة جبيل بشغل

بعد ان تناولن الطعام بنصف ساعة نظرت هند الى ظريفة وقالت لها بدلال :

— انت حصتي اليوم ياظريفة فهل تتكرمين بمرافقتي لقضاء بعض زيارات وربما بعد رجوعنا نجد صديقتي خديجة قد كشفت القناع وعرفت ان النساء لا تأكل نساء ....

ففرحت ظريفة باختصاص هند اياها بهذه الوظيفة لان نفسها كانت ابداً جائعة للاعتبار لقلة حصولها عليه ,, ومشوار" كهذا لا تحب ان تضيعه لانها كانت كالاسفنجة تلتقط الاخبار من هذا البيت لترشها في البيت الاخر

وبعد هنيهة من الزمن كانت هند وظريفة خارجتين من الباب والاولى تتلطف بمحادثة الثانية تصنعاً ولمآرب فقط

خرجت السيدتان من الغرفة فساد السكوت عدة دقائق نهضت بعدها خديجة من مكانها وتقدمت نحو فريدة وبكل هدوء نزعت نقابها عن وجهها فبان من تحته وجه فريد الجميل بقوامه الطويل وهو مرتدٍ ثوبه الرمادي الذي كان عليه حين مقابلته الاخيرة لفريدة

لم يغمَ عليها هذه المرة كما في كل مرة بل لبثت مكانها بدون حراك كأنها تحولت لصخر اصم فكانت محدقة العينين به وكأنهما سمرتا فوق وجهها كما سمرت هي على كرسيها ولم يعد فيها عضو يتحرك سوى قلبها الذي كان يختلج كالطائر المذبوح حديثاً

ولم تكن سوسن اقل جموداً من رفيقتها فلبثت تنظر الى فريد مدهوشة الى ان قال هذا متلعثماً

— لقد كنتما شديدتي الرغبة في النظر الى وجه خديجة فلما بان لكما الان استولت عليكما الدهشة مع سكون ولا سكون الموت فماذا اصابك يافريدة ؟

⟶∘∘∘⟵

الفصل الثالث والاربعون

فصل الخطاب

عند هذا الكلام نهضت سوسن صامتة وجلست الى النافذة المطلة على الطريق اما فريدة فلبثت ساكتة لانها عجزت عن الكلام فقال فريد مرتجفاً :

ــ لا تضيعي الوقت بالسكوت ايتها الحبيبة فالفرصة قليلة

فبدرت من بين شفتيها المرتجفتين زفرة حارة وقالت له :

ــ لماذا كل هذه الحيل يافريد الحبيب ؟

فنظر الشاب اليها موبخاً وقال معاتباً :

ــ اهذا كل ما عندك تقولينه لي ؟ وهل يدوم جوابك على كل اعمالي ,, الاحتقار لها ''

فتنهدت وقالت واجفة :

ــ انا محتقرة لاعمالك يافريد ؟

فابتسم عن مرارة وقال :

ــ وكيف تظنين انت ؟ فهل رأيت اعظم من هذا الاحتقار ؟ انا اذيب نفسي من حرارة حبك وانت تجسينها بيد هادئة وتقولين ما ابرد هذه النفس ؟ انا اضرم قلبي بنار شوقي اليك وانت تنظرين اليه وهو مشتعل بنار الشوق وتقولين بعدم

اكتراث : ما اضأل هذا النور !

فجرح قلبها كلامه وخافت من لهجته جداً لانها كانت كبرق اتى مبشرًا بزوبعة هائلة وبكل حذرٍ وخوف قالت له بصوت ضعيف :

— ارك اتيت اليَّ خصماً لا صديقاً هذه المرة ؟

فقال عابساً :

— لقد رأيت صوابًا . اذ انني اتيت اليك بسؤال واحد اما ان تجيبي عليه سلباً او ايجاباً فان كان هذا تكونين صادقة بدعوى حبك لي او ذاك فتخسرينني الى الابد

فتحققت مخاوفها وارتجفت كالورقة وقالت متلعثمة :

— وما هو — سؤالك ؟

اذ ذاك نظر اليها وماء الحب يجري في عينيه وصوته ولكنه يرده بكل شجاعة ثم قال بحدة :

ـ اراك ترتجفين من الان يافريدة ولكن ضعفك هذا سوف لا يتسلط على قوتي هذه المرة لانني سئمته واصبحت كارهاً البقاء في اسرك الى الابد وانت في اسر الظلمة فان الله قد خلق الانسان حرًا بعواطفه يافريدة وهذا الانسان يهبها لمن يشاء ولا يقدر احد على اغتصابها منه وانت قد غلبت على امرك اذ كنت قاصرة عن المدافعة وسلبت عواطفك منك سلباً فانـا احب ان استرجعها لك الان ـ احب ان افكك من اسر

العبودية واضعك في مقامك الذي خلقت له بعد ان اصبحت قادراً ـ انا اريد تخليصك من جهنم الرذيلة الى سماء الفضيلة فهل تريدين انت ذلك ؟ هل تهربين معي ياحبيبتي ؟

فاحست فريدة عند سماعها كلامه كأن الارض تميد بها وقالت بصوت ضعيف جداً ـ والى اين تريد الذهاب بي ايها الحبيب ؟

اجاب مسروراً وقد رجح الفوز ٠

ـ الى أميركا بلاد الحرية والاخاء والمساواة ٠

فتأوهت وقالت بحزن :

ـ الى اميركا ـ الى اميركا ـ فهل يعقل ان اميركا التي كانت بمالها سبب اسري تكون ,, بحريتها " سبب نجاتي ؟ ـ ولكن هب انني اطعتك ايها الحبيب وفررت معك فهل ترضى انت لي هذا العار

فعبس وقال :

ـــ مهما ادعت المرأة بالقوة لا تقدر ان تنزع من قلبها ضعفها الجنسي ـــ فهل تدعين ذهابك معي عاراً ٠ انت مظلومة ظلماً عظيماً يافريدة وزواجك يُعدّ لغواً بشرع العقلاء فمتى ابعدتك عن هذه الارض ابرئك من كل تبعة دينية ومدنية فارحمي نفسك وارحميني ايتها الحبيبة ولا تدعي ضعفك يستولي عليك الى آخر نسمة من حياتك ـ لقد كفاه ما جنى علينا من قبل

وكانت فريدة قد استمدت من نفس قوته قوة فاجابته بجرأة ·

ـ انكم معاشر الرجال تلقبون المرأة ,, بالضعيفة '' مع انكم سبب ضعفها فاذا كان الضعف خلة قبيحة فلماذا خصصتموها بها وان كنتم تحبون ان تجاريكم بكل شيء حتى بالقوة فلماذا لا تنيلونها حقوقكم كلها فقل لي بحق حبك يافريد هل اذا هربت انا معك الان تكفل لي انت ان الهيئة الاجتماعية لا تصب كل جامات غضبها على رأسي وحدي وهل انت قادر على اقناعها باحد امرين اما تذنيبنا معاً واما تبرئتنا معاً · انك كرجل تقدر على جر المرأة لامر ولكنك بالوقت ذاته عاجز عن اخراجها منه فلماذا نقابل بعضنا كخصمين ياحبيب قلبي فهل نحن عدوان

ـ انك كل شيء لي يافريدة وقد جمعت في شخصك كل هناء العالم وشقائه فانت احب الناس وابغضهم الي بحسب ارادتك ·

فلحظت فريدة انه اهمل اول كلامها واجابها عن اخره فقط لان الرجل قادر على امر المرأة بعمل الشيء وعاجز عن البرهان عن صحته امام اعتراضها القوي اما هي فتغاضت عن عمله وقالت بلطف :

ـ كيف ذلك ياشقيق الروح ومالك الفوءاد

ـ ذلك انك وحدك قادرة على احيائي بقوتك وقتلي

بضعفك فبالاول تجعلينني اسعد الرجال وبالثاني اشقاهم

فتبسمت وقالت :

ـ وكيف تظن انني احب ان اكون يافريد

ـ لا شك انك „ تريدين " ذلك ولكن الارادة آلة غير محركة الا بيد الفعل .

فاتكأت على كرسيها من ضعف القوى وقالت بيأس :

ـ لقد سقط في يدي يافريد . فان قلاع صبري تنهدم بكرات سخطك وغضبك

اجاب بحدة :

ـ انني افعل كل شيء لخيرك . لسعادتك . لشرفك

ـ وهل هربي معك يعد شرفاً لي

ـ نعم لانك لي وحدي خلقت وانا وحدي صاحب الحق بحبك .

ـ انا اعتقد ذات الاعتقاد يافريدي ولكن هل الكنيسة تجيز لنا هذا الامر وهل الشرف يسوغه أوَ لا يعد الناس عملنا عاراً

ـ اتركي امر الكنيسة اليَّ . اما الشرف فهو بوجودك مع من تحبين وليس مع من تكرهين . واما الناس فدعيهم وشأنهم لان السنتهم قيود تكبل المظلومين في سجون ظلمهم الا الابد ـ انهم يتكلمون ولا يشعرون

فابتسمت وقالت والدموع تتلألأ في عينيها النجلاوين

- لقد تركت كل شيء فهل اقدر على ترك الاعتقاد ان حبي لك اشرف من ان تلطخه مثل هذه الاعمال . يا فريد ؟ حبي لك الذي اعده مقدساً هل اقدر ان ادنسه وهل تحب انت لي الالتحاف برداء العار وخلع العذار فبالله عليك ياحبيبي لا تجرئني على نثر ازهار عفافي فوق ارض الخلاعة ونشر رداء حشمتي على شوك العصيان والتمرد .

ما هو المثل الذي اتركه للبنات من بعدي يافريد اذا فررت معك واي اسم اتركه لاهلي وبلدتي ووطني انا التي افاخر بانني من اطهر النساء ذيلاً واشرفهن عرضاً فهل اذا اعتقد بعض الافراد بصوابية عملي يعتقد به الجميع وهل اذا ساغ لي الهرب انا يسوغ لكل امرأة فغداً اذا فعلت انا بامرك يصبح لنساء كثيرات غيري عذرٌ بعملي ولا يكنّ ذوات حقوق مثلي فاكون انا قد فتحت لهن باب الاقتداء الرديء فيدخلنه اندفاعاً بهوى النفس والرذيلة والعشق الفاسق واكون جنيت على نفسي وقومي . كلا . كلا . يافريد انني لا اضحي شرفي لاجل حبي وهذا هو الشيء الوحيد الذي يقف بوجهه كل شيء حتى الحياة للحب الا الشرف لان الحب بلا شرف كالجسد بدون روح - اما بشأنك انت ؟ فياربي ماذا اقول ؟

كان فريد يصغي لكلامها ويتفرس بوجهها وهو يكاد يتميز

غيظاً لان هذا الرجل الاديب الشريف المبدأ كان قد تغير كلياً في حبه لفريدة بهذه المدة الاخيرة وبعد ان كان اعتقاده كاعتقادها اصبح مخالفاً له على خط مستقيم لذلك دفع حقائق فريدة جانباً ولم يرَ سوى اعتقاده هو الخاص بالامر.

وكانت فريدة امامه الان وقد هيجها التأثر وصبغ وجهها بالاحمرار وارسل الطهر الى عينيها بريق القوة فظهرت بهذا الموقف اكثر جمالاً امامه من كل وقت آخر رآها فيه لانها كانت قد اصبحت بعمر النساء التام النضج واذ كانت عواطفه في درجة الغليان واعتقاد الاصابة راسخاً في فكره أصم اذنيه عن براهينها وأوصد قلبه دون كل توسل منها ثم اخذ يخطر في تلك الغرفة كالاسد ويداه في جيبيه وفريدة تنظر اليه وكأنها نسيت كل شيء ما عدا شرفها الذي كان امامها وقد نوت المحافظة عليه تحت كل الاحوال والتضحيات

ولما رأت غضبه وشقاءه تفطر قلبها عليه اكثر مما على نفسها هي التي كانت تحب تضحية حياتها وليس تضحية شرفها — فنهضت من مكانها بوهن وتبعته الى ان حاذته فجثت امامه ورفعت اليه يديها بالترجي وعينيها المملوئتين دموعاً بالتوسل قائلة:

— فريد. الا ترحمني ؟ انك كل شيء لي وحبك سعادتي وشرفي ومجدي فاذا اجبت طلبك اعدم كل هذه الامور واذا خالفتك يكون انني اثق بحبك لي وانه لا حب كهذا بدون مجد

ولا مجد بغير شرف ولا شرف الا في الطهارة فارفق بحالتي وارحمني او اشفق عليّ واقتلني — ارحني اما من العار واما من الحياة لان رضاك وحده يهمني

فنظر اليها بعينين جوعانتين وقال لها : وقد بلغ منه التأثر حدّ الجنون

— لا يرضيني غير اجابة طلبي فان اطعتني تكونين صادقة بحبك لي والا فانت كاذبة بادعائه .

— فريد. حبيبي —

اجاب بقسوة يقصد اضعافها

— لا اقبل منك كلمة قبل ان تقولي ان ,, نعم '' فنعم وان ,, لا '' فلا .

فارجعت تلك المسكينة اليدين المرفوعتين اليه بيأس ولطمت بهما وجهها بعنف وقالت :

— اذن ,, لا ''

اذ ذاك ارسل اليها نظرة غاضبة ودت لو انها سيف يفري احشاءها و يريحها من عذابها وقال بحدة وغضب :

— اذن لقد صدقت ظنوني فيك ايتها الخائنة ـ لقد صدقت اقوال الناس بك ـ فآه منك ياذئب الشر المرتدي ثياب الحملان . و ياثعبان الرذيلة المختبئ بين ازهار الفضيلة انت تقولين ان ذهابك معي عار ولكن العار هو في بقائك على حالتك من

التساهل مع كل رجل - ولكن من يلومك فالتي ترى جيوش العشاق تترامى على اقدامها لا تعود ترضى بعاشق „ حمار “ مثلي اذاب قلبه واضاع اجمل ايام حياته بالحب الغير المتبادل . فآه منك ياخائنة . انك بعتني اولاً بالمال وثانياً بحب غيري من الرجال .

فمن يقدر على تصور حالة تلك المرأة التاعسة وهي جاثية امام الرجل الوحيد الذي احبته في العالم تسمع صوت سخطه وغضبه وتتلقى سهام كلامه المسممة في صدرها التعب ؟ من يقدر على الشعور بحالتها وهي تسمع كلامه الذي يشبه كرات انفجارية طيرت امالها وبعثرتها في فضاء اليأس امامها . انها بدون كلام سقطت على الارض كشجرة وضعت الفأس على آخر عدف من عروقها واخذت في البكاء والشهيق حتى كاد يقضى عليها وقد نسيت ذاتها بالكلية .

ولما رأت سوسن ما جرى لها همت بالاسراع لمساعدتها فاذا بها ترى هنداً وظريفة مقبلتين فانهضت فريدة وذهبت بها الى غرفة ثانية واحضرت لها ماء بارداً لكي تغسل وجهها حتى لا يظهر عليها شيء ثم رجعت الى الغرفة فوجدت فريداً قد ارتدى ثيابه الاولى وتلثم فاقتربت منه وهمست باذنه قائلة بحزن :

- آه يافريد القاسي انك ظلمتها اكثر من كل الناس لان آمالها كانت منوطة بك وحدك - ولربما تقتلها قسوتك .

فاجاب غاضباً

ـ لولا خوفي من الفضيحة ووجودي غير جبان لكنت اقتلها واقتل نفسي معاً واريحهما من عذاب مذيب وتساهل معيب .

فقالت الفتاة وهي تمسح دموعها :

ـ انك ظالم كافر يافريد وقد اتهمت المرأة التي هي اطهر من الملائكة بالدعارة ظلماً . فضحك الرجل ضحكة استهزاء فهمت منها المرأة مجلداً ولم تقدر ان تجيبه عنها لانها كانت تسمع خطوات هند وظريفة بصعودهما السلم .

الفصل الرابع والاربعون

سفر فريد ومرض فريدة

في مساء ذلك النهار كانت العربة تقل هنداً وصديقتها ,, خديجة '' برجوعهما الى مدينة جبيل وكانت ,, خديجة '' متكئة على مقعد العربة وهي صامتة طول الطريق ولما وصلت المرأتان الى بيت هند دخلت ,, خديجة '' غرفة هناك وبعد خمس دقائق خرج من ذات الغرفة فريد بوجه شاحب وعينين يقدح منهما شرر الغضب فمد يده الى هند مصافحاً وقال :

ـ اشكرك جداً على معروفك معي ايتها الصديقة الكريمة

واودعك الان الى الابد.

فاغرورقت عينا المرأة بالدموع وقالت له بحزن :

ــ كم كنت اتمنى ان اشاهد سرورك لا كدرك .

ــ لا بأس من ذلك ياعزيزتي فالدنيا مملوءة من النوعين

ــ ولكن الا تذكر لي شيئاً مما دار بينكما من الحديث ؟

فنظر اليها موبخاً بلطف وقال :

ــ انه سر مقدس ياسيدتي ذلك الحديث ــ فالوداع الان وباقل من ساعة كان في بيته في مدينة جونيه فلم يخبر والديه بشيء مما حدث لكنه بمدة ثلاثة ايام كان واياهما على ظهر باخرة تقلهم الى بلاد راية النجوم والخطوط وهو ينظر وراءه الى وطنه نظرة المحب اليائس الى قبر سعادته المائتة

اما فريدة فانها بعد ذهابه اختفت من امامها تلك النجمة المضيئة التي كانت في ظلام حياتها وهي ,, حب فريد ‘‘ وسدلت مقابلة فريد الاخيرة حجاباً من الظلام الدامس فوق قلبها لم تقدر سوسن مع كل اخلاصها ان تنيره بتسليتها

ولم ترَ سوسن فريدة في كل اوقات ضيقها كما رأتها في ذلك الوقت لان مصائبها كانت مهما عظمت واشتدت لا تصل لحد الغمّ بها لاعين كل الناس اما هذه المصيبة الاخيرة فقد تجاوزت هذا الحد وظهرت كأنها مكتوبة باحرف من نور فوق وجهها و بعد ذهاب هند وفريد ارتمت على سريرها واستسلمت

بكآبتها للهم .

رأت سوسن ان كلامها في ذاك الوقت لا يفيد لانها ان حدثت فريدة بامور خارجية بقصد التسلية لا تقبل هذه بها لان همومها فوق التسلية وان حدثتها بالحديث ذاته يجيء كلامها كحطب يابس فوق نار مضطرمة فيزيد ضرامها فسكتت

ومر ذلك الليل على فريدة وهي ملقاة على سريرها وجهها نحو الحائط وظهرها نحو سوسن التي جلست على كرسي بجانب السرير طول ذلك الليل الذي لم تسمع به منها كلمة ولم ترَ لها حركة وهي غير نائمة . ولولا زفرة حارة كانت تصعد من صدرها كل فترة واخرى لحسبتها قد ماتت

ولما صاحت ديوك الصبح غلب سوسن سلطان الكرى فاسلمت اليه جفونها ورقدت قليلاً ثم استيقظت بغتة على صوت فريدة القائل :

- بلي ريقي بقليل من الماء ياعزيزتي

فقامت مذعورة واتتها بكأس ماء بارد وناولتها اياها فقالت فريدة بلطف :

- اسقيني بيدك فانا لا اقدر على الجلوس

فوضعت سوسن يدها تحت رأس المرأة لترفعه قليلاً واذا به يضطرم بنار الحمى اضطراماً ففار دمها فوراناً وللحال عرقت عيناها من الحرارة الداخلية كما يعرق غطاء القدر من غليان الماء

تحتها ثم اخذ يقطر فوق يد فريدة التي كانت في يدها فاحست هذه براحة لان دموع صديقتهـا مع حرارتهـا كانت ابرد من يدها و بكل وهن قالت لها :

ـ ان دموعك تبرد الحمى التي بيدي كما ان اخلاصك يبرد تلك التي بقلبي . فكان جواب سوسن البكاء وزيادة ذرف هذه الدموع حتى كادت تغرق تلك اليد بها لولا حرارة قبلاتها لها التي كانت تنشفها .

وتأخر حبيب عن الرجوع الى البيت لليوم الثاني فبلغه عند شروق الشمس واذ رأى زوجته مريضة لم يشك في شيء مطلقاً وارسل يحضر لها طبيباً

الفصل الخامس والاربعون

ازاء الرجال الثلاثة

لازمت فريدة فراشها نحو عشرة ايام وكانت تشكر المرض الذي اخفى حقيقة حالها عن اعين الناس ونهار الاحد اذ كانت الحمى قد فارقتها اشتاقت لمرأى الطبيعة فنهضت وجلست امام نافذة غرفتها فرأت الشمس تلثم وجه الارض وتبعث اليه حرارتها فانتعش قلبها المظلم قليلاً لان للطقس تأثيراً قوياً على القلوب وقد كان الطقس ماطراً بارداً طول مدة مرضها لان الوقت كان

في اواخر تشرين الاول فساعد ظلام الطقس على زيادة ظلام قلبها و بالعكس لو كان صافياً جميلاً .

ورمت نظرها على اشجار التوت والرمان والخوخ والمشمش التي في الحديقة فرأتها بدأت تتعرى من اوراقها فقالت مخاطبة اياها ,, انت ايتها الاشجار يعريك الخريف من اوراقك الان كما يعري الدهر قلبي من سعادته ولكن الربيع يرجعها اليك غداً فترجعين لحالتك اما انا فحياتي كلها شتاء من الان وصاعداً ''

ثم ارسلت نظرها الى البعد فرأت الجماهير تفد على كنيسة مار ميخائيل لاستماع القداس وسمعت اجراس الكنائس تقرع فتنهدت ورسمت اشارة الصليب على وجهها واستغرقت بالصلاة الصادقة التي هي بلسم القلوب المعذبة

و بينما هي مستغرقة بصلواتها دخلت سوسن وفوق يدها طبق عليه فنجان من الشاي و بعض انواع قليلة من الطعام الخفيف اعدتها لها وهي مسرورة بقيامها سرور ام بقيام ولدها الوحيد من بين مخالب الموت ولما وضعت الطبق امام فريدة نظرت من النافذة وقالت لها بسرور :

— ان الطبيعة تفرح معي بنهوضك اليوم وقد كانت تصب دموع الحزن من عيون الغمام عليك في الامس — فانظري ما اجمل وجه الطقس المشرق بعد تجهمه

فابتسمت فريدة لاول مرة بعد مقابلتها لفريد وقالت

لصديقتها :

-- متى كان في ضميرك امر ياعزيزتي تظنين السماء والارض ومن وما فيها يشاطرونك اياه ياسوسن

فسري عن سوسن لابتسام فريدة بوجهها وجلست على الارض امامها تحرك لها فنجان الشاي وهي تقول :

— كله منك . فانني مذ صادقتك صادقت الجمال والشرف والفضيلة والبر والصبر فضحكت فريدة ضحكة دلت على ان طبع الانسان يظهر فيه بكل حالة من حالات حياته وقالت لها هازلة رغماً عما بها :

— ما اقدرنا على „ دهن " بعضنا بفرشاة الاطراء والمجاملة يا اختي .

— وهل لنا غير بعضنا ؟

قالت سوسن الكلمة السابقة على غير انتباه فقربت لصديقتها ما حاولت ابعاده من الافكار وللحال تنهدت هذه لان المجروح ينكأ جرحه اقل شيء وقالت :

— كلا . لم يبقَ لي الاك وحدك الان

— بالله يافريدة لا تقربي من الموضوع فانك ضعيفة جداً

-- انه مقوٍ لي

-- بل هو يؤثر بشواعرك فيراجعك المرض . ارحميني واسكتي

— بل انت ارحميني ودعيني ابثك ما بضميري وانا اعدك

انه يكون آخر كلامي بالموضوع لوقت طويل جداً وربما للابد

— وماذا تريدين ان تقولي ؟

— اريد ان اسألك حل المعمى معي فما هو سبب انقلاب فريد الاخير ياسوسن ؟ هل اصدق ان فريداً القاسي الظالم الذي عاملني بتلك البربرية الاخيرة هو ذات فريد الذي ترك عمشيت موطنه حباً بي ولكي يذهب من طريقي ؟ فماذا غيره

— الذي غيرك غيره فهل انت الان تلك الفريدة التي سرت بتركه لها اذ ذاك لكي تنساه وينساها ؟

— كلا لانني ازددت عقلا فعرفت قيمة الحب الذي خسرته .

— وهو كذلك .

— ولكن هل تسمين طلبه الخارج عن حدود واجب الشرف حباً ؟

فهزت سوسن رأسها قائلة :

— انه بحسب طلبه جائز وعادل لانه رجل ينظر الى الامور بغير العين التي تنظرين انت اليها بها و يحاسب عليها بعكس ما تحاسبين اما اتهامه وغضبه فهما منبثقان من نفس قصده لانه اذ رأى تمنعك وهو يحسب ذاته مصيباً عدك ,, خائنة ‘‘

— اولا يعرف هو مثلي اننا لو كنا ابرياء بعين الحب الطاهر فلسنا كذلك بنظر الواجب الشريف ؟ وهل مثلي من

ترضى ان يرمى حب مقدس كحبها بالتهم ويحسب دنساً ؟ انني افضل الموت على حياة فيها مرارة الذكرى والم العار وسخط الرأي العام .

فقالت سوسن :

— ولكن هذا ,, الرأي العام " كان تحول بسخطه كله على رأسك لو كنت اطعته لانه لا يلحقه منه شيء وهو ,, رجل " وهذا ما يسهل خداع النساء عند الرجال لانهم يحصلون على القسم الرابح من الامر . والرجل متى حصل عل مطلبه لا يهمه كم يتفطر قلب المرأة وماذا يحدث لها بعده

اجابت فريدة بحسرة :

— وهل قدر لي ان اعد فريداً من طبقة هؤلاء الرجال . فريد . ياسوسن فريد ملاكي الحارس والهي الارضي ورافع روحي لاسمى درجات الرقي والشرف هل احسبه ككل رجل آخر ؟ — وانا ؟ — انا المرأة المعذبة التاعسة التي كنت احسب انني ان ظلمت من كل رجل اجد الرحمة باسمى معانيها بقلب رجل واحد قد ظلمت منه الان وتساويت بالظلم امام كل الرجال — آه ما اشقى حظي ياسوسن . فانظري كيف هو مقامي بازاء الرجال الثلاثة التي كانت معهم اقوى علاقاتي في الحياة

والدي الذي كنت عنده وديعة من الله يطالب بها يوم القضاء العادل طرحني بين انياب الشقاء ,, ليريح جسمي "

فاتعب نفسي بل اماتها ولسان حاله ينشد متوعداً متهدداً : اطيعيني وتزوجي ابن خمس وخمسين سنة هو اكبر منك بواحد واربعين سنة وانا بعشر سنوات . اطيعيني وتزوجي بدون ان تفهمي معنى الزواج . . . اذ ماذا يؤثر بك هذا الامر ؟ فقلبك وجد لكي يباع ويشرى وجسمك وجد ليستعمل كما تستعمل الآلات الحديدية الجمادية . اما عواطفك فهي فولاذية لا يسرها مليح ولا يكدرها قبيح — اطيعني لان المال وحده يملأ فراغ قلب المرأة كما يملأ فراغ جرفها — اطيعيني ولو قصدت رميك في جهنم العذابات وانتزاعك من سماء الحب لان لا قوة لك على المخ — الفه وانت امرأة وهل المرأة غير آلة صماء تدار كما تريد يد الرجل او بناء فارغ يرجع صدى صوته ؟ — اطيعيني ولو حرمتك حبيبك وازوجتك بعدوك وجعلتك مع رجل كزوجك شبه قلعة لا حصون لها او ملكاً مشاعاً للجميع بزعم اهل الغواية والشر — اطيعيني ولو صيرت ابتساماتك دمعة وابدلت نور حياتك بظلام فاحم لانك خلقت ملكاً مطلقاً لي وانت ابنتي وانا اعرف انني اوجدتك في هذا العالم ولكن لا اعرف ان اعتني بهذا الوجود

ان قلبك ليس هو في صدري لاشعر باندحار نبضاته السعيدة لتحل مكانها النبضات التعسة — انك جزء من نفسي والجزء يجب ان يضحى لاجل الكل فاطيعيني لتكوني ابنة مطيعة

صالحة .

وزوجي يصيح كالثور قائلاً : انظري الى قبحي النفسي والجسدي بكل سرور واحسبيهما جمالاً - اغمضي عينك على كبر سني وافتحي اخرى لتريني بها شاباً. ذوقه كذوقك ودمه صار كدمك -- شمي رائحة المسكر تنبعث من فمي ليلاً ونهاراً واحسبيها عطراً - واسمعي مني الشتائم والكلام البذيء واحسبيه شرفاً وفخراً -- احتملي الضرب المبرح مني لان لي به عليك حقاً - انا جوعان الى جمالك فاجعليه لي لقمة مهضومة. احبيني رغماً عنك . اعشقيني خلافاً لارادتك. انزعي من قلبك ذكر من ملكته ذلك القلب منذ الطفولية لانني قد اغتصبته اياه واصبح لي الان -- ان الكاهن قد جمع جسدينا وانت وحدك مطالبة بجمع الروحين - افعلي كل هذا لانه واجبك والا فلا تكونين زوجة فاضلة مطيعة

اما فريد فهو يصرخ الي من اعماق قلبه مرسلاً من هذه الصرخات اسهم يأسه وغضبه قائلاً -- الغي كل شريعة -- دوسي كل حق وواجب - اخلفي كل وعد حتى مع الله خالقك . فكي كل قيود الظلم والعادات والتقاليد واضربي بها عرض الحائط وتعالي الى قلبي -- لقد جعلت قلبي لك عرشاً وفيه فرش السعادة ورأسي سلماً لتصعدي عليه الى دكة المجد -- وذراعي رمحين يطعنان كل من يروم بك شراً في وقت الخطر

ويضمانك بقوة فولاذية بوقت الامن - فاخرجي من مغارة الذئاب وادخلي عريني لانه عرين الاسود وانت للاسد وليس للذئب خلقت -

كيف تزوجت ولم تقاومي كل سلطة وقوة وانت ابنة اربع عشرة سنة ؟ لماذا لم يخلق عقلك الحاضر معك ؟ لماذا لم تقفي بوجه والدك وتقولي له ,, لك سلطة بكل امر عليّ ما عدا امر الزواج لأنه من شؤوني الخصوصية ''

وانت بذلك العمر وفي بلادنا هذه ؟ ولماذا لا تقطعين كل علاقة الان لاجلي ؟ انا اعرف وانت تشعرين وكل ملائكة الله تشهد بانك مظلومة فماذا يهمك قول الناس عنك وانت في كنف حبي ؟ وماذا يهمك لو جعلوك ,, مثالاً قبيحاً '' لبناتهم ونسائهم وانت بقربي ؟ اطيعيني واعملي بارادتي اذا كنت مخلصة والا فانت لست محبوبة مطيعة

اما البشر - هؤلاء البشر الذين يسنون الشرائع والذين ينفذونها وفي ايديهم كل سلطة وامر اذا رأى بعضهم ان هرة مجروحة الجسم وملقاة على قارعة الطريق يذوب اسى وحسرة عليها اما اذا رأوا امرأة مثلي جروح قلبها بالغة وجراح نفسها اليمة وهي واقفة على طريق اليأس لا معين لها سوى دموعها ولا مسلي غير تنهداتها لا يشعرون معها بل اكثر من ذلك انهم يظلمونها بظنونهم السيئة وافكارهم الرديئة - ذلك لان اوجاعها

غير منظورة والاعين التي تمزق الاجساد وتنظر الى الارواح قليلة جداً جداً في هذه الحياة المادية - في هذا العصر التقاليدي - ولو انهم اقتصروا على عدم الشعور مع المتألم لما كان له حق بالمطالبة لولا انهم يزيدون آلامه آلاماً بتأويلاتهم وفسادهم

وهناك فريق من الاصدقاء كما يدعي وهو يقسم الى قسمين احدهما يقول بلسان نصائحه يجب ان تطيعي زوجك ولو اراد ان يسقيك الردى او يجرعك كأس العار لانك ,, زوجته " ويجب ان ,, تشكري ربك " لانك زوجة رجل غني وهل تحتاج المرأة الى غير المال ؟ ويجب ان تخدشي جمالك وتذبلي زهرة صباك حتى لا يكونا للرجال شركاً وللنساء موضوع حسد وغيرة والا فلا تعدين امرأة طاهرة

والاخر يقول بل تساهلي مع الاصدقاء واجعلي ابتساماتك نوراً وضياء ٠ اخرجي وسيري واسرحي وامرحي مع من يميلون اليك ويقعون صرعى الحب بين يديك فان الحياة بستان وكل اثماره محلّلة للبشر ولست افضل من كثيرات من سيدات هذا العصر اللواتي يعشن عيشة سارة زاهرة زاهية فيحصلن على اكرام وحب الاصدقاء — فهل انت غير زهرة جميلة في بستان الحياة يحلّ تنشقها او ثمرة لذيذة يجوز اكلها ؟ هكذا كوني والا فلا ٠

هذا هو مطلب الرجال الثلاثة والبشر مني ياسوسن فهل رأيت ما احيفها ؟ انني اشكرهم كثيراً لانهم جعلوني اقدر من

الآلهة على اتيان امور متناقضة تعجز هي عنها فكيف اقدر على ارضائهم كلهم · اخبريني ؟ انما تعزيتي هي في انني ارضي الله وضميري بعذابي الذي احرقه بخوراً على مذبح الشرف

وانا وحقك ما كان يهمني من هذه الامور كلها شيء وكنت اتغلب عليها وامر بها او تمر بي وانا ساخرة منها لو بقيت لي القوة الروحية الوحيدة · لو بقيت لي — ثقة فريد — هذا الفريد الذي كنت احسبه سمائي التي اصعد اليها بافكاري من جحيم هذه العذابات — وبلسماً لجراح قلبي المعذب وقوة على احتمال مصائبي — فريد الذي كان به ايماني وعليه رجائي وفي حبه ملجاي اصبح عدواً لي الان لانه يحسبني مجرمة خائنة شريرة فهل امر من هذه الحياة ؟ حياة المرأة بين شدة الاضطهاد ومرارة العذابات وحرارة الشوق وبرودة الصداقة وعلقم الصبر وثقالات وتهمات وانتقامات البشر ؟ امور كانت كلها بخوراً يحرق امام مذبح الحب الطاهر والرجل الوحيد فكان هذا اعتباره لها · فهل يوجد في الرجال امين ؟

ما الذي حمله على اتهامي بالخيانة ياسوسن وكيف قدر على لفظ الكلمة ؟ فاذا كان هو حبيبي الوحيد المفدى وقد ضننت عليه بشرفي فمن تريني ابذله ولأي سبب ؟ اعن جهل ابذل عرضي وانا عالمة ؟ ام عن ضعف وانا قوية ؟ ام انقياداً بسلطة الجمال وانا لا ارى جمالاً بشخص او بشيء من الورى لانه احتكره

كله في شخصه وحده عندي ؟ او حباً بالعظمة والجاه وعظمتي وجاهي في طهارتي وحشمتي ؟ هل كنت مصدقة ان حوادث حياتي تصل الى هذا الحد ؟ اذن لم يبقَ لي شيءٌ على الارض ثابت بنظري .

وهنا انتهت فريدة من خطابها الذي لفظته بحماسة وشعور هيجا بركان همومها داخل قلبها فانفجر واخذ يبعث سيول الدموع الحارة كالنار

فاقتربت منها سوسن وبيدها فنجان الشاي الذي كان قد برد فادنته من فم فريدة قائلة بحزن وتوسل :

— حبيبتي اشربي هذا الفنجان اكراماً لي

ففتحت فريدة فمها مرغمة وامتصت ذلك الشراب الممتزج بدموعها كأنها تتجرع دواءً مراً

الفصل السادس والاربعون

مبدأ الرجل الطبيعي

ابتدأ روع فريد يرجع اليه تدريجاً بعد مفارقته فريدة فلم تمضِ عليه بضعة اشهر في اميركا حتى افسح للعدل مع فريدة في نفسه فاراد ان ينصفها كما كان يفتكر واحضر امام ناظريه مثالين منها احدهما يمثلها طاهرة بريئة شريفة فيلوم نفسه على

ظلمه لها والثاني يرجعه الى اعتقاده الاول بها فحسب ان امتناعها عن الهرب معه لم يكن عن شرف منها بل عن برودة في حبها او اشتغالاً بسواه عنه وليس اصعب من دخول الشك الى قلب المحب واضطراره الى جعله حقيقة وان تكن غير ثابتة لانه يمزق قلبه تمزيقاً بين التصديق والتكذيب ولا سيما متى كان بعيداً لا يرى ولا ينظر ٠

فكانت افكاره لا تفارقه ليلاً او نهاراً وهو لا يكاد يثبت على رأي حتى يتغلب عليه سواه فيدحره من امامه ويحل مكانه الى ان كان تصويب نفسه ارجح الاراء فعول عليه واصدر على حبيبته حكماً غيابياً ٠

وما برح الانسان شديد الميل مع هوى النفس كثير الاعجاب بما تيها مهما نهاها عن تصديقها الضمير والعقل احياناً وهذا هو سبب مثابرة الشعوب والافراد على اتيان امور ينهاهم عنها الناس ويرونها فاسدة وهم يرونها صالحة انخداعاً بحكمة نفوسهم ٠

اما الامر في الرجل مع المرأة فهو طبيعي راسخ ٠ خذاي رجل كان حين حكمه على المرأة تراه يعتقد بصوابية رأيه الغير قابلة التفنيد واذا صدف وخولها حق الاصابة حين الحكم عليه مرة نراه يملأ الدنيا عويلاً وصراخاً بانه تساهل معها ,, ورحم ضعفها ‘‘

ولو اقتصر هذا الامر على الطبقة الراقية من الرجال ولم يتعدها لرضيت المرأة بنصيبها ولم ترَ به غضاضة كبيرة عليها ولكن الادعاء بعظمة الرجل وصغارة المرأة قد تجاوز تلك الطبقة الى ما سواها من طبقات الشعب الخاملة فاصبح احقر واجهل رجل يدعي التفوق حتى على اديبات وحكيمات النساء فسبحانك ربي كأن لبس ,, البنطلون " وحده يجعل عقل الرجل كبيراً ,, والفسطان " يصغره باعتقادهم كما ان الجبة السوداء تجعل بعض الابالسة ملائكة باعتقاد البسطاء...

يرمق الرجل السوري نساء وطنه بنظرة عامة فيراهن وراء الرجال بمراحل في طريق العلم والرقي والتهذيب فيحكم حالاً (ومن تراه يستطيع رد الحكم) . بان تأخرهن متأتٍ عن قصر عقولهن وقلة مداركهن الطبيعيين لا الاكتسابيين وللحال يتخذ هذه الامور حجة يستند عليها في معاملته لهن معاملة الوصي للقاصر والسيد للعبد والمولى للاسير

ولكن هل ترى قصور النساء الحالي ناتجاً عن صغر عقولهن او عن ظلم الرجال لهن بسلبهم لحقوقهن ؟ انك من مجرد احتقار الرجل لضعف عقلها وتعييرها الدائم فيه تعرف انه يبغض الضعف في المرأة ويحب القوة . يبغض الجهل ويحب العلم فالرجل اذن يتأفف من هذين الامرين ولكنه لامر ما يدعي انها اصلح بهما مما لو ازيلا بالعلم ويعزو ذلك الى ,, قصورها الطبيعي "

فلذلك اسمح لي ايها القارئ العزيز بجولة معك في هذا الموضوع المهم. انت اذا كان لك بيت لا تحب تنوير بعضه وابقاء البعض الآخر مظلماً واذا اشتريت قطعة من الارض حسنة التربة لا تشتغل نصفها وتبقي النصف الآخر مهملاً ومنه ربح كذلك النصف تماماً لا بل اذا ملكت فرسين لا تعتني باحدهما وتهمل الآخر يموت جوعاً

أفليست المرأة التي في بيتك والتي هي ,, نصفك '' ان كانت اماً او اختاً او زوجة او ابنة افضل مما ذكرت آنفاً ؟ انها نصف بيتك ياعزيزي ونصفه الافضل هي فاذا تركت ظلام الجهل سائداً عليها فاعلم انك لا تقدر على مرأى جماله الداخلي فضلاً عن انك تكون متعرضاً للعار فيه دائماً

وهي نصف ارزاقك التي اذا حرثت عقلها تغل لك ولنسلك الغلال الثمينة فهل من العدل ان تحرث عقول الذكور من اولادك وتهمل عقول الاناث وهي بعد حراثتها تأتيك باضعاف اضعاف ما صرفت عليها ؟ — انها نصف عائلتك ياصديقي انها افضل لك من بيت وقطعة رزق وفرس — انها ام اولادك وربة بيتك و بيدها مفتاح حياتك الذي تفتح فيه باب معيشتك فتدخله مرغماً فعلمها ان تفتح لك باب السماء لا باب الجحيم

لا تقل لي انها بحالتهـــا الحاضرة كثيرة علي فانك بهذا تبرهن على عدم استحقاقك شيئاً عظيماً جميلاً — وانا اجلك

عن ذلك كل الاجلال

الفصل السابع والاربعون

انحلال العقدة

مضت السنة الاولى على مهاجرة فريد بلاده كان فيها في اميركا يحارب بكل قوى عقله الظلم المنتشر في وطنه بواسطة القلم ويشتغل بكلتا يديه لاجل كسب الرزق لانه وجد دواء علته الوحيد في العمل الدائم والشاق

وكانت فريدة الان في ابان مصائبها ولها كثيرون من المؤلين والنامين والظانين وزوجها في مقدمتهم لانه كان يريد الانتقام منها بكل وسيلة فاستعمل لتعذيبها آلة جهنمية هي اخته التي ولاها هذا الامر فاجتهدت فيه جداً ارضاءً لعواطفها ولأخيها وهكذا لما حل التعس بهذه المرأة بكل وطأته قلَّ اصدقاؤها الكثيرون ولم يبقَ سوى الحقيقيين منهم وما اقل اخوان الشدة واكثر اخوان الصفاء ٠

وفي اواخر عام ١٩٠٨ وقعت حوادث حياة فريدة المهمة كلها وختمت بوقوعها هذه الحياة بختم المصائب ففي اواخر تشرين الثاني ذهب زوجها ,, العجوز المشبشب '' مع رفاق من اخوان الصفاء للتنزه على شاطئ البحر وعند رجوعه ضربته

الريح الشمالية فوصل الى البيت وهو يشكو ألمًا شديدًا في خاصرته ولما حضر الطبيب قال ان مرضه ذات الرئة فبقي في فراشه شهرًا كاملاً كانت زوجته تخدمه ليلاً ونهارًا بكل اخلاص وصبر وامانة .

ولكن عملها هذا ما كان الا ليزيده نفورًا منها لانه حينما شعر بدنو اجله اصبحت امامه كأنها هي العدوة التي قتلته واضطرمت نيران الغيرة في احشائه اذ تصور افلاتها من قيوده وسرورها بذلك الانفلات فود لو ارسلها امامه حتى لا يراها تبقى بعد موته وفي وقت مرضه هذا احضر هيئة المحكمة امامه واوصى بكل ماله لاخته ما عدا خمسمائة ليرة خصّ زوجته بها فقبلتها هذه مرغمة حتى لا يقول الناس ان رفضها لها كان عن احتقار بقيمتها

وبعد ايام زاد به الضعف فلما كان ذلك الوقت الرهيب وقت طلوع الروح نظر الى فريدة حاقدًا وهي تبكي فوق رأسه وقال لها : ,, اذهبي الى حبيبك الان ياخائنة وعوضي بحبه ما خسرته عندي '' ثم شهق شهقة قوية وفاضت روحه

****

وفي الشهر الثاني من موت حبيب كان فريد في غرفته صباحاً في مدينة ديترويت مشيغن في الولايات المتحدة وهو يقلب رسائل من اصدقائه في الوطن واكثرها من صديقه الحميم البرت بك وكلها وصف لحالة فريدة التعسة بعده يفطر قلبه كمدًا

طرق باب الغرفة فنهض ليفتحه واذا به يرى موزع البريد الذي ناوله رسالة من صديقه الحميم البرت بك وفيها خبر موت حبيب فلما قرأها وقف يفكر ملياً ومع انه لم يكن ينتظر استماع هذا الخبر فقد ارتجفت الرسالة بيده وتراكمت الافكار عليه

فاخذ الورقة وذهب الى غرفة والديه وانطرح على عنق امه وهو يبكي قائلاً :

— لقد مات المغتصب يااماه رحمه الله وترك لي رزقي لاذهب وامتلكه — ان فريدة وحدها الان وهي تنتظرني على احر من الجمر فيجب ان اذهب اليها حالاً وفي هذه الساعة

الفصل الثامن والاربعون

الدير

بعد موت حبيب باسبوع دخلت سوسن غرفة فريدة وكانت قد غابت عنها ساعتين بزيارة صديقة لها فوجدتها جالسة فوق صندوق مشدود بالحبال وعليها ثياب السفر فلبثت في الباب تنظر من الصندوق الى التي فوقه باستغراب واذ لحظت فريدة عليها ذلك قالت لها بهدوء :

— لقد قصدت مباغتتك بهذا الامر

فاجابت تلك مذعورة :

— باي امر ؟ وما هو سبب استعدادك واعداد هذا الصندوق للسفر ؟

— اما حان لنا ان نخرج من سجننا المظلم ؟ انني لم اسع للتحرر اما وقد تحررت بارادة الله فماذا بقي ؟

فاصفر وجه سوسن اذ قالت :

— والى اين يافريدة ؟

فاجابت هذه بهدوء وعليها ابتسامة السلام

— الى الدير — الى مقر الراحة — الى مكان الانزواء عن شقاء هذا العالم

— فريدة ماذا تعنين ؟

— اجلسي على هذا الكرسي فافصح لك

فلم تجلس سوسن على الكرسي بل على الصندوق بجانبها واذ ذاك قالت فريدة :

— ان هذا البيت كان لي جحيماً ارضياً في المدة الاخيرة كما تعلمين وسوف تكون ناره اشد ضراماً الان بعد موت المرحوم حبيب لانه اصبح ملك ظريفة فهل ترين ان لي فيه قراراً بعد الان ؟ والى اين اذهب ؟ انني شريدة طريدة لا مأوى لي الا في محل ,, الغرباء " في زوايا الدير حيث اصبح

وثوبي مثل! حظي مثل شعري

سواد في سواد في سواد

ففتحت سوسن فاها كأنها تريد التلفظ ثم اطبقته بدون كلام ولكن قصدها لم يخف على فريدة التي قالت بحزن وانفة :

— كلا · كلا · لا تلفظي ما في ضميرك ايتها العزيزة انه قد اتهمني بالخيانة ظلماً فما ادراك ان تهمته كانت حيلة بقصد التخلص مني ؟ انني كنت اصبحت عبئاً ثقيلاً على منكبيه اراد التخلص منه وحجر عثرة في طريق الحياة فاراد ازاحته بان جعلني مذنبة وهو بريء انا قد كنت اشك بالملائكة قبل ان اشك به واما بعدما ظهر ما ظهر منه فقد صرت اعتقد بقول ذلك الحكيم القائل : ان قلوب البشر تستدعي الحذر لانها كثيرة التقلب — انا اعتقد ان قلب الرجل هو غير قلب المرأة ياسوسن لان الاول لا يعرف الصفح التام والثاني لا يعرف الحقد التام

انني احبه اليوم كما في الامس وغداً كما اليوم وهذا الحب القوي بشرفه العظيم بطهره لا يقبل رحمة بل عدلاً اذ متى ابتدأ من يحبك ان „ يرحمك " ويدّعي التساهل معك والصفح عن ذنوبك فاعلمي ان إله الحب العظيم قد سقط عن عرش مجده الى حضيض الذل ومتى بدأت في الحب „ الرحمة " اضمحل „ الاعتبار " الذي هو روح الحب — ان كبريائي قد جرحت جرحاً بليغاً لا يداويه غير الابتعاد التام عن هذا العالم المملوء بالحقد والبغض والظنون السيئة فدعيني اجرب معيشة الدير بعد ان ذقت مرارة الحياة في هذا العالم ·

لفظت فريدة كلامها وسوسن تنظر الى وجهها فعرفت انه لم يكن من قلبها — عرفت انها مجرورة الى الدير جرًا بامر تكتمه عنها وقد رأته في عينيها فوجلت وللحال خيمت غيوم الهموم فوق سماء قلبها فامطرت العينان مزن الحسرة على ارض وجنتيها ولما رأت فريدة تساقط هذه الدموع اللؤلؤية اسرعت اليها تلتقطها بشفتيها عن خدي رفيقتها وهي تقول لها بحزن :

— كفكفي دموعك ياعزيزتي - يا احب واعز صديقاتي - فهل انت لا تودين لي الراحة بعد طول العذاب ؟

اجابت تلك وهي تشرق بدموعها :

— انني اريدها لك على غير هذه الطريقة فانك ذاهبة الى الدير مرغمة - انت ذاهبة اليه لتقبري في زواياه نضارة حياتك وجمالك وسعادتك وامر غضبه الاخير ليس هو حجة كافية لقتل قلبه وقلبك مرة ثانية — انك تلامين الان يافريدة فاحذري وتأني ولا تدعي الكبرياء الباطلة تقتل مستقبلك كما قتلته الطاعة الباطلة

فتنهدت فريدة من اعماق قلبها وزوت ما بين عينيها وقالت :

— انك لفي خطأ ايتها الحبيبة من حيث تسرعى اما من حيث ذهابي الى الدير ضد ارادتي فعلى صواب ولكن الدير وحده ولا سواه لي الان — انني في الدير لا اختفي بل اظهر — اظهر لروحي ابي وزوجي فينظران الى ضحية ظلمهما ولفريد فيعرف غلطه وتظهر له قساوته و بربريته وللذين لاموني واضطهدوني وحكموا بحقي كلا ما

ظالماً تظهر حقيقة حالي — دعيني اكمل التضحية فانني خلقت لها ومتى خلق الانسان لامر فباطلاً يهرب منه ·

— ولكن فريد — فريد يافريدة هل يطاوعك قلبك على تركه ؟

— انني بلا قلب لان قلبي معه — . اما روحي فانها تجد عريساً لا يبغض ولا يتسرع ولا يحقد ولا يخون ولا يتهم ولا يظلم لانه يعرف ما داخل خفايا القلوب وطيات الضلوع — لانه اله يرحم لا انسان يظلم

— اخشى ان يقع عليك الندم ايتها الحبيبة بعد فوات الوقت

عند هذا الحد سلم ضعف برهان فريدة لقوة سؤالات سوسن فنهضت من مكانها ومشت نحو سريرها فانطرحت عليه تبكي بكاء مراً فتبعتها رفيقتها ولما وقفت بجانبها مدت تلك يدها لصدرها واخرجت منه كتاباً ناولته لسوسن وقالت لها بصوت يقطعه الحزن والاسف :

— اقرأي — اقرأي واعذري ·

ابتدأت يد سوسن ترتجف حينما مسكت الظرف لانها رأت عليه خط فريد وقبل ان تفتحه وتقرأه عرفت ان فيه سبب ذهاب فريدة الى الدير — انه يحوى على سكين ماضية قطعت آخر حبال الامل وقد تحقق ظنها لان الكتاب كان مطوياً على كلمات قليلة بدون استهلال هي هكذا

„ لقد وجدت بلسماً لجروح قلبي بفتاة لا تعرف غير الطهارة والوفاء والشرف والحب لانها مثل فريدة القديمة وليست مثل فريدة الحاضرة ‟

فريد

وبعد انتهاء سوسن من قراءة ذلك الكتاب شبت نار الغضب في قلبها فمزقته نتفاً نتفاً ورمته امامها وداست عليه قائلة :

ــ تباً له من خائن ظالم !

فرفعت فريدة رأسها عند سماعها هذه الجملة التي خرقت احشاءها كالسهم ولما رأت نتف الكتاب تحت اقدام رفيقتها ركضت اليها تلتقطها كمن مسها جنون وهي تقول لها وتقبل تلك الكلمات :

ـ آه ياسوسن ـ ما اقساك ٠

فاجابت سوسن بحدة :

ـ انك ضعيفة يافريدة ولو كنت مكانك لكنت افعل لقهره ما هو انجع من الدير ــ لكنت اتزوج بغيره نكاية بهِ وادعه يأكل اصابعهُ ندماً على ظلمه وتسرعه فانه قد كتب ما كتب ليقهرك فقط وهو لا يحب في النساء غيرك

فتنهدت فريدة وهي تبتسم وتهز رأسها وقالت لصديقتها :

ـ ماذا قلت ايتها الحبيبة ؟ اتزوج ؟ ولماذا اتزوج ؟ للسعادة ؟ او للحب ؟ او للحياة ؟ انه لأهون عليَّ الف مرة ان اكون جبانة وانتحر من ان اكون جبانة واتزوج ٠ فآه ياسوسن

هل جننت ؟

ـ ولكن انظري ماذا فعل هو معك فهل تموتين لاجله بعد ان ظهر ما ظهر منه ؟

ـ انه لم يفعل معي شيئاً . اما انني اموت لاجله فهذا الامر يتم رغماً عني ايتها الحبيبة لانني لاجله احيا ولاجله اموت ـ ان الامر طبيعي ياسوسن فاعدلي

ومن يلوم سوسن ؟ انها كانت تحبها حباً يقرب من العبادة وقد تقطع قلبها من عذابها عليها مدة تسع سنوات فهل ترغب في اعادة تلك المأساة ؟ هل تطيق ان تفر فريدة من المقلاة للنار ؟ وان تختم حياتها بهذا الختم الابدي وهي غير مدعوة اليه بل تحب تجرعه مداواة لمصائبها ولعمري هل يداوى الداء بالداء ؟

فلما سمعت كلام رفيقتها الاخير وقعت غشاوة على بصرها ومشت نحو الباب تنوي الخروج منه فتبعتها فريدة وجرتها بطرف ثوبها قائلة :

ـ الى اين ياسوسن ؟ ارجعي واخبريني على ما نفترق ايتها الرفيقة الصادقة والاخت الحبيبة ان امرك يهمني اكثر من امر نفسي

فرمقتها سوسن بنظرة ملؤها الاخلاص والحنو قائلة :

ـ هل تسأليني هذا السؤال ياكافرة ؟ وهل تظنين

الحاحي عليك هو لاجل نفسي وليس لاجلك ؟ انت تعلمين انني خلقت للدير وليس للعالم ولكن الفرق بيني وبينك انني مدعوة اليه من السماء اما انت فقد دعوت نفسك قسرًا وقد فضلت خدمتك في تعسك على الذهاب اليه قبلاً لعلمي ان فيها اعظم فضيلة اقدر على اتيانها اما الان فبعد ان مكثت معك كل هذه الاعوام في جهنم العذاب فهل اتركك في طريقك الى سماء الراحة كما تقولين

فكان جواب فريدة الارتماء على عنقها فتبادلتا القبلات الحارة التي جددت عزائمهما فاتمتا استعدادهما

وكانت فريدة قبل سفرها بيوم ٍ واحدٍ وزعت الخمسمائة ليرة التي بيدها على المشاريع العمومية في عمشيت وخصصت اكثرها بالمستشفى ومدرسة الاناث ووزعت كل ثيابها الجميلة وحلاها على صديقاتها من البنات الفقيرات ولم تأخذ من ذلك البيت سوى ثوبها الاسود الذي كان عليها و بعض قطع نسيج من شغل يدها وكتبها والصور التي لديها وابقت المال الذي ورثته من والدها للدير معها

وعند اصيل ذلك النهار كان قد تم كل شيء فمسحت فريدة نقط العرق عن جبينها الوضاح وقالت لصديقتها :

— لقد تم كل شيء - لقد وضعنا الذي يفصل بيننا و بين العالم الى الابد جانباً

اجابت سوسن وهي تنظر اليها :

ــ انني اراك هادئة جميلة وعلى وجهك هيئة السلام التام

ــ ذلك لانه اضطراب قلبي وصل الى حد نهائي ياسوسن ومتى انتهت حدود الاضطراب تبتدئ حدود الراحة كما انه متى انتهت حياة الشقاء تبتدئ حياة الهناء بالموت

وبعد ساعة من الزمن اخرج رجلان صندوقي فريدة وسوسن وخرجتا وراءهما فلما رأت ظريفة الصندوقين خارجين من الباب بغتة ووقفت تسأل الرجلين عن سبب خروجهما وصلت اليها فريدة ومدت اليها يدها قائلة بلطف :

ــ الوداع ياظريفة ٠ خاطرك ٠ اصفحي عني فلربما كنت مذنبة باعتقادك ٠

ثم قالت بعدها سوسن ذات الكلام تقريباً وخرجتا مسرعتين ولم تتركا لظريفة فرصة للسوءال فاخذت تعدو وراءهما وتناديهما فلم تقدر على لحاقهما ولم يُجَب نداوءها ٠

الى العربة المنتظرة وصلت الفتاتان ولما صعدتا اليها نظرت فريدة نحو عمشيت بلدتها المحبوبة واخذت تودعها بعين دامعة وقلب متقطع قائلة في نفسها :

ـ الوداع يابلدتي المحبوبة ومسقط رأسي العزيز ـ الوداع يابيت ابي الذي ولدت وترعرعت داخلك وهناك تجرعت الكأس التي كان اولها دسماً وآخرها سماً ـ الوداع ياايتها الخرنوبة التي

شهدت تألمي وسمعت انيني ويااليتها اللوزة والسنديانة اللتان اظلتني غصونكما يوم كنت ارتع في ربوع السعادة مع فريد ويوم كنت اسكب دموع الحزن على فراقه ـ الوداع يااصدقائي الذين ساعدتموني بقطع مراحل العذاب ويا اعدائي الذين سببتموها لي ـ الوداع يابلدتي الجميلة المحبوبة مرة ثانية ـ انك لن تري جسدي اما روحي فهي ترف فوق ربوعك وحول التذكارات الحلوة والمرة فيك الى الابد

الى دير للراهبات في كسروان وصلت الفتاتان عند غروب الشمس فدخلتاه بترحاب لان رئيسته كانت تعرف فريدة معرفة تامة ٠

الفصل التاسع والاربعون

الرجوع المؤلم

بعد خمسة وعشرين يوماً من ذهاب فريدة الى الدير رست باخرة في مرفاء بيروت وخرج منها فريد ولما دنا من الزورق الذي يقله من الباخرة الى الرصيف نظر رجلاً يلوح اليه بمنديله فعرف انه صديقه الحميم البرت بك وود لو رمى نفسه من الزورق وذهب اليه سباحة لظنه ان هذا بطيء في سيره ٠

ولم يكد فريد يضع رجليه على حافة الرصيف حتى وجد

نفسه بين يدي صديقه فتعانقا مرتشفين قبلات المودة والاخاء حتى الارتواء ثم قال البرت بك لفريد باخلاص :

— ان الصداقة فاتحة لك قلبها والحرية ذراعيها يا ايها الامين على عهد الاولى ونصير الثانية فاهلاً وسهلاً .

فانتفض فريد من كلام صديقه انتفاضاً وقال له جزلاً :

— انني بين ثلاثة عوامل تفيض على قلبي سروراً لا اقدر على وصفه هي لقاء الخل الوفي والفرح بالرجوع لوطني الذي تركته منذ مدة قصيرة عشاً تبيض و تنقف فيه طيور الفساد فوجدته قد اصبح الان حديقة تتغنى فوقها طيور « الاخاء والحرية والمساواة » . اما العامل الثالث فانت تعرفه — انني ابن الساعة الحاضرة ياصديقي وقد نسيت كل عذاباتي الماضية

فضحك البرت بك من كلام صديقه واجابه مداعباً

— لقد كذبت يافريد بجعلك (العامل الثالث) آخر العوامل وهو اولها ....

فاجاب فريد بضحكة من نوع ضحكة رفيقه وهو يدخل وراءه عربة كانت معدة لتقلها ولما اصبحا داخلها نظر فريد الى صديقه قائلاً :

.. ماذا ارى ؟ هل اصدق نظري وسمعي ؟ وهل هذه الحرية الجديدة سراب او ماء ياعزيزي ؟ وهل هذه المساواة برق خلب او وراءه مطر الاصلاحات والتساهل والنشاط

والاخاء الحقيقي تحت سماء الوطن الواحد ؟

اجاب البرت بك بصوت ملؤه الامل :

— بل هو الامر الاخير على ما ارجو يافريد لان اكثر الشعب تقبل هذه المنة برغبة قلبية وشوق اكيد واظنك لا تزال تذكر قولي لك مرة : ان فينا رجالاً كالصواعق لا تعرف الا حين انقضاضها فقد انقض كما عرفت رجال الاصلاح في سالونيك ومنستير كالصواعق التي دمرت معاقل الظلم ومعاهد الاستبداد وهوذا بعض رجالنا في لبنان العزيز — لبنان المحبوب من كلنا يافريد — يقتفون آثارهم بجعلهم حتى الظالم يقر ويجاهر بمحبة الحرية خوفاً وهو من اعدائها . ويكفينا فوزاً الان اننا اذا لم نقدر على محو آثار الظلم وقطع دابر جراثيم الفساد حالاً وهذا مستحيل اصبحنا نقدر على اظهارهما للشعب بواسطة الجرائد الحرة والخطابة

— كم انا سعيد ياسيدي الصديق — كم انا فرح بتحرير وطني .

وعلى هذا النمط جرى حديث الصديقين حتى اوشكا ان يصلا الى مدينة جونية وكان البرت بك يعرف بذهاب فريدة للدير لانه جعل نفسه رقيباً على اعمالها لكي يبلغها لصديقه فريد ولكنه لم يخبره بهذا الامر وتركه لحين قربهم من مكان وجودها الذي اصبح على مقربة منهما

ولما اصبحا على مقربة من الدير الذي فيه فريدة نظر البرت بك الى صديقه قائلاً :

— احب ان اقص عليك خبراً قد تظنه مدهشاً اما انا فلا احسب ان له اهمية تذكر .

فحملق فريد بوجه رفيقه وقال ملهوفاً وما هو ؟

— هو ان فريدة تسكن هذا الدير الذي نراه على تلك التلة امامنا الان واظنها ذهبت اليه طلباً للراحة الوقتية من ضجيج هذا العالم عند رئيسته التي هي صديقتها كما تعلم .

فاحس فريد كأن كلام رفيقه قطعة من جليد كبيرة جداً قد وضعت فوق قلبه فاثلجت دمه فيه وسكنت نبضاته فقال بخوف :

— فريدة في الدير ! آه ياصديقي انها لن تخرج منه ابداً .

ثم لوى عنقه واستغرق في البكاء كالطفل فطوق رفيقه عنقه بذراعه اليسرى ومد يده اليمنى ورفع رأس رفيقه وقال له بكل لطف ووداد :

— خفف عنك يافريد فان قوة المحبة تخرق جدران الدير وتخرجها منه ولكنها لم تذهب لتصير راهبة فممَّ تخاف ؟

ولكن فريد كان خائفاً مما لم يعرفه البرت بك ليخاف منه فكان بوم افكاره يقف فوق قلبه بصوت الشؤم ولذلك سكت

ولم يجب الى ان وصلت العربة بهما امام باب الدير فترجل منها صديقه وذهب نحوه وتبعه هو بقلب خائف تعس كأنه ذاهب الى جنازة فريدة وليس للقائها

الفصل الخمسون

المريضة

وقفا امام باب الدير الخارجي وقرعا الجرس ففتحت لهما الرئيسة ذاتها وكانت تعرف البرت بك فرحبت به الترحيب الذي يستحقه امثاله ثم عرفها الى فريد ودخلا قاعة الاستقبال وبعد ان تبادلا مع الرئيسة بعض عبارات وتناولا الشربات قال البرت بك للرئيسة :

— علمت ان في هذا الدير سيدة تدعى السيدة فريدة حبيب نعمه ورفيقة لها هي الانسة سوسن الياس .

— نعم انهما هنا منذ شهر تقريباً

— وهل يؤذن لنا بمشاهدتهما ؟

فنظرت منه الى فريد الذي كانت يده اليمنى تسند قلبه الان وقالت :

— ان السيدة فريدة مريضة لا تقدر على النهوض

فاوقفت كلمتها فريداً من مكانه وانتصب امامها وهو لا

يعرف مقاماً او يراعي احتشاماً وقال بصوت يرتجف :

— فريدة مريضة . فاين هي الان ؟ انني احب مشاهدتها حالاً .

لحظت الرئيسة ما بهِ حالاً لانها هي كانت امرأة وربما كان السبب الذي حبب لفريدة الدير هو ذات السبب الذي حببه لها هي ايضاً لذلك رقت للشاب واجابته بلطف :

— اذن تفضلا بانتظاري هنا بضع دقائق لأذهب واعلمها بالامر .

ولم تكد الرئيسة تخرج من الباب حتى ارتمى فريد على المقعد وقال بوهن :

— انها مائتة — لقد قتلتها !

فقال رفيقه لماذا هذا التشاؤم يافريد كأن الناس لا تمرض ؟

ففرك فريد يديه وقال بحسرة :

— نعم الناس تمرض ولكن مرض فريدة يختلف عن امراضهم -- انني اشعر بدنو الخطر

— مهما يكن داؤها عياء فانا اكفل لها الشفاء لان معي لها الدواء

فتنهد فريد وقال بحزن :

— انك لا تعرف ياصديقي — لا تعرف — اذ قد يكون الداء في نفس الدواء .

وهنا رجعت الرئيسة تقول بحزن :

ـــ انها مريضة جداً ولا اقدر على السماح لكما بالدخول اليها ما لم يؤذن بذلك الطبيب

اجاب البرت بك وهو يشعر بالخطر ايضاً :

ـــ ومتى يأتي الطبيب ؟

ـــ بعد ساعة على الاكثر

ـــ اوَ لا يمكنك طلبه حالاً ؟

ـــ اظن ذلك .

ـ اذن تكرمي بارسال احد في طلبه حالاً ولكن مـا هو مرض السيدة ؟

فنظرت الراهبة في فريد متوجعة ولكنها لم تقدر على الكذب فقالت :

ـ الحمى الدماغية

ولما سمع فريد كلمتهـا الاخيرة وقع على الارض وصرخ صرخة دوى لها المكان وقال لالبرت بك :

ـ ألم اقل لك . ألم اقل لك ! ـ آه يافريدة !

حينئذٍ خرجت الرئيسة من الباب وهي تمسح دمعتين كلؤلؤتين سقطتا فوق خديها واجتهد البرت بك برفع فريد عن الارض واجلسه على المقعد وجلس بجـانبه ليسنده وهو يفرك بيديه ويبكي كالمجنون

وبعد وقت قصير دخل الطبيب وهو رجل جميل المنظر لطيف بشوش ولا غرو فالبشاشة وصناعة الطب صنوان لا يفترقان لانه يندر ان ترى طبيباً لا يكون قد اتقن فن « البشاشة » وبرع فيها اكثر من فن الطب احياناً . . ولا سيما مع السيدات . .

والاطباء نوعان : نوع تكون بشاشته طبيعية مصدرها حب المريض ومعرفة الآمه والشعور معه ومحاولة تسليته عن علم وبراعة طبية وهذا النوع من البشاشة يساعد على شفاء المريض وتسلية مثل الدواء ونوع يجعل البشاشة ستراً للجهل يجرب سدله على الآم المريض ليستر بها الضرر الذي يأتيه من جهله فليحذر اصحاب البيوت ولا سيما السيدات منهم من « بشاشة الاطباء » ولا يسمحوا لها ان تلهيهم عن فحص معرفتهم الطبية لأنها لا تغني عن العلم فتيلاً ولا تفيد بدونه غليلاً وكثيراً ما يجرع الطبيب « اللطيف » سم الجهل والضرر في كأس « البشاشة » البلورية للمريض .

وكان الطبيب الذي وقف امام البرت بك وفريد من النوع الاول فلما رآه فريد كادت عينه تطير من وجهه لانه كان ينظر اليه نظرة الغريق الى مخلصه وكأنه ينتظر سماع كلمة الموت او الحياة من بين شفتيه اما الطبيب فقد خرق بنظره صدر فريد وقرأ آيات قلبه حالاً فلما سأله بلهفة قائلاً :

— ارجوك ياسيدي ان تلفظ كلمتك حالاً — هل تقدر على مشاهدة السيدة ؟

— فنظر الطبيب اليه واجاب بحزن .

— انني اخشي من دخولكما عليها قبل ان اعرف كيف يكون تأثير مرآكما على دماغها لان سبب هذه الحمى معها هو تأثير عميق جداً لامر حدث لها لا ادري ما هو .

وكان فريد يسمع كلام الطبيب وهو يشعر كأن قلبه سقط امامه على الارض فسأله بصوت يتصدع له الجماد قائلاً :

— ارجوك ان تخبرني الحقيقة يادكتور فهل حالتها تنذر بالخطر ؟

اجاب الطبيب بهدؤ :

— لا اقدر ان اعرف شيئاً الان ولكن ان شاء الله تشفى من مرضها

ثم خرج من الغرفة وتبعه البرت بك الذي قص عليه باختصار قصة فريد وسأله مساعدته ثم رجع الى فريد فوجده جالساً ووجهه فوق كفيه وهو يتلقى بهما فيضان دموعه فقال له بوداد :

— ارفع رأسك ياعزيزي فان الطبيب ذهب الى غرفة فريدة الآن وعما قليل يرجع الينا بالاذن بالذهاب اليها

وبعد عدة دقائق ظنها فريد شهوراً رجع الطبيب وهو يقول :

— لقد اخبرت السيدة بامركما فطلبت ان تشاهدكما اما انا فارجوكما ان لا تدعجاها بالكلام ولا تطيلا المكث في غرفتها .

الفصل الحادي والخمسون

لوداع الاخير

ولم يكد الطبيب ينتهي من كلامه حتى صار فريد بباب القاعة متقدماً الجميع فمشت الرئيسة معهما واصعدتهما الى الطبق الثاني واذ كانا يمران في ممر على جانبيه غرف النوم كان فريد يتطلع في كل باب وعيناه تكادان تطيران من وجهه تلفتاً الى الغرفة المقصودة الى ان وصلا الى غرفة في الطرف مطلقة النوافذ للهواء النقي وهذه النوافذ تطل على حديقة غناء فوقفت الرئيسة امام بابها واومأت لهما بالدخول

فدخل فريد وهو كالجائع الملهوف وقد وضعت امامه قصاع الطعام الشهي - ولكن ماذا وجد؟

وجد امامه جوهرة حبه تلتف حولها اطمار اليأس - وبدر آماله تحجبه عنه ظلمة الموت - وزهرة حياته قد اذبلتها حرارة الحمى الى حدّ اليبس - وطعام قلبه الوحيد قد سممه المرض - وسعادته قد قبضت عليها يد القدر القوية !

وجد فريدة بوجه اصفر وعينين غائرتين وجسم نحيل على فراش الموت وتحت قدميها سوسن تبلل فراشها بدموعها و بجانب رأسها راهبة كالملاك تبلل شفتيها اليابستين بالماء البارد

فمن يقدر ان يتصور حالة ذلك الرجل المحب الهائم اذ

ذاك ؟ ان القلم يقر بعجزه و يترك الامر لقلب القارئ وعواطفه اما فريدة فاذ رأته ادارت وجهها نحوه وابتسمت تلك الابتسامة الملائكية فكانت افعل بقلبه من طعن الف حربة مسممة ·

وللحال هجم على سريرها هجوم اللبوءة على اشبالها متى اخرجب من قفصها وارتمى فوق وجهها وعنقها يقبلها و يشهق حتى اغمي عليه وهي عاجزة عن رفعه والحاضرون ملتهون عنهما ببكائهم ·

و بعد بضع دقائق استفاق فريد من اغمائه واستفاق البرت بك من بكائه فقال للراهبة ولسوسن :

— فلنخرج · فلنخرج ! لان هذا المنظر اقدس من ان تدنسه الانظار فخرج الثلاثة يبكون ويدعون لفريدة بالشفاء ولكن ماذا يفيد الدعاء متي تمكن الداء ·

فان دماغ فريدة المسكينة كان يضعف رويداً رويداً من عذاباتها مدة التسع سنوات الاخيرة حتى لم يبق له سوى بقية ضعيفة من القوة جاءتها ضربة قسوة فريد فاجهزت عليها ·

و بعد ثلاثة ايام من وصول فريد احست فريدة بدنو الاجل ووهن القوى فاعترفت وتناولت القربان المقدس زاد النفس الاخير وطلبت الاختلاء بسوسن وفريد فنظرت الاولى عند رأسها لجهة اليسار والثاني لجهة اليمين فنظرت الى هذا اولا بعينين ملوءهما التجلد والصبر وقالت له :

— يافريد الحبيب أخبرتني البارح ان كتابك كان بقصد امتحان حبي وقد رأيت تأثيره فانا احب ان اطلب منك امراً الان فهل تقضيه لي ؟

فمن يجيبها ؟ ان الموت كان يضغط على قلبه اكثر مما كان يضغط على روحها لذلك نظر اليها نظرة تفتت القلب ولم يجب فاستأنفت الحديث قائلة :

— انا اعلم ان موتي ضربة قاضية على حياتك بعدما عرفت براءتك وحبك الثابت ولكنها ارادة الله ياحبيبي — فان احببت ان تخفف عني ألم الفراق وتنير امامي ظلام القبر وتفرش لي ارضه بالازهار الجميلة وتزين جدرانه بالالوان المفرحة الزاهية — فتصبر على فراقي لتعلمني الصبر في اظلم وارهب وآلم ساعة هي ساعة موتي هذه

ليس الموت ما يرهبني يافريد بل فراقك الارضي — انني كنت اطلب الموت مؤخراً لانه ختم من ذهب على مصائبي اما الان فقد صرت ابغضه لانه ستار يسدل على وجه سعادتي فيحجبها عني الى الابد — فاذا كنت ترحمني فقوّني بكلمة لطيفة معذبة بابتسامة حلوة منعشة فاموت ببعض الراحة — اصبر يامنتهى آمالي فحسبي سعادة انني اموت بين ذراعيك وانت عارف حقيقة حالي بعد الشك وهل خلقت انا التعسة لاحصل على السعادة التامة في الحياة ؟ ان مصائبنا وعذاباتنا بخور يحرق

امامنا ويتقدمنا الى عالم الخلود حيث نجتمع في المستقبل بالروح التي هي افضل من الجسد — نحن كنا عائشين بالروح دائماً يافريد وكأن الله لم يرد التخفيف من بهاء هذه المعيشة فلم يسمح بشركها فلم يجمع جسدينا في هذه الحياة فلتكن ارادته — وانت ياعريس روحي اذا اشتقت الى فريدتك فاذهب الى عمشيت وتنشق عبير طهرها — اجلس تحت تلك الخرنوبة فترف فوقك روحها — اسأل عنها حتى اعداءها يقروا لك بصبرها وفضلها بعد موتها وان انكروهما بحياتها — لان سبب الجسد قد زال الان — ان ذكري بقلبك وروحي ترافقك فما الذي تخاف . اجبني ؟

فاستلّ في يده خنجراً وصوبه نحو صدره وقال لها بجنون :

— اذا كان الله لم يبقك لي فلمن يبقيني ؟

فنظرت فيه بوجل وقالت له بضعف :

— فريد . فريد . اغمد خنجرك في قرابه واعلم انني عشت طول حياتي شجاعة فاذا اتيت هذه الجبانة تخسرني لان هناك لا يجتمع النقيضان اصبر يافريد اذا كنت تحب الاجتماع في دار الخلود ولا تتسرع الان كما تسرعت قبل الان . آه ...

فسقط الخنجر من يد فريد المرتجفة على الارض حالاً عند سماعه كلمتها الاخيرة وصرخ بها مستغيثاً قائلاً :

— انا اعلم ان ذنبي لا يغتفر لو لم تكوني انت الغافرة —

فارحميني يافريدة اذ يكفيني هذا القصاص - اشفقي علي وخذيني اليك بطريقة سريعة اذا كنت لا تسمحين لي بالانتحار — انني لا اقدر ان اعيش - لا اقدر ان اعيش !

فاجابته بضعف كلي :

— انني ارحمك ولكن ذنبك كان عظيماً وقصاصه يجب ان يكون اعظم وهو الصبر على موتي فهل تقبله ؟

فلوى رقبته وقال بصوت يخنقه البكاء :

— لا بد من قبوله لانني خلقت لكي اتمم ارادتك وانت لم تريدي لي شيئاً مريحاً في حياتك ومماتك يا ايتها الحبيبة

فابتسمت من كلامه تلك الابتسامة التي هي دمعة القلب المحرقة وقالت له متمرمرة حزينة :

— الان اموت براحة - اما ما جرى فقد جرى

ثم ناولته يدها وادارت وجهها نحو سوسن وكلمتها بصوت اضعف من الصوت الذي كلمت به فريداً قائلة :

— لا اقدر بعد على اطالة الكلام يااختي سوسن فاحسبي ان كل كلمة قلتها لفريد من كلام الوداع هي موجهة اليك ايضاً بزيادة يارفيقتي في الحياة والممات اتوسل اليك ان تأخذي انت وفريد جثتي وتوارياها في الثرى تحت تلك الخرنوبة العزيزة في مسقط رأسي — وهناك ضعي فوق قبري ثلاثة احجار رمزاً لتلك الحجارة الثلاثة التي وضعتها حين مقابلتنا لفريد — لا

تسمحي لهم ان يقبروني في مقبرة عمومية وبين الناس لان عظامي لا ترتاح الا وحدها ومعكما بعد زمان طويل — اغفري لكل من اخطأ واساء الي باسمي — وزوري قبري في كل صباح انت وفريد وانشرا عليه من ازهـار الحقل التي لا تمد اليها يد لانها ظاهرة — لا تلبسي علي سوادًا بل بياضاً لان روحي لا تقدر ان ترف حول الظلمة بل حول النور بعد تخلصها من تلك ووجودها بها . سوسن سوسن ! — . انني تركت اليك كل ما هو لي في الحياة — فريدًا — فانظري اليه بعيني واحبيه بقلبي لانه اخوك كما كنت انا اختك — اما الان فمدا الي ايديكما وتناولا بهما يدي واعيناني في طريق السماء انني بمساعدتكما احيا واموت — الوداع — الو — دا — ع !

****

وبعد ساعات سدل ستار السكوت على ذلك المشهد المؤثر لان روح فريدة الطاهرة كانت قد فارقت جسدها بعد غيبوبة قصيرة وفريد وسوسن ارتميا حول سريرها مغمياً عليهما .



الفصل الثاني والخمسون

الجنازة

في ذلك الليل كان المطر يتساقط بغزارة والرعود تقصف والبرق يضيء السماء والارض فكأن الرعود رمز لغضب الله ارسلها شبه كرات انفجارية لتهدم ارضاً تظلم هذا الظلم وعالماً يسلي بوجو به والبرق كان يفتح نوافذ في السماء فيرى الناس منها فريدة جالسة مع صفوف الشهداء و بيدها اليمنى جريدة النخل علامة الانتصار على الرذيلة وفي اليسرى عرق من زنبق علامة الطهارة والفضيلة ٠

اما الغمام فقد كان يصب من عيونه مزناً صافية وغزيرة على شهيدة العذاب والشرف والظلم وقد اخر القوم في ذهابهم بالجثة الى اليوم الثاني كأنه ينشد بلسانه الصامت قائلاً "اصبروا٠ اصبروا٠ ولا تأخذوها من هنا حتى اصب عليها كل ما في عيني من الدموع"

اما في غرفة الميتة فقد كان المشهد سماوياً ـ فريدة ممددة

على سريرها الابيض بمنظرها الملائكي وهيئة السلام والراحة مع ابتسامة الرضى منتشرة على وجهها الجميل النحيل وحول نعشها صفوف الراهبات وفي ايديهن الشموع المضيئة يودعنها بنشيد محزن وكأنهن صفوف من الملائكة يمثلن على الارض ما كان لها في السماء من الملتقى الباهر ولكن شتان بين حقارة الارض وعظمة السماء

وكانت عيون من حولها ينابيع فائضة بالدموع فوق رأسها اما عيون فريد وسوسن فقد بقيت دائمة الفيضان - ومن تراه لا يبكي امرأة اطاعت فابتليت فصبرت قائمة بواجبها بامانة وهي تقطع طريق المصائب الوعرة المسالك تدمي قدميها الرخصة اشواك العذابات القاسية وتحرقها شمس الحب و يقتلها ظمأ الشوق فلما وصلت الى مقر الراحة ونظرته عن كثب وكادت تدنو منه بل تلمسه فتحت يد الموت باباً بتلك الطريق فسقطت فيه الى الابد كأنها مجرمة وقد كان الموت قصاص جرائمها — فاغمضت تينك العينين النجلاوين وهي تقول بحسرة وتنظر اليه — آه ما اقربك مني وابعدك عني ياسعادتي !

وعند ظهر اليوم الثاني مشت عربة الموتى تقل تابوتها وعربة اخرى فيها فريد وسوسن والبرت بك بقلوب منكسرة .

الى مسقط رأسها ومحل ، راحتها وعذابها ، رجع جثمان فريدة كما احبت وفي بيت فريد وضعت تلك الجثة الطاهرة

لتودعها جماهير اهلها واصدقائها وابناء وبنات بلدتها ولما ادخل النعش من باب البيت صرخ فريد صرخة هائلة وقال مخاطباً روحها :

« انهم حرموك دخول هذا البيت كعروس صبية جميلة ظلماً فسببوا بذلك دخولك اليه جثة هامدة وقد جازاهم الله وجعلهم عبرة للاباء والازواج وانت عبرة للبنات »

في ثاني يوم كانت الجماهير مجتمعة حول تلك الخرنوبة وقد حفر تحتها قبر فادلوا اليه تابوت فريدة واسلموا بذلك التبر لى الترب

هناك في تلك الارض العزيزة عليها دفنوها وعلى حافتي القبر وقف فريد يسنده البرت بك صديقه وسوسن تسندها هند وهم يذرفون دموع الاخلاص والحزن فوق النعش كأنهم يجعلونها غطاء ناعماً لجسم ناعم حتى لا تمسه قضاضة التراب وخشونته .

وفي تلك الساعة حانت من سوسن نظرة فرأت الخوري متى الذي كلل فريدة يتقدم جميع الكهنة لتجنيزها فصاحت به بصوت مخوف قائلة :

— ارجع الى الوراء ياصاحب القلب الاسود داخل الثوب الاسود ودع غيرك ممن يستحقون هذه الوظيفة يأخذ مكانك ـ انت الذي رفعت هذه اليد الشريرة وباركت زواجها مع علمك

انه لعنة على حياتها لانها رضيت به تحت العصا وهي تصرخ مستغيثة فلم تغثها — انت الذي سألتها عن رضاها فكان جوابها الرفض ومع ذلك كللتها وهي غير مدركة - انت الذي بيد جاهلة او مرتشية او شريرة عقدت عقدة زواجها الغير قابلة الانحلال فقتلت بذلك جمالها وسعادتها وراحتها وحياتها ولو لا قوة فضائلها لكانت قتلت هذه ايضاً — انت ياقاتل الفضيلة الزوجية - ويا ماحي آثار الحب السعيد - يامهلك الحياة ويا مدني من الموت. متى كنت خائنا لوظيفتك او غير اهلٍ لها لا تستحق هذا المكان الذي تقف فيه الان مصلياً فوق نفس طاهرة لا ترضى بصلاتك الغير مقبولة - فانظروا ايها الناس فوق رؤوسكم تروا روحها شبه حمامة ترف وتصفق بجناحيها طالبة ابعاده عن جسدها الذي سبب قتله - اطردوه باسم الله والانسانية. امنعوه عن الصلاة باسم الدين الحقيقي فانه في موقف شريف يدنسه ولا يستحقه لأنه هو طلب هذا الموقف للجنـازة ولم يطلبه الموقف للاصلاح

وكان فريد كصخر اصم لا ينتبه لشيء. حتى لكلام سوسن نفسه لم يصغ او ينظر حوله. فتقدم بعض من افاضل الحضور وابعدوا الكاهن قائلين :

— انت قد قتلت سعادتها ياهذا فلا يجوز لك ان تصلي فوق ضحية يدك الاثيمة

فانسحب ذلك الكاهن يجر اذيال الخزي والعار — وتباركت تلك الساعة التي يقف فيها الحر فيقول للمجرم ايًا كان ,, انك مجرم ياهذا !''

****

الصفل الثالث والخمسون

الختام

مرّ ذلك الشتاء ببرده وزمهريره وعقبه الربيع باعتدال طقسه وهوائه وجمال ازهاره وصفاء سمائه فنبت العشب الاخضر وفتحت براعم الازهار فوق قبر فريدة الذي كان فريد قد بنى فوقه معبدًا صغيرًا على اسم الثالوث الاقدس كما اوصت هي وجعل حوله حديقة صغيرة كان هو وسوسن يسقيانها بدموعهما صباحًا ومساء ويعتنيان بها بايديهما

وفي صباح يوم من ايام ايار البديعة بكرت سوسن حسب عادتها لتصبح فريدة في قبرها فرأت عن بعد شبحًا ممددًا في تلك الحديقة فخافت ورجعت الى الوراء ولكنها تذكرت انه قد يكون فريدًا الذي كثيرًا ما كان ينام على قبر حبيبته فلما اقتربت من القبر وجدت الشبح فريدًا ولكنه لم يكن نومه وقتيًا

بل ابدياً الان

كان وجهه لجهة الارض كأنه ينظر الى وجه فريدة — فادارته سوسن نحوها واذا بها تراه بارداً كالثلج وصافياً كالشمع وعلى شفتيه الجميلتين ابتسامة الراحة والطمأنينة اللتان لم يعرفهما في الحياة فأثر المنظر بها واغمي عليها فارتمت بجانبه ولم تعِ الا على مناداة أحد الرعاة الذي رآهما على تلك الحالة وهو مار بغنمه عند شروق الشمس ولما استفاقت سوسن وقفت مبهوتة حائرة فلم يمضِ عليها قليل وقت حتى وفدت جماهير الناس الذين عرفوا من ذلك الراعي بالخبر فاتوا ليروا · فأخذت تناديهم باعلى صوتها كأنها قد مست وخولطت في عقلها قائلة :

— تعالوا · تعالوا · ايها الناس وانظروا ! هلموا اسرعوا وشاهدوا هذا المنظر المفجع المحزن – لا بل المريح المسعد – منظر اجتماع الحبيبين بالموت ذلك الاجتماع الذي عجزوا عن الحصول عليه بالحياة – ادفنوه حالاً معها لانه مشتاق اليها – وارحموني واتبعوني بهما لان لا طاقة لي على الحياة بدونهما اسرعوا · اسرعوا · وادرسوا امثولة في الحب الحقيقي والزواج الظالم ونادوا جميع اهالي لبنان وسوريا ان يدرسوها معكم

ثم اغمي عليها ثانية فنقلوها مع جثة فريد الى بيته · حيث بقيت مريضة زمناً طويلاً بعد الاحتفال بدفن جثمان فريد في

قبر فريدة ـ وعند شفائها رجعت للدير

****

وهكذا سُدل الستار على هذه الحادثة المفجعة التي هي واحدة من الوف بل عشرات الالوف الممثلة على مراسح الظلم والخرافات والتقاليد والطمع والجهل في ربوع سوريا ولبنان ومعظم انحاء الشرق ·

يقتلون النفوس من غير ذنب   وبقتل النفوس قتل الجسوم

